رغيفان وحلم

اسـم الكتــاب: رغيفـــــان وحلــــم

التـأليـــــف: هنــــد عــــادل

نـــوع العمـــل: روايـــــــــــة

مراجعة وإخـراج فنـي: ســالم عبـد المعـز ســواح

رقـــم الإيـــداع: 25374 / 2022

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-335-8

الناشـــــــــر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

٤ ش بديع خيري متفرع من ش عبد الحميد بدوي خلف كنتاكي نادي الشمس مصر الجديدة - مصر.

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

Email za7ma.kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596
002 01100662595

رغيفان وحلم

رواية

هند عادل

الإهداء

كنتُ أرغبُ أن يشعرَ الجميع بحجم الفخر الذي
أكنه لك وأعتقد أن صفحة إهداء تستطيع إيصال
ذلك بطريقةٍ رائعة.

إلى الذي قال لي يومًا لن يوثق اسمك أكثر
من شهادة ميلاد، اليوم أعلن ميلادي
وهويتي التي أنجبها إصراري وحده.

الفصل الأول

ما زلت أذكر جيدًا ذاك اليوم، حين عدت من المدرسة، وعيناي متكدسة بالدموع، من يومها وأنا أمقت حصة الرسم؛ فكيف لتلميذة مهذبة مثلي أن تُعنّف هكذا، في الواقع لم يؤلمني التعنيف بقدر ما آلمني أنني لم أستطع المواجهة؛ فإنسانةٌ عنيدةٌ مثلي ذات شخصية قوية متحررة لم تكن لتترك فرصة لأن يعنفها أحدٌ ما دون أن تخرج كل أسلحة دفاعها، لكن يومها ولأول مرة اخترت الصمت.

الصمت وليس سواه، فكل ما أذكره عن ذاك اليوم أو الذي لم أنسَه قط حين طُلب منّا في حصة الرسم تحضير لوحة نَصف فيها شعورنا حول الأسرة، وحين رأيت كل لوحات أصدقائي شعرت بالخيبة، والحق أنني انهمكت كثيرًا في إيجاد صورة واحدة في مخيلتي لأعبر عنها لكنني لم أجد، وحين ذهبت في اليوم التالي للمدرسة تلقيت خطابًا طويلًا عن كوني فتاة مهملة لم تقم بتحضير واجبه، ولهذا اليوم لا أحد يعلم أن لوحتي الفارغة تمامًا التي سلمتها كانت صادقة كل الصدق بالذي كنت أشعره حين تُنطق كلمة أسرة.

مرحبًا أنا، كيف حالك؟

إلى أي مدى رقت هشاشة خاطرك؟

ما حال ذاك القلب المتآكل؟

ذهني، هل ما زال متقطعًا ما بين ذكرى الماضي وخوف المستقبل؟

مرحبا أنا...

مرحبا بعهد آمَنتُ به... صَدَّقتُهُ وأقررته وتهت ما بين حروفه فاستيقظت من وهلتي على سراب...

سراب صنعته بيدي.. أذعنت كل حروفي وسطوري ومحكمة عقلي ألعوبة ساحر لكني رقصت على منصة قلبي متجاهلة الحقائق...

مرحبًا يا صاحب الأمانة...

مرحبًا يا صاحب قلبي

كم هي سخيفة تلك اللعبة التي نعلم نهايتها المبتذلة لكننا نُصر على إكمالها لنتلذذ بها وبمأساتها...

لكن مَن؟ هذا الوقت سيمضي وتلك الندبة ستختفي أو على الأقل ستخف تدريجيًّا... إنني امرأة تعلمت حين تقع كيف تنهض أكثر قوة تجمع حطامها وتنثره عطرًا يزيد من أناقة إصرارها.

"الحب أعمى"

قرأت تلك المقولة أكثر من شهقات أنفاسي وزفيرها ولطالما كنت أدرك أن الحب أعمى ولكن من جهةٍ غير التي أدركتها مؤخرًا.

الحب أعمى........ يجعلنا الحب عُميًا!!!

خطأ

الحب يجعلنا مغمضي البصيرة لكن بصرنا ما به من خطب.....

نحن لا ندرك الحقيقة إلا بعد نهاية المطاف وبعد الخراب وهدوء ما بعد العاصفة أو عليّ القول عاصفة ما بعد الشرود.....

إن الحب لعنة.. لعنة تصيبنا ولا ترحل إلا بقربان...

قليل منا من ينقذه الله...

يسعدني أنني أبصرت من جديد ويؤسفني جدًّا ما قد أبصرت عليه...

*****

"هكذا نكون قد انتهينا من نظرية لومبروزو وكافة النقد الموجه إليها نظرًا لغموض وإشابة بعض القواعد التي وضعت، ونكون قد انتهينا من مراجعة الفصل الثالث قانون الإجرام هل من سؤال؟؟!!".

يتدافع الطلبة، منهم من يتطلع إلى بعض الأجوبة التي يجهلها، ومنهم من سئم طول المحاضرة ولم يصدق أنها انتهت فهبّ سريعًا يلتقط أنفاسه، وهناك من حملت كتابها ووضعت نظارتها التي ما هي إلا دقائق وتخلعها وهبت بالخروج وهي تثبت سماعة الأذن غير معنية بما يجري وكأنها لا تمت للعالم بصلة أخذت تقرأ الكتاب بين يديها سائرة إلى وجهة تفسر حركة قدميها الثابتة أنها تحفظها جيدًا من غير الحاجة إلى عينيها التي انهمكت في متابعة القراءة...

تطبق كتابها وتفتح باب المنزل بهدوء تدخل غرفتها مترامية بكل ثقل عقلها فوق سرير احتضن دمعها قبل أن يحتضن ذاك الجسد الهزيل.

لا أحد بالمنزل كالعادة تخلد في أسارير أحلامها الوردية لتصحو على واقع مرير.

تتنهد بضعف بصوت مجهد:

- ماذا كان سيحدث يا أبي لو لم يشبّ بينك وبينها الطلاق؟ ماذا كان سيحدث لو ظللنا أسرة سعيدة؟ أليس الحال سيكون جميلًا؟ على الأقل ما كان "ليث" قد قدم استياءه من هذا الأمر وتركني من أجل أمر تافه.... تافه؟! ما من أحد تافه غيره؛ لا أصدق هذا، أأحببت هذا الوغد يومًا؟ تبًّا له إن كان هذا حبًّا.

يقطع خلو تفكيرها وعينيها الشاردتين في اللا شيء صوتُ طرقٍ شديد على الباب تبدو عليه علامات الاستعجال، تفتح الباب مفزوعة لتهبط عليها كلمات غسان: أبوكِ في المشفى يا ندى.........

*****

أعود لأكتب فالكتابة تنهيدة مريحة لي:

مذكراتي العزيزة...

لقد مررت بيوم عصيب طويل جدًّا لا أصدق أنني وصلت أخيرًا إلى المنزل، والدي ما زال متعبًا؛ لقد عاودته الأزمة مرة أخرى، حمدًا لله أنّ رفاقه استطاعوا نقله للمشفى في الوقت المناسب، لقد أعادني غسان إلى البيت وخلد للنوم، لكن ساحر النوم خاصتي أظنه لم يبلغ غرفتي بعد لينثر غبار النعاس على جفنيّ لأنام، أو ربما أفكاري وهموم رأسي بات مفعولها أكبر من تعاويذ السحرة، كم أمقت المنزل وهو ساكن هكذا، حتى إن صوت الخالة دينا لديه ألفة في سمعي فهذا الهدوء يزعجني، كانت اليوم حنونًا زيادة معي خاصة حين احتضنتني، وجدت بها الرحمة والطيبة.

أنا أحبها لكن لا أجد بها ما يرويني من عطش حنان الأم صحيح إن أول فكرة خيطت بعقلي حين فكرت العيش مع والدي وزوجته دينا أني سأصبح سندريلا وأواجه الخالة الشريرة الشمطاء التي ستعذبني وتجعلني أقوم بجميع الواجبات المنزلية إلا أن هذا لم يحدث سوى بمخيلتي.

إنها شخص مهذب وودود وتحاول دومًا معاملتي بلطف وبالرغم من أنني لم أجد بها القسوة لم أجد أيضًا فنيّات الأمومة فلم يشاركني أحدٌ أسراري، لم تطمئن عليّ حين امتنعت عن الحديث وأمضيت طيلة الوقت أكتب وأقرأ، لم تنتبه لشحوب وجهي الذي أخفيته بكثير من منتجات التجميل، لم يلاحظ أحد أنني لم أعد أنام، ولم يلحظ أحد أنني أقرأ لساعات طوال وأني أمتنع عن وضع نظارتي لكيلا أرى أحدًا، لم يلحظ أحد أنني أصبحت أضحك أكثر على كل ما لا يستدعي الضحك وأثرثر كثيرًا وأتحدث بسخافة كي لا أتفوه وأصرخ بما يقطعني إربًا، لم يلحظ أحد أن ذهني ما عاد هنا بل على بُعد مئات الأميال؛ أني ما بِتُّ أنا. كنت أود أن تكوني بجانبي يا أمي؛ هناك الكثير من الأشياء التي أود سردها عليكِ، تُرى لو تعلمين بمرض والدي هل كنت لتدعين له بالشفاء؟ فدعاء الأمهات مستجاب دومًا..

لثالث مرة يرن المنبه

لقد تأخرت وجسدي منهك قد غفوت على مكتبي وليست أول مرة. أخذت حمامًا باردًا واحتسيت قهوتي المُرَّة التي ليست أقل مرارة من مواقفي تلك، تناولت بنطالًا من الجينز وبلوزة سماوية اللون وأخذت بعض الحاجيات التي يحتاجها والدي وكتابًا لأُمرر به ساعات انتظار جسد والدي ليخبرنا بأي إشارة أنه استفاق من غيبوبته .

أخذت أدراجي هابطة من البيت حين قاطعني صوت ليس بالغريب عليّ، كنت أود أني أخطأته لكن حدسي كان صحيحًا؛ إنه ليث، واجهته بعصبية:

- أعتقد أنني أنهيت كلامي والموضوع لا يحتاج.

قاطعني بعجلة:

- أرجوكِ ندى، فقط فرصة أخرى، أعلم أنني كذبت ولم أكن عند حسن ظنك، أرجوكِ سامحيني، من مَّنا لا يخطئ؟ كما أنني علمت من ريم أن والدكِ مريض وهو السبب في تَغَيُّبك عن الجامعة كيف حاله؟ هل بات بخير...؟

- حمدًا لله، شكرًا لسؤالك يا ليث ولكن إلى هنا وكفى أنا قد قلت كل ما لديّ ولم يعد لدي كلام آخر، قد اكتفيت من ألاعيبك، أرجوك ابحث عن أخرى غيري ولا تنسَ أن تبحث في بيئة تناسبك كي تستطيع احتواءك فقط، أما أنا فقد تعثرت بك لا أكثر... قد أخذت من وقتي أكثر مما يناسب حجمك ابتعد عن طريقي أرجوك، وانسَ ما كان بيننا لأنه ما كان ولم يعد موجودًا بالنسبة لديّ، وداعًا..

ظل صامتًا لدقائق ثم ظهر صوته من ورائها ثانيةً

- حسنًا، اعلمي أنك ستندمين إذًا، وأشد الندم يا ندى.

كأنت هذه آخر كلمات نطقها ذاك المتعجرف، فشاب مثل ليث من مستوى رفيع كيف تصده فتاة! ومن هي ندى تلك؟ إنها مجرد فتاة مخبولة لا تترك كتابها وتعيش دور المثقفة المحافظة على المبادئ والقوانين لم يكن ليث من الشباب التي أحبت ولا التي تحب.

أكملت مسيري وأنا أشعر بالانتصار على قلبي بقدر ما انتصرت على ذلك المعتوه الذي أوهمني يومًا أنه أحبني، صارخة في صمت: تبًّا، أين كان عقلي حين صدقت كلامًا مسكوبًا في جيب حقيقة مثقوب؟

حمدًا لله أن حبه لم يتسلل إلى قلبي كنت سأحتاج إلى مبيد حشري قوي كي أتخلص منه نهائيا..

تابعت طريقي إلى وجهتي وما إن وصلت حتى وجدت الخالة دينا جالسة على أحد كراسي الانتظار تبكي.

*****

الفصل الثاني

لم أكن يومًا امرأة عاطفية لكنه رجل يحرض على الحب.

ضحكات قلب بعث من جديد في هذا اليوم، لتشهد غناءً من نوع آخر يعزفه قلبي.

ما زلنا نحلق عاليًا ما بين تلك الغيوم المتكاتفة حول بعضها وكأنها تحتفي بنا، جنود الشمس ترسل أشعتها حفاوة بنا محلقين بتذكرتيّ سعادة أما الثالثة فما زالت تحوم داخلها مشيرة بيدها اليسرى إلى بطن، أما يدها الأخرى انشغلت بمعانقة أصابع اليد التي انتشلتها من حطامها معلنة عن عهد جديد ستبلغه بعد قليل

*****

وصلنا أخيرًا موسكو، وما الذي يتوجب عليَّ ذكره مع مصطلح موسكو؟ كل شيء هنا رائع ومذهل، يا إلهي فلم أكن أعلم أنها بكل هذا الجمال، بل لم أكد أراها إلا بشاشات التلفاز وأحاديث الآخرين، ولم أكن لأتخيلها بهذا الجمال واليوم قد عشتها حقيقة بكل ما فيها.

الآن نحن بالعاصمة، كم هي رائعة! أتشوق لرؤية كل الأماكن التي حدثني عنها زياد كقصر الكرملين والساحة الحمراء وسانت بطرسبرغ الذي يحتوي على عدة معالم أثرية، متشوقة أكثر وأكثر لرؤية متحف الأرميتاج الشهير ومكتبة فوليتر وكمًّا هائلًا من المعالم الأخرى، أشعر وكأن كل تلك الأشياء قد بُنيت لأنها تنتظرني لأشهدها يومًا ما.

عيناي لا تكف عن الحوم يمينًا ويسارًا متسائلة عن كل شيء حولي، وعينا زياد لا تتوقف عن ترقبي لإحاطتي بكل ما أتوق له، كان لا يتوقف عن إمدادي بكل ما تستقيه جمجمتي من معلومات تُمكنها من إشباع عقلي الصغير، كان يعلم أن صغيرته تحب أن تعرف كل شيء..

دخلنا إلى مطعم كبير تنطق منه الفخامة، جلسنا على إحدى الطاولات التي اختارها "الجرسون" وبمَا أنه ليس لدي خبرة بأنواع الطعام الموجودة هنا فتركت الاختيار له، لم يأخذ منه الوقت طويلًا فقال دعيني أختار ألذ ما تشتهر به روسيا كلها، بضع دقائق وكان أمامنا مجموعة كبيرة من الأطباق من التوابل والسلطات والعصائر، أما الطبق الرئيسي فكان الكافيار الذي قدموه لنا مع الفطائر المحلاة وطبق البيلامني وهو عبارة عن معجنات محشوة باللحم المدخن، بينما كان طبقي المفضل جدًّا البرجي هو ألذ ما تذوقته فعلًا المكون من عجين مخمر يخبز لاحقًا بعد حشوه بالجبن والخضار.

هنا اعترضت قائلة: امتلأت معدتي يا زياد.

- هيا يا وعد أكملي طبقك وإلا سوف تعاقبك جنية المائدة.

*****

طوقني من خصري بحنان داخلين إلى فندق لم أتوقع أنه يوجد فيه مثل هذه الخدمة وتلك العظمة إلا حين شاهدته عيناي، تبعته للداخل وأنا مذهولة من جمال المكان وبساطته رغم أننا ما زلنا بالأسفل نحجز غرفتنا كانت عيناي قد سرحت مجددًا بين السُّواح والأُناس الذين أجهل نصف حديثهم رغم أنني أتكلم الأجنبية بطلاقة لكن ليس بتلك المهارة والدقة.

قطع شرودي المؤقت صوتُه قائلًا:

- وعد؛ هيا بنا؛ انتهينا.

وعد..... ذاك الاسم الذي حاولت مرارًا وتكرارًا أن أجتهد بكل ما أستطيع جعله يتألق، ربما أستطيع هنا، نعم لقد تركت كل شيء هناك ولن أجعله يراودني ثانية، من هذه اللحظة سنبدأ مجددًا، الذي مضى لم يكن سوى كابوس مضى في سبيله ولنبدأ حلمًا جديدًا.

صعدنا الغرفة٣٠٣ معًا، أنا أحب هذا الرقم لطالما كان رقم ٣ المحبب لديّ وأخذت أتساءل: "هل هذه الرحلة تحاول إهدائي كل ما يفرحني أم أن "زياد" الذي لم يبعد طرف نظره عني هو الذي صمم أن يجعل أبسط الأشياء تفرحني؟".

حقا اليوم تذكرت مقولة:

"إنه من اللطيف أن تجد الشخص الذي يتذكر دائمًا أشياء تسعدك ليس لأنك تظل تذكره بذلك بل لأنه يهتم"

دخلنا معًا، وخلفنا خادم الفندق الذي نقل حقائبنا رغم أنها لم تكن تحتاج له؛ كان بإمكان زياد حملها فإننا لم نجلب سوى حاجيات قليلة، إلا أن نظام الفندق يتبع الإتيكيت الذي لم أكن قد اعتدت مثله.

*****

لم يكن المكان أقل جمالا وبهاءً مما تصورت بل ما لا يحتمل تصوري.

دخل زياد ونقل أمتعتنا لمكانها وأشار عليّ بأخذ حمام دافئ فكانت فكرة موفقة.

يستحق المرء القليل من الانتعاش ليكمل جرعة الجمال تلك....

فتح الشرفة ليتسلل النسيم العليل ليرتطم بوجنتي الورديتين وهو يتابع حديثه معي عن الأمور التي يتأهب ليريني إياها، وأنا أستمع بحرارة لأقف بين الحين والآخر مستفسرة عن بعض الأمور لأقاطعه بحدة:

- أتعلم ما الذي ينقص هذه الشرفة؟

أجاب وهو يطوق خصري:

- ماذا ينقصها يا تُرى؟

- بعض الخضرة.

سرح بوجهي لدقائق قائلًا:

- حسنًا وأي أنواع الزهور تريدينها وردتي لتعطيه جرعة جمال؟

بابتسامة شاردة أجبتُ:

- أقحوان.

*****

- أخبرني يا جون، بالله عليك هل هي بخير؟ أرجوك لا تكذب عليّ ولا تركلني ببعض الجمل الاعتيادية.

- إنها بخير حاليًا، لا تقلق يا زياد كل شيء على ما يرام، سأرى المريضة الأخرى وأعود حالًا.

يمسك كلتا يديها بحرقة: هيا يا وعد لا تقلقيني عليكِ، ألم نتفق أن تكوني أقوى من هكذا استيقظي فقط ولا تكترثي هيا استفيقي يا وعد..

*****

لم تكن المرة الأولى التي تصاب فيها بإغماء كهذا، ولم يكن السبب في حملها، إنها معتادة على ذلك الانفصال المؤقت عن الحقيقة والتجول في نطاق آخر ليس له أبعاد، نطاق لا تخترقه شياطين الألم التي تراود أسوأ كوابيسك أو تعكر صفو أحلامك، لست مضطرًا فيه أن تحفظ مواعيد أقراصك التي تبتلعها ابتلاعًا، ولا أن تخلق آمالًا مهترئة تُشكك بها أكثر من إيمانك بها. كانت تدرك جيدًا أن العلاج الحقيقي ليس إلا تجاعيد تحت جفنيها تظهرها تلك الابتسامة العريضة التي تحل جميع المشاكل لكن كان ولا بد من تجربة الطرق الاعتيادية فنحن في واقع لا يؤمن بالحب وكذلك الأساطير كالسعادة.

يأتي جون وفي عينيه حسرة لزياد؛ فلم تكن علاقته معه مجرد علاقة ودية مع طبيب وزوجة مريضة بل كانوا شركاء عمل منذ سنين. كان يصعب عليه إخباره بالحقيقة وهو الذي يعلم أن "زياد" الجالس هناك ليس إلا طفلًا صغيرًا ينتظر وعد وسيصعب عليه إخباره أنها بنسبة كبيرة ستتركه راحلة، وأطرق يفكر برهة بأننا حين نكون صغارًا يخبروننا أن المتوفى مسافر لأن عقول الصغار لا تستوعب الموت، أما زياد فقلبه لا يستوعب البُعد وُربما يتوجب عليّ إخباره أنها ربما تسافر.

*****

إنها لظلمة كالحة السواد، إنني لا أرى شيئًا، مزيجٌ فقط من الأصوات متداخلة حولي، ما من أحد ولا من شيء، إنه الهدوء الساحق الذي يتيح الفرصة لك لسماع ضجيج أفكار باتت مشوهة بالنسبة لعقلك الصغير، إن الرؤية تتضح قليلًا، هناك بصيص من النور يشق ستار الظلمة مفسحًا عن مشهد يبدو مألوفًا بالنسبة لي:

- أمي.. أمي أرجوكِ هل لي ببعض الحلوى الملونة؟

- حسنًا عزيزتي دعينا نصل وجهتنا أولًا وستحصلين على قطعة واحدة كي لا تتضرر أسنانك الجميلة يا ابنتي.

- لا يا أمي أريدها حالًا، أمي، هيا أرجوكِ.

- حسنا عزيزتي أظن أن كلام والدتك واضحٌ؛ سنحصل عليها جميعًا حين نصل المنتزه، اتفقنا؟!

صوت ارتطام شديد هز القلوب، ونيران تتنازع مع بعضها البعض، من يمكنه الوصول لأقصى ارتفاع مصطحبة معها كمًّا لا يحصى من دخان متراكم السواد ما استطاع بكل شحوبه تغطية منظر مروع لسيارة صغيرة كانت قد احتوت منذ ثوانٍ ثلاث ضحكات معلنة انتهاء الرحلة لكن يبدو أن القدر كان له وجهة نظر أخرى وقد قام بتغيير المسار إلى السماء معلنًا الموت بحادث سير مروع نتيجة تعطل الفرامل المفاجئ مما أدى إلى عدم توازن الحركة لعدم القدرة على التوقف، أدى اصطدامها بعامود إنارة لتسحقه فتكمل طريق اصطدامها هابطة من أعلى تل مرتطمة بشدتها أرضًا مع صرخة مدوية تحمل حروفها المتقطعة:

- أمي.

*****

تصحو وعد مفزوعة لتجد نفسها ممددة في فراش في غرفة العناية ليست المرة الأولى التي تصحو وتجد نفسها ممددة في فراش المستشفيات الكئيب، فتهرب دموعها من جفنين قد امتلآ حزنًا على خديها راسمة تفاصيل جمال رغم إطلالته الحزينة على وجهها قائلة:

"إنه نفس الحلم أو الكابوس، تُرى لو كنت قد مت معهما ألن يكون هذا أفضل؟ على الأقل لن أضطر لتحمل شدة هذا العذاب، لماذا اختارني القدر لأكمل رحلتي وحدي من دونك يا أمي؟ وأنت يا أبي كنت سأوافقك الرأي حقًّا ولن أطلب حلوى أخرى، لمَ تركتماني وحدي هنا؟

كنت بحاجة لكما كل تلك السنوات، تُرى هل تشتاقان لي كما أنا الحين؟

ترى لو كنتِ بجانبي يا أمي ألم تكوني تدعين الله من أجلي أو تسهرين لمرضي؟ إني متعبة يا أمي، جسدي لم يعد يحتمل ألمًا، لقد أخذ المرض ما أخذ مني، تآكل جسدي تآكلًا، إنني أضعف من أي وقت مضى، لا أعلم أظن أنني لن أحتمل مزيدًا من العمليات البائسة وأفكر في أخذ تذكرة لعالمكما يا والديّ، لكن هنالك زياد الذي اشتعل حبًّا وسهرًا على راحتي، بات ليالي يطمئنني وهو يربت على كتفيّ، أخشى عليه كثيرًا من تحمل مشاقٍ أخرى، كنت أود يا أمي لو رأيتِ زوجي، صحيح أنه لم يسجل زواجنا في المحكمة علنًا وأننا قمنا ببعض الأوراق عرفًا وهذا كان لبعض الظروف لكننا سنثبته بموسكو حالًا هنا بعد أيام......".

يقطع حديث أفكارها وذاتها صوت اخترق قلبها بخطواته الحنون مرددًا:

- كيف حال وردتي؟ قد صحت أخيرًا بعد سُبات طويل بعيدة عني...

- متعبة يا زياد هل تعتقد أن عمليتي ستنجح؟

- ستنجح.. ستنجح يا وعد وسنغدو عائلة سعيدة يا سعادتي كلها. والآن ها قولي لي ما أحوال صغيرتنا؟ هل تشاكسكِ مجددًا؟

ارتسمت على وجهها بسمة من طريقته المضحكة ليرد بسرعة معلقًا عليها:
- وأخيرًا ها قد تكرمت أمك أخيرًا ببسمة محيّة لقلبي.

يطرق دكتور جون الباب ثلاثًا ويستأذن بالدخول ليطمئن على حالة المريضة ويتأكد من أجهزتهم التي كبلتها من كثرتها لتحميها....

ينهي أخيرًا جون فحوصاته قائلًا -بعد أن فرغ من التأكد من كافة التحصينات-:

- أؤكد لك يا زياد؛ وعد بحالة ممتازة وأكثر وأتمنى أن تظل بحال كهذه لأن موعدنا مع تخطي المرض غدًا".

استأذن جون بزياد حتى يكملا حديثهما خارج غرفة وعد:

- غدًا!!!! كيف هذا يا جون ألم تقل إننا سنجريها الأسبوع القادم؟

- بلى، لكن وعد بحالة جيدة الآن وأريد انتهاز الفرصة الآن، كما أنني تلقيت اتصالًا من الشركة وكانوا يستعجلوننا في الدفع، أنت لا تريد إفساد الصفقة علينا أليس كذلك؟

صرخ زياد: أي صفقة التي تتكلم عليها الآن يا جون وزوجتي بين الحياة والموت؟!

- يؤسفني جدًا ذلك يا زياد ولا أود أن تفهمني خطأ لكن العملية في هذا الوقت لصالحنا فما المشكلة؟

هز زياد رأسه ودخل للغرفة مجددًا:

- ما قولك يا وعد؟

نظرت مليًا للأسفل قائلة:

- ألا يمكننا تأجيلها قليلًا بعد حتى أكون قد اطمأننت على طفلتي؟

- لن يناصرك الهروب يكمن الشفاء بالمواجهة فقط.

بنظرة بعيدة تتخطاها لتعبر إلى أعين زياد لتتنهد في عينيه بألم ثم بنفس طويل قائلة:

- حسنًا، إن خير البر عاجله، غدًا، غدًا بإذن الله وليحميكِ الله صغيرتي...

- حسنًا فليباركنا الله إذًا ولتستعدا غدًا الساعة الحادية عشرة مساءً يتوجب علينا البدء وبإذن الله سيكون كل شيء على ما يرام، كفاكما قلقًا؛ هذه ليست أول عملية تنجح.

أكمل جون حديثه ببسمة عريضة لوعد:

- هل ستكونين مستعدة؟

- مستعدة؛ فما زلت على قيد الحياة.

- لا يتوجب علينا أن نكون على قيد الحياة لنواصل ونتخطى، حين تتخطين ببسمة تتخطين الألم لتعبري للغد لكن إن كنتِ تودين تخطي الألم فقط فإنك تتخطين الحياة.

غادر جون الغرفة تاركًا كلماته تكمل طريقها إلى قلب مؤمن بدأت ناره تخمد في حدة العاصفة لكنها لم تنطفئ بعد، لم ينسَ حين رآها أول مرة، وعد تلك الشابة ذات الابتسامة المتألقة والعينين اللامعتين واقفة بكل صلابة تتلقى خبر معاركها بكل هدوء، لم يتوقع للوهلة الأولى أنها مريضة، رغم جسدها الهزيل المتعب وشعرها المتساقط ووجها الشاحب إلا أن بسمتها المليئة بالحب والأمل خانته لوهلة وظنها زائرة ليس إلَّا، كانت دومًا مشتعلة نشاطًا وحيوية وأملًا وحبًّا وحلمًا، كانت ضحكتها وعدًا جميلًا مصيره الحياة.

شدّ زياد على يدها: لطالما كنتِ بسمة الغد مشتعلة أمل، أنتِ التي حاربتِ قبل بدء المعركة وقطعتِ أشواطًا لا تحصى، أنتِ من قلتِ "مؤكد" أثناء ال "ربما"، أنتِ من أشعل نورًا من روح خامدة، أنت شمسي يا وعد، ما من شمس تنطفئ، ما اعتدتك خائفة، أنا بجانبك، بخيالك، بعقلك، بقلبك، روح بجسدك سائرة.... فلا تصغي لشياطين بؤس خائفة".

كم تمنيت لو أُخبرها بذلك لكنني آثرت الصمت مُكتفيا ببسمة، وحين ردت عليّ بواحدة تأكدت أنها فهمت ما كنت أود قوله.

ضغطتْ على يده بحنان:

- لا تقلق عليّ، ربما إن لم أتعافَ من السرطان فقد عافاني الله من كثير، دعني أخبرك قصة قد قصصتها لي منذ زمن أرغب في سردها مجددًا ما زال لدينا متسع من الوقت أليس كذلك؟

"يحكي أنه ذات يوم مر رجلٌ من الصالحين على رجلٍ أصابه شلل نصفي وكان الدود يتناثر من جنبيه، وكان هذا الرجل أعمى وأصم، ووجده يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به الكثير من خلقه. فتعجب الرجل ثم قال له: يا أخي ما الذي عافاك الله منه لقد رأيتُ جميع المصائب وقد تزاحمت عليك. فقال له: إليك عني بطال فإنه عافاني إذ أطلق لي لسانًا يوحده وقلبًا يعرفه وفمًا كل وقت يذكره".

- تعلمين وعد؟ إنه أنا من تعافيت بك ومنك وإليك.

***

في الممر الطويل تعبر ممرضة لتدخل للطبيب جون قائلة:

- المريضة مستعدة لدخول العملية.

- حسنًا أخبريها أن تستعد.

نظرة أخيرة هاربة إلى بعيد تبحث عن مرسى لها، طائر مجروح يستنجد بعش حاطًا عليه، كانت لمعة عينيها شعاعًا ثاقبًا يهبط مكتنفًا جفنيه يروي له كلمات "انتظرني إنني عائدة".

كانت تلك ثوانيها الأخيرة قبل دخول لجنة تحكيم مع القدر إما أن تأذن لها بإكمال طريقها أو إحالتها لسفر من نوع آخر لا تمتلك به تذكرة عودة فقط ذهاب أبدي، راكبًا في طائرة القدر لتحلق بروحك بسماء الآخرة ناظرًا إلى جسدك الهزيل يلوح لك مودعًا بين دفتي تابوت معلنًا النهاية لبداية أخرى نسجتها أعمالك الدنيوية..

يأخذ سريان العرق على جبينه متخذًا تضاريس على وجهه قد تمكن السهر الطويل والتعب من حفرها على ملاحه، كانت الدقائق حينها قرونًا طويلة وكأن قوانين الزمان انقلبت رأسًا على عقب وباتت تنسج الساعات في أمد آخر، كان كلما نظر إلى الساعة وجدها السادسة صباحًا مصدرة ذلك الصوت الاعتيادي الدال على عدم توقفها لكنه يبدو اليوم مخيفًا بدقاته المتتابعة تلو الأخرى كأن عقرب الثواني ما كان يدق بخطواته الدقيقة إلا ناقوس الخطر وكأن كل ثانية تحمل صرخة اختزنها في عقله جليًا، عقرب الثواني يمر معانقًا عقرب الدقائق على التوالي لكن ما زالت السادسة صباحًا، هل انقلبت الموازين وسكن الزمان معلنًا انتهاء عمله معلنا تقديم أوراق استقالته؟ أم أنه هو من بات لا يدرك شيئا، جالسًا حبيس وحش الانتظار؟

أفكار هائجة تتراطم عاليًا في سفوح الأفكار في عقل مشوش اتخذت أحداث يومه ضجيجًا عاليًا مدويًا لم تتمكن أقراص المسكن السيطرة عليه ولو لثوانٍ، كانت كلها تصيح متى ينتهي هذا؟

كانت خطوة جون المرتقبة هي المنقذ له أو المميت لروحه، كان مترقبًا، نعم أم لا، جنة أم نار، حياة أم فناء، أسود أم ألوان، لا مجال هنا للرمادية فقد

كانت العملية بمثابة نهاية رحلة إما أن تنتهي معلنة النهاية أو مفصحة عن جزء آخر سيتم إخراجه ينم عن سعادة قد نسجتها خيوط أمل ما أضناها التعب والألم.

في أثناء العملية يصيح أحد أطباء الجراحة:

- دكتور دقات القلب غير منتظمة والتنفس يكاد يختفي ما الذي يتوجب علينا فعله؟

يتسرب العرق من جبينه لثوان بين يديه ليطبق ما تعلمه في سنين، آلاف الكتب درسها حتى ملَّها ليطبقها على مريض مسكين ضحية سرير معدني في غرفة مظلمة مسلمًا حياته لأنامل تأخذ إشارات من عقول تتشاور فوق رأسه غير واعٍ بشيء، إنها ثوانٍ فقط ما الذي يتوجب عليه فعله؟ يكاد عقله يتوقف؛ إن المريضة حامل والجنين في أشهره الأخيرة يستشعر أن التنفس قد انقطع عنها ونبضاتها غير منتظمة هذا يعني أنه يفقد روحين؛ روح قد سئمت وروح ما حييت بعد لتفقده، نظرة شاردة عائدة إلى خمس سنوات فيما قبل إلى مكتب الدراسة وكتب الطب ومعمل التجارب ومدرج المحاضرات وغرف التشريح كانت كفيلة تلك الثانية بأن تعيد اتزانه ليشطر الثواني باستعادة اتزانه مكملًا ما بدأه.

تصحو وتفتح عينيك لينبعث النور إليهما أو أنهما من يبعثا النور للكون من يدري! من غير المعتاد أن نصحو ربما على حياة أو ممات لكن أمِنَ المعتاد أن نظل على قيد الحياة؟ يعطينا الرب كثيرًا من الفرص لنواصل، لنثبت أحقيتنا بالحياة لنصل إلى ذواتنا قبل أحلامنا لنبلغ الغد.

تفتح عينيها بصعوبة بالغة، رأسها مثقل فما زال تأثير المخدر يسري بجسدها لكن سريان الأمل بالحياة بروحها كان أشد مفعولًا.

تتحسس بطنها لتتأكد أنها لا تحلم أو ما زالت في غيبوبة مستسلمة لها.

تشعر بحركتها، نعم تلك الروح التي تضج داخلها ما زالت هنا تعبث بأرجلها تود الخروج لوالدتها، تترقرق دمعة فاضت بها روحها متسائلة:

"هل نجوت حقًّا؟

هل أنا بخير؟

هل ما زلت على قيد الحياة؟

هل أعطاني الرب فرصة أخرى لأبعث من جديد؟

هل جنيت ثمرة كفاحي؟

أنا لم أستسلم أليس كذلك؟!!"

تنظر جليًّا لتتأكد أنها موجودة حقًّا

ترفع رأسها من سرير معدني بارد يحتضنها لأول مرة بدفء، لأول مرة تشعر أنه لا يتجرع من طاقتها، لا يستنفد من حيويتها.

ترفع رأسها فتقيد حركتها أجهزة المحاليل المتصلة بيديها الصغيرتين المستسلمتين لقيودهما بسلام.

دخلت الممرضة بابتسامتها المعهودة:

- صباح الخير أرى أنكِ استيقظتِ، حمدًا لله على سلامتك، أود أن أطمئنك، إنك في حالة جيدة وممتازة وكل شيء على ما يرام.

- هذا بفضل الله ثم فضلكم، لكن أين زياد؟

ببسمة متصنعة ردت:

- ربما خرج ليحضر شيئًا ما.

- "كنت فقط أود أن يكون أول من أفتح عينيّ عليه وأول من يُبشر بخبر عودتي".

- لا تقلقي، لكن حاولي أن تستعدي للخروج من المشفى لقد أخبرني دكتور جون أن أستعجلك لأنه سيوصلكِ للبيت كي تنعمي بأكبر قدر من الراحة.

*****

(الفصل الثالث)

وجوهنا راكدة تُرى من سيخبرهم عن أمواج عقولنا؟

- أبي، هل ترغب بكأس من البرتقال؟ لقد حضرته للتو.

أجابها دون أن يرفع رأسه:

- سلمت يداكِ، لكني لا أرغب.

- ماذا؟ أبو غسان لا يرغب بكأس برتقال من الطباخة المحترفة على مستوى البيت في إفساد الطعام؟!!

انتشلته تعابيرها وكلماتها الضحوكة من رأسه ليدفع ببسمة على تعاليم وجهه المثقل بتعابير يعتريها الإبهام.

- حسنًا، ألا تود أن تخبرني ما الذي حل بك؟ ها قد تعافيت، حمدًا لله، وها قد أخرجناك من المشفى، من ذا الذي يجرؤ على تعكير مزاجك هاا...

صمتٌ قد غزا الملامح قبل فم لا يكترث للسؤال معلنًا موت الكلمات ليس بمبالٍ بما اعترى صدره من كتمة تجتاحه كل حين..

لم تكن ندى تحب أن تثقل على أبيها، كانت تعلم أنه لا يحب إظهار ألمه ولم تود إجباره على التحدث ما لم يود هو ذلك؛ فغيرت الحديث لتخبره رأيها عن آخر كتاب قرأته فكان يحب الاستماع لثرثرتها عن شخصيات كتبها التي ما تركت بطلًا إلا وأُعجبت به...

دخلت غرفتها؛ عالمها الأعمق باحثة عن حروفها المختبئة في جيب قلبها الصغير، كانت كلما ودَّت التحرر من أفكارها سجنت نفسها بين أسطر دفاتر لعل سجن كتبها يمنحها الحرية.......

إلى ذاك الركن المخبأ جيدا، الذي أفر إليه دون أن يلحظني أحد، أختبئ به خلف ملامح يتخللها الصمت لتردف هناك بالبكاء، بالصياح، بالعويل، بالدعاء... أرفع الموسيقى أعلى فأعلى أصنع ضوضاء عالية تمنعني من سماع أفواههم لتسمعني صوت حديث عقل وقلب متعانقين يعتصران ألمًا، كلمات مرتعشة تقف خلف لسان عجز عن إيصال صوتها "كفى اتركوني وشأني" صدى صراخ طويل يصطدم بصدري لا يقوى على اختراق حاجز خوفي. لا أعلم هل تخاذلت قدماي عن حملي أم أن الجاذبية خانتني أيضًا ورفضت حملي مناقضة قوانين الطبيعة.

يحتضنني برد قلبي وتربت على مقلتي دمعات هاربة لم تعد تقوى على المكابرة فشاءت الانسحاب.

ذاك الركن الذي اختزل ما تبقى بي من سلام اجتاحته روحي ولم تنبشه ريح شرهم بعد.

ذاك الجزء الضعيف الباكي الهش المرتعش الخائف الذي يختبئ وراء قناع القوة والمهابة والتحدي والأمل.

ذاك الركن البعيد الهادئ الذي لا أعلم إلى أين ينتمي ولا كم يعتلي.

ذاك الركن الذي كلما وددت ترميم جروحي ومداواة ندباتي وإصلاح روحي المهترئة وليت هاربة إليه....

تركت حروفها تنهمر على أسطر جافة اشتاقت الارتواء من حبر قلم حمل بجوفه مراسم دفن قلبها.

تكتب وتكتب لعلها تفرغ ما اغتشاها من فكرها، من عقلها، من قلبها، من روح اهترأت من كثرة عواصفها..

تترك قلمها يتسامر مع حروف أسطرها وتولي رأسها إلى مخدعها لعلها تجد في رحلة نومها ما يريح قلبها...

****

نفخت بحنق:

- محاضرة مملة.

بصوت هامس أجابتها ندى:

- حسنًا، اصمتي سوف نُطرد قد أوشكتْ على الانتهاء...

بنفور كبير ردت:

- حسنًا...

- يا ألله، وأخيرًا هواء، كادت أنفاسي تنقطع في الداخل.

- ما رأيك بكوب قهوة يعوضنا عن ذاك الملل؟

توقفت ريم لتنهرني:

- بتِّ تشربين كافيين كثيرًا وهذا مضر، ألا ترين آثاره تحت عينيكِ؟

بضحكة مترفعة:

- أوووه لا تتحدثي عن رفيقتي هكذا إنها مواساتي في رحلة طريقي المأساوية .

رغيفان وحلم

أخذت كوب القهوة وجلبتُ لها عصير الليمون الذي تفضله وجلسنا معًا نتبادل أطراف الحديث متبادلين الضحكات، منها على ما تفعله بعض الفتيات المتعجرفات من سبلُ جذب انتباه الشباب والأزياء الرديئة والأسعار المتضخمة والعمل والتعب ثم جلسنا صامتين، كلانا يحدق في جهة يشرد في ذهنه مئات الأفكار لتردف ريم بقولها:

- قد بت متعبة جدًّا.

أرغب أن أنام أن أفصل رأسي قليلًا ليكف عن الدوران.

مبتعدةً عن التفكير بكل ما يخنقني ويؤلمني

أتمنى ألا أفكر في الناس الذين اشتقت لهم واشتياقي لهم يخمدني يومًا بعد يوم..

ألا أفكر في الناس الذين آذوني

ألا أفكر في أناس آمنتهم وقاموا بخيانتي مبتعدين ببساطة

ألا أفكر في كل حزمة الأحلام التي قد بِتُّ أرعاها ليالي ولم تتحقق وضاعت مني ذاهبة إلى من لم يفكر بها يومًا..

ألا أفكر في أشياء لن تحدث

أود ألا أفكر بتاتًا.....

وددت أن أقول لها إذًا فلتفكري باللحظات الحلوة

فكري بالشخص الذي تحبينه ويحبك

فكري بالأشياء الفريدة التي تملكينها

فكري بكل ما تملكينه والذي تودين أن تحققيه وكيف تبدئين به.

فكري كم من شخص جعلتِه سعيدًا بمجرد كلمة وبسمة منك

فكري كم مرة مررتِ بتجارب مؤلمة وصعبة وتخطيتها وأنت قوية، أكملتِ صامدة مبتسمة.

نحن لا نستطيع الوصول إلى الجهة الأجمل إلا لحين إغلاق باب الماضي وتجاهل الخذلان وخياطة الألم

في إحدى الليالي، قال لي شخص ما: كلما خذلك النوم عزيزتي وراودتك كوابيس آلامك فكري بأكثر شيء تحبينه سوف تنسين ما يؤلمك وتخلدين لأحلام رائعة... بعدها اكتشفت أن ليس التفكير بكل ما أحبه هو ما يجعلني أغفو، لا إنه التجاهل أو التغاضي أو النسيان إنه جرعة نتناولها كل يوم كي نخدر جرحنا ونستكمل طريقنا.

لكني كنت أعي جيدًا، أنها من النوع الذي يُفضل البوح للتخلص من عبئه. وأي محاولة للتخفيف عنها ستبدو أكثر ثقلًا عليها فاكتفيت بالشد على يديها كما تفعل ذلك دوما

طفت ابتسامة على شفتينا وحل الصمت مجددًا وودعتها حيث ولت طريقها إلى بيتها أما أنا فقد حان موعد عملي هناك في هذا المحل الصغير لبيع الأنتيكات القديمة، مدّني هذا المكان خبرة في الحياة لا تقل خبرة في مجاله لذلك أحبه جدًّا وإن العم طوني يحبني كثيرًا وبما إنه لا يملك أي أبناء يعتبرني فتاته الصغيرة وبحكم سنه فهو لم يعد قادرًا على إتمام كل مهام البيع فقد سلم لي أمانة عمله بأكملها وآمل أن أظل محافظة عليها على أكمل وجه.

مرة أذكر أنه قال لي: يا ابنتي ليس كل ما هو قيم قديمًا وإنما كل قديم قيم... كذلك قلبك يا ابنتي كلما كان قديمًا يحتفظ ببراءة وطيبة الطفولة زادت قيمته إياكِ أن تستبدليه يومًا بقلب معاصر لهذه الأيام، حافظي على ما تتميزين به يا ابنتي ولا تُفقديه رونقه....

مرت الأيام على هذه العبارة كنت قد فهمتُ معناها جيدًا لكن يومًا بعد

يوم كلما تذكرتها اكتشفت بها المزيد من المعاني والمزيد من الأسرار والمزيد من الرشد.

مررت في طريقي بالمكتبة اشتريت كتابًا ومررت ببائع الفطائر واحدة لي وواحدة للعم طوني لا بد من غذاء المعدة بجانب العقل، ووليت للعمل..

يوم لا يختلف عن كثير من الأيام سوى تغير أرقام التاريخ، أنهي قهوتي، أنشغل قليلًا مع الزبائن، أنهمك في العمل ثانيةً، أنهيه وأصنع مزيدًا من القهوة، وأقرأ قليلًا في كتاب، نتناقش أنا والعم طوني قليلًا.

يبدو أنه اليوم ليس في مزاجه المعتاد إنه شخص مرح جدًّا وفكاهي بالرغم من تفكيره المثقف والمترفع، يحب الحياة والبحث والإيجابية والحديث والعلاقات لكنني أجده اليوم ليس في طبعه المعتاد، لا أستطيع الحكم عليه، إنه حزين فلم أعتد عليه هكذا، إنه حين يحزن يضحك كثيرًا مستهزئًا بما حدث ويتجاهل، لكنه اليوم يخفي شيئًا ما؛ فهو شارد الذهن وكأن صراعًا قد حلَّ في عقله أتمنى أن يكون بخير..

ألقيت التحية عليه فقد انتهت ساعات عملي بعد إصراري أن أفعل له شيئًا نتيجة لمزاجه المتقلب هذا، لكنه طمأنني قائلًا: إنه بخير، فوليت ذاهبة في طريقي إلى البيت متأملة الشوارع والطرقات ووجوه العابرين ووجوه مصطنعة تعبت من كثرة التمثيل.

أتأمل المياه الراكدة في الأنهار والنار المشتعلة في أعين الغاضبين والملامح الخامدة في آخرين، أتابع وأجوب ببصري، العين لا تخطئ، يمكنك إخفاء كل ما بقلبك لكنّ عينيك ستشي بكل ما حاولت إخفاءه..

أتجول في جهة غير معلومة، هناك شعور يخبرني أنه لا يود الذهاب للبيت لذلك وليت عابرة لطريق النهر فإنه مكان هادئ ومناسب لتجتاحك فيه ذكريات الأيام..

****

(الفصل الرابع)

متُعبة من كل هذا السقوط متى أرتطم...

نعم أنا تائهة، لا أعلم أين أنا، هل عُدت أحلم مجددًا؟ أخرجوني من رأسي، يكاد التفكير يقتلني لم أعد أحتمل مزيدًا من هذا الهراء.......

صارخة بوجهها بقوة: كفِّي عن الصراخ، بربك لماذا أتيتِ إلى هذا العالم البائس؟؟ أنا لم أعد أرغب بك.

المزيد من البكاء يتوالى على سمعي لَرُبما كان هذا البكاء أكثر أنواع الطرب لي منذ فترة، أما الآن فأنا أكره كل شيء لكن ليس هي، فما ذنبُها؟ فهي فتاة قد جاءت منذ يومين لتنشأ على حافة الخذلان والألم، لمَ؟

أكاد أُجن، ضممتها إلى صدري أكثر فأكثر وأنا أُقبِّلها، ابنتي، إنها ابنتي التي حلمت بها كل هذه الأيام.

لم كُتب عليها العذاب منذ أول يوم جاءت فيه؟ هل تصر الحياة على معاقبتي بها أم أنها تود معاقبتها هي أيضًا؟ هل يُعاقَب الأطفال! ما الذنب؟

كفّتْ عن البكاء بعدما علمت أني لم أعد غاضبة منها وقد سلمتني أنا النوبة، عيناي لم تتوقفا لحظة عن ذرف دموع هاربة تملأ محيط بأكمله لم أعد أستطيع المشي فالجو شديد البرودة والمطر بدأ ينهال مع نوبة من العواصف نسيت أنني لست في وطني ذي المناخ المعتدل الذي لن يقسو عليك هكذا مع قسوة ظروفك في آنٍ واحد وأن جو روسيا يمتلك شتاءً قويًّا، ضممت صغيرتي إليّ أكثر وجلست في ركن صغير منزوٍ، لم تعد قدماي قادرة على حملي ولم تعد أفكاري قادرة على الصمود أكثر فوقعت مغشيًّا عليَّ.

****

ضحكات، ضحكات متتالية تقترب من سمعي أكثر فأكثر، ونور أراه من بعيد يرتبط بتلك الأصوات مع سيمفونية هادئة لا أعلم مصدرها ولا من أين أتت.

محيط فارغ كبير، أجري لاهثة أجري وأجري والصوت يعلو أكثر فأكثر والصورة باتت تتضح شيئًا فشيئًا، ماذا؟ إنها أمي، أبي، أنتما هنا؟ اشتقت إليكما كثيرًا.... انتظراني إني قادمة، وكلما جريت بُعد الطريق وناديت وجريت وأسرعت للحاق بهما، لقد اقتربت، نعم وأخيرًا فقط امسكي بيدي أمي، هيّا أبي التقطني بذراعيك كما اعتدت أن تفعل، فجأة ابتعدا أكثر فأكثر وغزا الظلام أكثر وأكثر، لا لا لا انتظراني ماذا هناك؟ ماذا يحدث؟ أين أنا؟

****

هببت واقفة من فزعي، يا إلهي، إنه كلب.

"ابتعد"

صِحت به حتى ابتعد قليلًا يبدو أنه هنا منذ مدة يحاول أن يساعدني حين أُغمي عليّ..

أتابع النظر إلى صغيرتي الراكدة أمامي، النائمة في سبات عميق، يا حبيبتي لم كُتب عليك كل هذا الشقاء؟ أنا هنا في بلد أجنبي راكدة وتائهة في أزقة لا أعلم عنها شيئًا والأكثر بؤسًا إنني تهت عن نفسي؛ لهذا الوقت لم أعد أستطيع فهم ما حدث لي؛ لقد توقف عندي الزمان منذ دخلت غرفة العمليات تلك، كانت آخرُ عينين ألقاهما هما عيناه ويا ليتني لم أدخل فقط، وكأنني نمت لأصحو على أبشع كوابيسي...

لقد تمت عملية استئصال الورم بنجاح بعد رحلة طويلة متعبة مع الكارسينوما، سرطان الجلد. قد عانيت منه أعوامًا ولم أستسلم لكن يبدو هكذا أني استطعت النجاة منه وتحولتْ بعدها كل الألوان فجأة لرماد وسواد كالح، وبتّ في كابوس كبير لم أعد قادرة على الاستيقاظ منه ولم أعد قادرة على

تذكر ما حدث، إن أطرافي تكاد تتجمد، لم أكن أعلم أن قوة البرد ضعيفة هكذا إلى هذا الحد، نعم أكاد أتجمد لكنها لم تستطع الفتك بذرة نار واحدة تهيج في صدري.....

أضم صغيرتي التي صحت لتوّها متابعة نوبة البكاء التي تقطعني إربًا منها أم عليها لا أعلم..

دنوت من أذنيها وبدأت أغني لها، وقد بدأت هي في التهام اللبن الذي سال من صدري بمجرد قربها منه وانتفضت لدي الأمومة عندما رأيتها هادئة بهذا الوجه الملائكي خاضعة باستسلام ترضع...

دنوت منها أدندن تلك الأغنية التي قد سمعتها كثيرا:

حلوتي ستنام بهدوء وسلام
ستحلق وتطير فوق أجنحة الحمام
نحو سماء جميلة
نحو سماء ونجوم حلقي فوق الغيوم
لتشاهد أجمل قمر نائم يحلم معنا القمر الحالم
نغني نطير، نحلم بالكثير، لا نيأس مهما...

توقفت عن الغناء قليلًا لأتذكر باقي الأغنية لكنني عجزت.

لم أعد أذكر أو أنه ليس مهمًا.

الطقس ما زال يرعد ويبرق ويمطر ونحن جالستان في زاوية في منعزل.

بدأ الرعد يهدأ قليلًا لكن المطر ما زال يهطل بغزارة، نظرت إلى صغيرتي التي ترتعش بردًا أضمها أكثر مني وأدفئها بدموعي:

- ماذا يا صغيرتي؟ أخبريني إلى أين نذهب؟ نحن في العراء لا مأوى ولا مأمن ولا طعام، يا رب ما الذي يحدث.. انجدني يا ألله..

لم أعد أشعر بشيء وانتابتني قشعريرة سعادة لم أعهدها من قبل وكأنني حييت من جديد حين رأيتها تبذل جُهدًا في فتح عينيها، منذ أن جاءت وهي مغمضة العينين والآن قد أُطلق نورها.. ما أجملك! تمتلكين نفس عينيه ونفس اللمعة تلك..

نظرتُ إلى السماء طويلًا وهي تهطل مطرًا، وكررت: ديم.. نعم إنه جميل صغيرتي، ديم، ما رأيك ألا يعجبك؟ بالطبع جميل كجمال عينيكِ التي لم أكن أود أن تتفتحا على هذا الظلام.

بالله ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ مَنْ لي غيرك يا رب ساعدني ألهمني..

ما إن فرغت من دعائي حتى تفاجأت به.

شبح يختلس النظر من الطرقة ويجري مسرعًا، هببت ناهضة إذا به طفل صغير لا يتعدى الخمس سنوات وقف بقربي يلهث ولا يكاد يأخذ نفسه يبدو أنه كان يركض كثيرًا.

دنوت منه وانتظرت حتى بدا بالحال التي تمكنه من أن يتكلم، حدثته:

- هل أنت بخير صغيري؟ ما بك؟

نظر إليّ محدقا باستنكار... أوه نسيت أني بروسيا والعربية خارج نطاق الفهم، هنا حاولت أن أسأله بالإنجليزية مجددًا ربما يفهم، لكن ما إن أكملت جملتي حتى رأيت وجهًا مغيرًا علينا تبدو عليه ملامح يتخللها الغضب بجسده العريض وثيابه الرثة وبصوت أجش تلفظ وهو عاقد الحاجبين:

- أتعرفينه؟

تعثرت في لكنتي الإنجليزية:

- أبدًا قد رأيته لتوي.

فتركني راحلًا بغموض كما أتى.

لم أشغل بالي بذاك الموقف، كل ما كان يجوب ذهني هو إيجاد مكان أرقد فيه بسلام أنا وصغيرتي بعيدًا عن نظرات العابرين المتفحصة.

أخرجني من تفكيري صوت بكاء صغيرتي:

- لا بد أنك جائعة عزيزتي، تعالي إليّ.

أخذتها في حضني وبتنا نسير على غير هُدى بين الأزقة لا أعلم إلى أين وجهتي وأين مرساي.

كانت الطرقات مليئة بالقاذورات ومواء القطط الجائعة التي حتما ليست أكثر جوعًا مني وتتخللها الحانات التي تفوح منها رائحة النبيذ والخمر.

مشيت أسرع محاولةً إيجاد أي مكان يمكننا المكوث فيه لبعض الوقت لنكون في مأمن قليلا، قد قاربت الشمس على الهروب مجددًا وهذا معناه أن الظلام سيحل ولا أعلم من حلَّ أولًا ظلام الليل أم ظلام الأيام على أمٍّ وطفلة ليس لهما من شمس تغدو.

أرهقني المشي حتى ما عدت أشعر بقدمي ولم أعد أرى أين أسير فجلست محتضنة "ديم" في أحد الأزقة القديمة شبه المهجورة.

****

- لا مارلي لا تحركيها هكذا؛ هي ما زالت رضيعة، أمسكيها جيدًا.

تجيب مارلي بتأفف :

- "حسنًا، ليس عليك سرد ما يتوجب عليّ فعله روني، كل ما علينا الآن هو جعل هذه المرأة تستيقظ، إنها متجمدة تقريبًا، يا تُرى ما الذي جعلها في هذه الحال؟ لا يبدو عليها أنها من هذه المنطقة ووجهها لا يحمل بؤس الفقراء.

انظر إلى ثيابها، بالرغم من أن بها بعض الخدوش والتمزق لكنها ما زالت جديدة يكسوها الترف، هناك قصة ما يا روني ويجب علينا الاعتناء بها جيدًا حتى نعلم مَنْ هي ومن أين أتت لَرُبما لحقتنا مصلحة أو مساعدة تنتشلنا من عذابنا المقيت ذاك لكن وإياك إياك أن تخبر أحدًا روني أنا أعلم ألاعيبك جيدًا.

على الرغم من خوفي من أن تلحقنا متاعب من ورائها لكن لا بأس من المحاولة، سأرى أنا أمرها أما أنت فأكمل عملك وإلا سننام جائعين كالأمس.. سأحاول إيجاد أي شيء يسكت هذا الملاك الصغير، حسنًا؟".

صاح روني بقوة باحثًا عن مارلي:

- تعالي بسرعة أسرعي لقد استفاقت أخيرًا.

****

- أنا آسفة هذا هو كل الطعام الذي لدينا سيدتي.

قال روني بلهجة الكبار:

- إن أردتِ العيش عليك العمل.

تلقى روني صفعة خفيفة من مارلي ونهرته قائلة:

- لا يجب عليك التحدث هكذا مع الضيوف روني؛ هذا عيب.

- أنا آسف لم أقصد.

ردت وعد ببسمة خفيفة:

- لا مارلي إنه محق وعلى صواب شكرًا لكما على مساعدتي كنّا أنا وديم ضعيفتين جدًّا لكن لا بد من إيجاد عمل لمن أراد العيش.

ردت مارلي:

- حسنا آنسة ويد (وعد) سأحاول إيجاد عمل لكِ، لكن عليكِ الاسترخاء فترة؛ إن ما مررتِ به كان كثيرًا ومرهقًا أما الآن فنستأذنك فإن موعد عملنا قد حان، لا نريد أن نُعاقب، نراكِ ليلًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

اعتقدتُ أنهما يريدان سوءًا فهيأتهما مزرية، وملابسهما مهترئة، فقيران بائسان في سنٍّ صغيرة ألقت عليهما أعباء الحياة باكرًا لكن الطيبة تكسو ملامحها جيدًا، حينما كنتُ نائمة في أحد الأزقة قد رأيت شبحًا يدنو مني بحذر وهو يقف فوق رأسي ويتهامس ببطء ثم بدوا اثنين حتى ما اتضحت الرؤية حتى رأيت أنهما روني ومارلي، كانا يمسكان بديم لقد فزعت لأول وهلة ثم طمأناني، أحضراني معهما إلى مأوى قريب وقدما لي بعض الخبز والماء والمرق، على الأقل قد وجدت أحدًا يطمئنني أنني أملك وجهة الآن، لقد كان مأوى

مارلي وروني أشبه بالخراب فهو كان عبارة عن مكب لإعادة تدوير الأشياء عديمة النفع، كومة من الحديد والآلات الصدئة وعجلات الدراجات وأكوام سيارات مكدسة فوق بعضها قد عفا عنها الزمان إلا أنه كان يمثل لي الآن ملاذ أمان انتشلني بعد يومين من السير في الطرقات بلا وجهة، لقد دعواني للمكوث هنا لكني أعلم جيدًا أن الأمر لن يطول يجب الحصول على المال في النهاية أنا ضيفة وهما مجرد طفلين متنكرين بزي كبار مهمومين طوال الوقت تبًّا لتلك الحياة تسلب منا أجمل ما فينا.

سأبدأ البحث عن عمل من غد.

وسط كل هذه الخردة التي تتوسطني بَعثرتُ حروفي على الرمال كاتبة:

مكان جديد غريب، أناس جديدة، وحياة جديدة، إنها لأشبه بفيلم رعب.

*****

(الفصل الخامس)

نكتب لننسى فنمحي كل ما حيينا لنوثق في سطور ذاكرتنا كل ما أردنا نسيانه

من الصعب عليك أن تترك منظر الماء المتدفق والراحة المختلسة عن ثرثرة الآخرين لتولي التوجه إلى بيت يملؤه الصخب وسط كل هذا السكون ما من أحد في البيت ورغم هذا أشعر أنّ كل ما حولي يحدق بي، الجدار والكراسي والمناضد ما من مهرب لي سوى دفاتر أسراري.

صدق سيدني سميث حين قال: يعد المنزل المريح مصدرًا عظيمًا من مصادر السعادة إنه يأتي في المرتبة الثالثة بعد الصحة والضمير الحسن.

مذكراتي العزيزة.....

كان يومًا شاقًّا بغض النظر عن تعب العمل هناك تعب أرقى بخلجاته يتدفق في جسدك محدثًا نوبة عزاء يغزوها صمت لا أكثر، لا يهم، ومنذُ متى كان أحد يهتم أو اهتم، إلى اللقاء حروفي، ألقاكِ غدًا بعد أخذ هدنة مع عقلي للنوم قليلًا.

ما إن أُثقلت جفوني حتى ومض نور يعلن قدوم رسالة من أحدهم فلم أكن بالحال الذي يجعلني أرفع شاشة الهاتف تلك لأرد على رسائل يومية ساذجة فلم أعد صالحة لهذه السخافات.

أرجعت الهاتف مجددًا لكن الشاشة ما زالت تضيء تنبيهًا عن قدوم رسائل أخرى، أثار استفزازي صاحب هذا الإلحاح، مجموعة من التساؤلات الاعتيادية من الرفاق، تلك الأسئلة اليومية التي أنعتها بالسذاجة فإنها لا تُسأل إلا لمعرفة الإجابة التي ينتظرونها لا التي تُكنها داخلك، ما كنت لأعاود إغلاق شاشة تلك الرسائل المعتوهة حتى لفتت نظري رسالة من رقم غريب، نظرت مليًّا متفحصة الرقم عن كثب لكنني لم أتوصل لشيء، فتحت الدردشة لأجد رسالة تنص على الآتي:

"إن كنتِ مولعة بالقراءة فإليكِ كتاب اللحظة الراهنة للكاتب غيوم ميسو، تصبحين على خير".

ما زلت أنظر مليًّا إلى الرقم المرسِل لكني لم أتوصل إلى أدنى معرفة بهويته فقررت التغاضي عنها.

إنه لأمر غريب أن يرسل أحدهم مثل هذه الكلمات، كثيرًا ما تصلني رسائل تعارف أو إقامة صداقات أو رسائل مزعجة من أناس هدفها السخرية والتسلية أما تلك فلا أعلم، إنها لا تحمل بين طياتها أي شيء يدعو للريب، لا بد أنه أحد من أصدقائي يقترح عليّ بعض الثقافة بالرغم من أنه لا أحد منهم يقرأ.

لم أجب على المرسِل، فقط أغلقت شاشة هاتفي وتلفظت بحروف أقرب للنوم.

لا بأس من قراءة كتاب لاختيار أحدهم وليكن "اللحظة الراهنة" هو كتابي غدًا.

وأدرت وجهي وغصت في نومٍ عميق.

ما بين ذوبان القهوة وفورانها قصة لا يحكمها إلا عاشق أذابته مرارتها حُبًّا، أرفع كوب انتصاري وأستساغُ حلاوة مرارتها وأنا أردد أبيات نزار القائلة:

اشْرَبي القهوةَ، يا مائِّيةَ الصَّوْتِ، وخضراءَ العيونْ.....
فعلى خارطة الأشواق لا أعرفُ في أيِّ مكانٍ سأكونْ....
ومتى يذبحني سَيْفُ الجنونْ؟
فلماذا تكثرينَ الأسئلة؟
ولماذا أنت يا سّيدتي مُسْتعجلة؟
أنا لا أنْكرُ إعجابي بعينيكِ، فإعجابي بعينيكِ قديمْ...
لا ولا أنكرُ تاريخي مع العطر الفرنسي الحميمْ
ومع النهد الذي كسَّرَ أبوابَ الحريمْ...
غير أنّي لم أزل أفتقد الحب العظيمْ..
آه ما أروعَ أن ينسحقَ الإنسانُ في حُبٍّ عظيمْ...
فامنحيني فُرْصةً أُخرى.... فقد
يكتُبُ اللهُ عليّ الحبَّ... واللهُ كريمْ

أحب شعور بدء صباحي بكوب قهوة مع قصيدة لنزار أو لحن يراقصني مع فيروز، ارتديت ثوبًا فضفاضًا ذا لون سماوي زاهٍ مع كعب أبيض اللون، مع قليل من أحمر شفاه قرمزي، وبما أن اليوم لا يوجد جامعة قررت الذهاب قليلًا إلى المكتبة واقتنيت كتابًا لغيوم ميسو وهو "اللحظة الراهنة".

من عادتي أن أقف بين الرفوف وأستشف معلومات عابرة عن كتابي الجديد لكني لم أفعل ذلك؛ فقط سألت عم حسن عن ثمنه فناولني إياه بلطف ووليتُ ذاهبة إلى مقعد على ناصية الشارع تَحفهُ شجيرات تتخللها أزهار حمراوات وصفراوات قد زادت من الجو ابتهالًا لرؤيتي.

قد اعتدت إلقاء التحية على الأشجار مرارًا وبما أن المكان قد خلا قليلًا من الناس فما زلنا في الصباح فلم يرمقني أحد بنظرة استغراب.. اتخذت جانبًا من المقعد.. وقد ابتعت شطيرة من الجبن الساخن وأنا أحدق في الفضاء الفسيح الذي تبتلعه عيناي تفحصًا.

لربما ظللت على هذه الحال ساعةً أو ما يزيد فحين أسافر في عمق روحي لا أُولّي اهتمامًا لدقات الزمن، ماضية في طريقي، مارةً بشارع المجنون، وقد كنت من أسميت هذا الشارع بالمجنون وليس تحقيرًا من شأنه ولكن لأُكْسِبَ الشارع قليلًا من الجنون المرح الممزوج بالحكمة لأنه منذ وقت ويعتاد هذا الشارع مجنونٌ -قد فقد عقله منذ بعيد- يقطنه منذ سنين بملامحه، بملابسه المهترئة ووجهه المتسخ الملطخ بالأسود والبقع، رائحة منفرة وضحكة عالية وهرولته وهو يمشي ولحيته المتدلية أسفل صدره كل هذا يجعل الناس تنفر منه، أما أنا فما زلت أذكر جيدًا أول مرة التقيت به؛ كان الجو باردًا وعصيبًا والمطر غزيرًا والريح شديدة تجرف كل ما يواجهها.

كان جالسًا في أحد الأزقة غير مبالٍ بشيء، أشفقت عليه واقتربت حاملة رغيفًا من الجبن الساخن وكوب شاي، لا أنكر... كنت أرتعد خوفًا أن يرميني بها أو يضربني، وما إن اقتربت حتى حادثني بصوت أجش:

- ما هذا؟!

- إنه طعام، رغيفٌ من الجبن الساخن وقليل من الشاي.

- لست جائعًا.

- حسنًا خذه وكُلْهُ حين تجوع.

- أمجنونةٌ أنتِ؟؟ لا تفقهين أنني لست جائعًا لآكله ولا محتاج لأخذه اذهبي بعيدًا.

ثم همس وهو يقترب مني:

- أخاف إن أخذته أن يحزن مني ويتركني، اذهبي عني، اذهبي من هنا.

سألته بحذر:

- من تقصد بهو؟

- اسمه الله، هو من يتكفل بي ولقد أطعمني منذ قليل.

هززت برأسي:

- لم لا تتركه معك؟ إن الله أرسلني لأعطيه لك .

ابتعد قليلًا قائلًا: أبدًا.

أخذ نفسًا عميقًا ودنا مني ليقول بنفس متقطع:

- لأن في الكلب عشر خصال محمودة ينبغي للمؤمن أن لا يخلو منها:

أولها: لا يزال جائعًا، وهذه صفات الصالحين.

عقدتُ حاجبي وتابعته:

- حسنًا وما هي بقية تلك الصفات؟

- الثانية: لا ينام من الليل إلا قليلًا وهذه من صفات المجتهدين.

الثالثة: لو طُرِدَ في اليوم ألف مرة ما برح من باب سيده وهذه من علامات الصادقين.

الرابعة: إذا مات لم يُخَلّف ميراثًا، وهذه من علامات الزاهدين.

الخامسة: أن يقنع من الأرض بأدنى موضع وهذه من علامات الراضين.

السادسة: أن ينظر إلى كل من يرى حتى يطرح له لقمة وهذه من أخلاق المساكين.

السابعة: أنه لو طُرد وحُثِيَ عليه التراب فلا يغضب ولا يحقد وهذه من أخلاق العاشقين.

الثامنة: إذا غُلِب على موضعه يتركه ويذهب إلى غيره وهذه من أفعال الحامدين.

التاسعة: إذا أُجدِيَ له أي: أُعطى له لقمة أكلها وبات عليها وهذه من علامات القانعين.

العاشرة: أنه إذا سافر من بلد إلى غيره لم يتزود وهذه من علامات المتوكلين.

أبتسمُ كلما تذكرت هذا الموقف لأنه منذ وقتها أصبحنا أنا والمجنون صديقين قد أعجبني حديثه يومها.

إنه مجنون لا يعي، لكنه كان يتحدث كأنه فقيه ومن كبار الشيوخ، ما زلت أحفظ حديثه جيدًا حين قال:

لقد تكفل الله بي وهو خالقي وأنا منه، يقول د. مصطفى في كتابه "رأيت الله":

"يا عبد أنت لا تملك إلا ما ملكتك

لا تملك نفسك فأنا خالقها

ولا تملك جسدك فأنا سويته

أنت بي تقوم وبكلماتي جئت إلى الدنيا

أنت منظري.... لا ستور مسدلة بيني وبينك

أنت جليسي لا حدود بيني وبينك

يا عبد ليس بيني وبينك بين

أنا أقرب إليك من نفسك

أنا أقرب من نطقك

فانظر إلي فإني أحب أن أنظر إليك

يقول تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ ﴾ [ق: ١٦]

وأعطاني ظهره ومضى، قلت في نفسي حتمًا إن الجنون فنون

ومن يومها لم يمضِ كلامه من رأسي، نحن إذا ما أصابتنا مصيبة هرولنا إلى أصحابنا وأهلنا ومنقذينا ونسينا أن لنا ربًّا كريمًا ينتظرنا كي نهرول إليه خطوة كي ينصرنا ويقف بجانبنا، مَنْ نحن حتى ينافسنا على خوف من غضب الله مجنون؟!

أصبحت بعدها كلما مررت من الشارع أضع له طعامًا من غير أن يشعر أو يراني وعندما أُلقي عليه التحية يقول وهو يضحك: انظري ماذا كافأني ربي.

سألته يومًا: هل تعتقد أنك ستدخل الجنة؟

رد قائلًا: لقد أخطأتِ في توجيه السؤال يا متعجرفة إنه موجه لكِ، ليس لي.

- حسنًا، أخبرني أنت، من سيدخل الجنة؟

كنت أعتقد من غبائي أنه سيبادر بقول أنا، لكنه صدمني:

- كلنا سنرد النار، ثم ينجي الله الذين اتقوا، والله يعرف ما في القلوب وطياتها وربما تكون كل أعمالنا حبرًا على ورق، وقد لا تسلم النية به فلا يسلم فيظن كل مِنّا أنه يعمل الخير لوجه الله وهو يعمل لأجل الشهرة والدنيا والجاه والتباهي بين ألسنة الخلق وما أكثر من يُخدع بالآخرين ويدخل علينا التلبيس وحسن الظن من حيث لا نعلم ولكن الله لا يترك الباب مسدودًا بقوله

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣]

أي من يعود ويرجع إلى هداه وطريقه

ابتسمتُ في سري وقلت: فهذا ليس بغريب ألم يكن "نيتشيه" يقول في الجنون شيء من الحكمة!!

أما أرسطو فقال: "ما من عظمة إلا وفيها مسحة من الجنون".

لقد قضيت اليوم الكثير من الوقت مع المجنون تسامرنا كثيرًا في شتى الأحاديث حين مرَّ شابٌ متعجرف من أصحاب السيارات الفارهة التي لم يكن ليتطلع حتى النظر إليها لولا عطف أبويه، قد منحاه كل شيء فسلبت الحياة منه كل شيء.

أنزل زجاج نافذة سيارته ليرمي أحد أكياس القمامة بجانب يحيى المجنون، فما كان من يحيى إلا أن أخفى وجهه بيديه وبكى، استطعت أخيرًا تهدئته بعد أن أفلتت مني بعض الكلمات المتوعدة لذاك المتعجرف عديم الأخلاق إنه شيطان برأس إنسان، تبعني يحيى بقوله:

- "إنه يومًا ما كان صغيرًا طيبًا فلا بأس.

كلنا كنا كذلك ملاكًا صغيرًا لا يعي من الخبث شيئًا ثم نصبح على ما نحن عليه، دعيني أخبرك بقصة لعلكِ تعرفينها".

تابعنا سيرنا في نفس الطريق وهو يسرد لي:

- "يُحكى أنّ حاكمًا إيطاليًا دعا فنانًا تشكيليًا شهيرًا وأمره برسم صورتين مختلفتين ومتناقضتين عند باب أكبر مركز روحي في البلاد، أمره أن يرسم صورة ملاك، ويرسم مقابلها صورة الشيطان لرصد الاختلاف بين الفضيلة والرذيلة.

وبحث الرسام عن مصدر يستوحي منه الصور.. وعثر على طفل بريء وجميل تطل السكينة من وجهه الأبيض المستدير وتغرق عيناه في بحر من السعادة. ذهب معه إلى أهله واستأذنهم في استلهام صورة الملاك من خلال جلوس الطفل أمامه كل يوم حتى ينهي ذلك الرسم مقابل مبلغ مالي، وبعد شهر أصبح الرسم جاهزًا ومبهرًا للناس، وكان نسخةً من وجه الطفل. ولم تُرسم لوحة أروع منها في ذلك الزمان.

وبدأ الرسام في البحث عن شخص يستوحي منه وجه صورة الشيطان، وكان الرجل جادًّا في الموضوع، لذا بحث كثيرًا، وطال بحثه لأكثر من أربعين عامًا.

وأصبح الحاكم يخشى أن يموت الرسام قبل أن يستكمل التحفة التاريخية لذلك أعلن عن جائزة كبرى ستمنح لأكثر الوجوه إثارة للرعب.

وقد زار الفنان السجون والعيادات النفسية والحانات، وأماكن المجرمين لكنهم جميعًا كانوا بشرًا وليسوا شياطين.

وذات مرة

عثر الفنان فجأة على (الشيطان)، وكان عبارة عن رجل سيئ يبتلع زجاجة خمر في زاوية ضيقة داخل حانة قذرة، اقترب منه الرسام وحدثه حول الموضوع.. ووعد بإعطائه مبلغًا هائلًا من المال.. فوافق الرجل.

وكان قبيح المنظر.. كريه الرائحة.. أصلع وله شعرات تنبت في وسط رأسه كأنها رؤوس الشياطين! وكان عديم الروح ولا يأبه بشيء ويتكلم بصوت عالٍ، وفمه خالٍ من الأسنان.

فرح به الحاكم لأن العثور عليه سيتيح استكمال تحفته الفنية الغالية

جلس الرسام أمام الرجل وبدأ برسم ملامحه مضيفًا إليها ملامح (الشيطان)

وذات يوم

التفت الفنان إلى الشيطان الجالس أمامه وإذا بدمعة تنزل على خده؛ فاستغرب الموضوع وسأله إذا كان يريد أن يدخن أو يحتسي الخمر!

فأجابه بصوت أقرب إلى البكاء المختنق:

- أنت يا سيدي زرتني منذ أكثر من أربعين عامًا حين كنت طفلًا صغيرًا واستلهمت من وجهي صورة الملائكة وأنت اليوم تستلهم مني صورة الشيطان. لقد غيرتني الأيام والليالي حتى أصبحت نقيض ذاتي! بسبب أفعالي.

وانفجرت الدموع من عينيه وارتمى على كتف الفنان، وجلسا معًا يبكيان أمام صورة الملاك.

فالله يخلقنا جميعنا كالملائكة يا ندى ولكن نحن من نُغير ونشوه أنفسنا بأفعالنا لا أكثر... بسبب معاصينا... فالله يهدينا خلال مسيرتنا في طريق الخير والشر..... فلماذا نلوث روحنا ونور وجهنا وبصيرتنا بأفعال غير مدروسة ونستسلم لأنفسنا الضعيفة رغم أنها قوية بتوكلها على الله".

****

كان والدي ينتظرني على الغداء عند عودتي، أما غسان فكان في عمله الجديد الذي حصل عليه قريبًا.

جلسنا وتناولنا الغداء وبعدها جلستُ مع والدي نشرب القهوة ونتسامر كنت قد حكيت له عن يحيى وإني سأكون سعيدة لو ساعده بجزء بسيط من المال لنشتري له ملابس جديدة ونأمن له مكانًا آمنًا يجلس فيه.

- أوافقك جدًّا يا ندى ويسرني تفكيرك هذا.

- لكن المشكلة ليست هنا يا أبي.

- ما المشكلة إذًا؟؟

- المشكلة أنه لا يود شيئًا من أحد؛ إنه مكتفٍ بحاله هذا حتى إنه لا يطلب طعامًا حين يجوع ولا يأكل إذا وُجد الطعام وكان شبعًا، إن له نفسًا عزيزة جدًّا وإنه دومًا يغلبني بحديثه.

- إنكِ تذكرينني بالحكيم بهلول يا ندى.

- من هو الحكيم بهلول هذا؟ أعتقد أني سمعت عنه لكني لا أعرفه.

- حسنا دعينا نسرد قصته لكن ألن تخبريني ما الذي يشغل بالك يا ندى؟

- لا شيء يُذكر إنها الامتحانات فقط.

- مصرة أنتِ على التهرب من الإجابة لكن لا بأس دعيني أخبرك من هو الحكيم المجنون بهلول.

أجبت بضحكة:

- بهلول! ماذا يعني بهلول أولًا؟

- "يرجح أن اسم بهلول، كان صفة أطلقت عليه وليس اسمه الحقيقي، لأن كلمة بُهلول، وحسب المعاجم العربية – جمعها بهاليلُ – وهي تعني السيد الجامع لصفات الخير، المَرِحُ الضحّاك أو الرجل كثير الضحك. لكنها للمفارقة أيضًا قد تعني، المعتوه والأحمق والمجنون والمهرج.

فالاسم يدل على صفات هذه الشخصية المعقدة، التي لا بد أنها وظفت ذخيرتها العلمية والمعرفية والفقهية في أن تعيش هذا الدور، بحيث يصعب الوصول إلى تحديد الهوية الأصلية وراء من هو بهلول في واقعه الافتراضي، الذي يظن بأنه عاشه، أو فيما رسم عنه لاحقًا.

وقد صوّرته الدراما الحديثة على أنه ذكي وعارف، يأخذ من معارفه ليصل إلى أهدافه بشيء من الحيلة، فـ "البهللة" عنده كانت تقوم على المزاح القائم على العلم الذي يحقق المراد، مع مزيج من البلاهة المدعاة.

غير أن بعض الدراما ربما وقعت في إعطائه صورة أكثر من اللازم، في أنه استخدم ذكاءه وحيلته في الحصول على مآربه، وهذا قد يخالف صورته الشائعة.

- أنت تقول إنه كان حكيمًا ألا تعتقد أنه استخدم صفة الجنون لينال بعض المراكز أو ربما كان جاسوسًا متخفيًا أو لصًّا بزي مجنون أو ما شابه؟

- أبدًا يا ندى قد ذاع صيت بهلول كل الأزمان بخلقه وسيرته الطيبة الحسنة لكنه كما قيل عنه إنه كان لا يأخذ أي هدايا أو منح من الرشيد، فقد كان يكتفي بدوره فقط، في أن يكون قريبًا منه.

وفي بعض الروايات ثمة زَعْمٌ بأنه من أقارب الرشيد، بل إنه ابن عم له، لكن لأنه فقد عقله أو أصابه شيء من الخبل فقد ابتعد عن دوره الذي كان يمكن أن يكون رفيعًا في البلاط.

والبعض يزعم أن جنونه كان نوعًا من الادعاء الذي كان يداري به تخوف آل الرشيد منه أو تخوفه منهم، بحيث أن ذكاءه وحنكته كانت سببًا يدعى للمخافة منه إذا كان بهذا موهوبًا في الحنكة.

وقيل أيضًا إن الخليفة رأى علمه فكلفه بتولي القضاء لتمرير مهام بعينها عبره، وهو لا يريد ذلك، فادعى الخبل لكي يخرج نفسه من هذه المهمة، بحيث لا يكون مسؤولًا عن أحكام يصدرها ليس له قناعة بها.

الصورة الأخرى

هناك صورة مغايرة ترسم "بهلول" على أنه عالم وفقيه كان من رواة الأحاديث، بل كان له معرفة عميقة بالدين والشرائع ومجادلات مع فقهاء عصره مثل أبي حنيفة.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان يتمتع بسلامة اللغة وجزالتها وهو ما انعكس حتمًا في بناء حكمه وطرائفه التي اشتهر بها، وقد يكون هذا الجانب واقعيًّا بعض الشيء ويخمن بأن الخلافات السياسية في عصره وكالعادة كانت من الأسباب التي رسمت لشخصيته مسارات غير المعهود، بحيث أن حكمته وتفرد وعيه قاده لأن يلعب دور المهرج بدلًا من أن يكون ذلك الشخص الرائد في التنوير.

كذلك قد يكون الواقع السياسي له دور أيضًا في أن يعاد إنتاج بهلول، بتصورات عديدة، أفقدته الاتزان وشكلت الشخصية العميقة التي قد تكون هي الحقيقة المفقودة.

تنهدت بشغف

- احكِ لي قصة من قصصه

- حسنًا يا صغيرتي المدللة إليكِ واحدة من طرائف بهلول....

****

أعود إلى غرفتي وأحتضن نفسي التي باتت مضطربة هذه الأيام وأنجرف بما تبقى مني إلى مذكّراتي.

مرحبًا مذكّراتي العزيزة تسألينني كيف حالي أليس كذلك؟ لا أعلم إنني بخير لكن دون معرفة ما هو حالي حقًّا لا أعلم أهو مخدر أم هو البعد اللامتناهي الذي نقع به هنا لا أعلم؛ أشعر بشيء آخر هنا، أهو طمأنينة، لا أعلم إلى أي مدى، بت أكره الحديث مع الناس، إلى أي مدى أصبحت أعيش في بُعد آخر أتأمل الأشياء الصغيرة إلى أي مدى أنا متعبة....

أعود من يوم طويل لأطلق تنهيدة أطول تحمل كل طاقتي لألقي نفسي بين أحضان عالمي لأخلع وجه تبسمي المخادع وأزيل مساحيق تخفي وراءها الكثير من الشحوب لأرتمي في حضن كوب قهوة وكتاب.

أبعد هاتفي وأرفع صوت موسيقاي وأتأملني في المرآة لكثير من الوقت جدًّا.

أفتح هاتفي لأطلع على المزيد من التفاهة لألقي بعض الرسائل من أشخاص يهتمون لأمري لكنني لم أعد قادرة على العطاء، لمَ لا يتركونني وحدي فحسب.

أبحث في قائمة الأسماء، هناك الكثير ممن يودون سماعي لكنني لا أود سماع أحد؛ أود فقط أخذ هدنة مع نفسي لإفراغ ما تبقى مني لأبدأ من جديد.

لن أتحدث معكِ اليوم يا مذكّراتي العزيزة عن تفاصيل يومي إنني متعبة فقط وأود النوم.

*****

(الفصل السادس)

أحمل أطنانًا مني كلها فاسدة.

تاريخ حياتنا هو تاريخ مخاوفنا (بابلو دي سانتيس)

لم يكن الأمر بالهين، لقد استنفد مني الكثير من الوقت وبما أنني غريبة عن تلك البلدة بالإضافة إلى أنني أجنبية عنهم مما يعني أني لن أجد عملًا بسهولة أو بالأحرى لن أجد عملًا؛ فكيف لأحدٍ أن يأمن لي وأنا على هذه الهيئة وبهذه الحال ومعي طفلة رضيعة لا وجهة ولا مرقد، كنت أعتقد أنني لن أحتمل صدمات أكثر من بعد الذي عانيته بعد وفاة والديّ ونجاتي من الموت بأعجوبة وحياتي التي عشتها مع نوبات القسوة التي باتت تتضاعف يومًا بعد يوم من عمي وزوجته بعدها جاءت رحلتي مع الكروسينما وكنت أعتقد أنه نهاية المطاف فجاء يُخلصني مما عانيته من سنوات إلا أنه كان أبشع بكثير، كان موتًا بطيئًا بعدها قد ساء مرضي وحالي من سيئ إلى أسوأ، وتدهورت صحتي ونفسيتي، إن شخصيتي قد اعتادت على التحديات فلم أكن لأستسلم ولم أكن لأجد نشوة من الانتصار غير أنني متابعة لسلسلة لا تنتهي من الإذلال والانتهاك المصحوب بالتهويل من غير ذرة رحمة، فبعد مرضي لم يكن لأحد أن يأبه بي، فَعمّي قد تخلى عني لأنه لن يستطيع تحمل أعبائي المرضية بالرغم من كوني كنت أعمل حينها لأنفق على نفسي وتحمل مصاريفي الشخصية، أما

زوجته فكانت تنزعج أثناء نومها المتواصل وراحتها الدائمة من صوت أنيني الصادر من وجع لا يرحم، كما أن تعبي كان يؤثر على عملي في تنظيف البيت فلم يعد هناك سبب مهم لوجودي.

لم يكن تركهما لي وإيداعي في المشفى وحيدة موجعًا بقدر عدم قدرتي على إيجاد مكان واحد، حضن واحد، ملاذ واحد أدفن فيه رأسي، كنت وحيدة، لم أكن حزينة أو متعبة أو قلقة؛ فقط كنت منطفئة.

رقدت في مشفى الأورام مع سرطان لا يهمني من فينا سينتصر.... أتناول أقراص الدواء لأنها يجب أن تُتَناول، وأنام بأقراص المنوم لا حُبًّا في الراحة، أتلقى جرعات الكيماوي كدمية خشبية لا تبالي، لا تأبه لشيء، كان الكيماوي مؤلمًا للمرضى جميعًا لكنه نافذة أمل يشعرون بالنشوة بعد الانتهاء منه متغلبون عليه أما بالنسبة لي فكان عرضًا من عروض الألم المفروض عليّ، كانت حالتي تتدهور يومًا تلو الآخر لا بسبب مرضي بل بسبب بُعد آخر قد دفنتُ روحي فيه فتاهت عن واقعها .

لم يكن لدي أصدقاء وأعتقد أنه بسبب انطوائي الزائد وتحفظي الشديد

ولم أعد كما عرفتني يومًا، حين أنظر في المرآة لا أراني بل أرى طفلة هجرها أبواها إلى عالم آخر، تخلى عنها عمها وزوجته أو بالأحرى انتظرا فرصة واحدة للتخلص منها، وحده المرض من احتضنها وشرع بعدها في تمزيقها، كنت أحاول يوميًّا أن أرسم بسمة صغيرة لكن مرارًا كنت أفشل، ما عاد يعنيني أحد في هذا العالم، حاول الأطباء مساعدتي لكني كنت أعلم أني الوحيدة القادرة على إنهاء هذه المعاناة .

كنت نائمة على أثر المنومات ومئات الأقراص التي ابتلعها يوميًّا بلا نفع حينما صحوت على صوت اعتقدت أنه حقيقة لكنه حلم لا أكثر ما فيه أقرب للرؤى؛ كانت أمي تحتضنني وتبكي، وكنت أبكي معها، أعتقد أن البكاء بالحلم لا بأس به بل إنه ينم عن سعادة قريبة أيضًا، ضمتني أكثر وقالت إني أؤمن

بكِ، أمامك حياة طويلة إن أردت التشبث بي تشبثي جيدًا بالحياة ستجديني في كل ما حولك، الطيور والمحركات والطرقات والموسيقى والوجوه، أحبك عزيزتي...

واختفت.

صحوت على أثر دمع يذرف من عيني لكني لم أكن حزينة كالعادة بل مرتاحة لا أعلم ماهية شعوري لكني أستطيع أن أسميه اطمئنانًا

لأول مرة تأتيني في حلم دون أن أصحو وأنا أتمنى لو أنني لم أصحُ، كنت سعيدة وما زلت أحفظ تفاصيل حلمي جيدًا.

كان يومي مختلفًا وكأن ما بداخلي قد غُسِلَ بعد اتساخ متراكم منذ سنين، خرجت للحديقة وتنفست الصُّعداء وقررت أن أرمي كل ما تخلف ورائي، سأبدأ من جديد ليس من أجل أحد سأبدأ من أجلي أنا.

توالت الأيام عليّ في المشفى يومًا بعد يوم، تعرفت فيها على أصدقاء كُثر بعدها، وجمعتني الصدفة بصديقة لن أجد مثلها حينما كنت أتجول في الحديقة قد لفت نظري كتاب على المقعد الخشبي يبدو أن أحدهم قد نسيه، جذبني الكتاب ولم يكن لديّ ما أفعله، جلستُ على حافة المقعد وألقيت نظرة على ما حولي فلم أجد أحدًا؛ مجرد فضاء، فتحت الكتاب بعنوانه الغريب: "أساطير أقرب إلى الحقيقة من الخيال"، جذبني العنوان فقررت تصّفحه كان يتكلم عن عدة أساطير قديمة تداولها الإغريق ومنها كان التنين رمز الخير في آسيا والشرّ في أوروبا.

تتحدث أساطير عديدة من حول العالم عن تلك المخلوقات عظيمة الحجم، التي تشبه الأفعى في استطالة جسمها، وتمتلك أجنحة من جلد، كأجنحة الخفاش، ولها أنياب ومخالب حادة، وهي بحسب بعض الأساطير تُقيم في

أعماق المياه، وبحسب أخرى تقيم في أعالي الجبال، في حين تصوّرتها بعض الأساطير بأنها قادرة على نفث النيران من جوفها، ورغم التفاوت في الصفات التي ترسمها الأساطير المختلفة، إلا أنّ الصورة العامة تتفق حول حيوان خرافي واحد؛ هو التنين، أو "Dragon" باللغات اللاتينية، وهو اللفظ المشتق من الاسم"Drakon" ، الذي يعني الأفعى العظيمة.

قطع شرودي صوت أحدهم:

- أأعجبكِ الكتاب؟ أرى أنكِ مندمجة.

رددت بإحراج:

- أنا آسفة لم أكن أعلم أنه لكِ وقد جذبني محتواه.

- لا أبدًا ليس عليكِ التأسف تسرني معرفتكِ.

- شكرًا لكِ أنا وعد مقيمة هنا بالمشفى، تفضلي كتابكِ، إنه رائع ولكن هل هذه الأساطير حقيقية؟

- "يسرني أنه أعجبكِ، لكن في قولكِ أسطورة يجب عليك أن تعلمي أن أسطورة لا تعني الخيال ولا تعني واقعًا؛ إن الأساطير هي قصص تم تداولها منذ القدم، هناك بعض الأساطير مبنية على حقيقة ثم تم تحويرها وإضافة أشياء خيالية تُبْهِرُ مَنْ يسمعها، وهناك أساطير من نسج الخيال ولا يوجد دليل على صحتها بالنسبة للعلم يا وعد لا يوجد وقائع من غير أدلة وإن الأساطير هي حكايات وخرافة ما لم يرافقها أدلة محسوسة، إليكِ مثلًا أسطورة قصة سندباد البحار الشهير، إن قصص السندباد تُظهر بوضوح ملامح المجتمع العربي في ذلك الوقت، وهي ترتكز على واقع اقتصادي واجتماعي بزمان ومكان معروفين. تعكس القصة أيضًا الواقع الاجتماعي فتُظْهِرُ لنا طبقات المجتمع وعاداتهم وأخلاقياتهم .

هناك تفاصيل عديدة أيضًا توضح لنا عادات وتقاليد شعوب في بلدان مختلفة زارها السندباد؛ ما يعني أنه تم الاستناد إلى حكايات مستقاة من تجارب فعلية. كما أنها تبرز نقطة مهمة ترتبط بأن غالبية الأمور التي صادفها السندباد في رحلاته لم يكن قد اكتشفها من قبل مثل خشب الصندل الذي صنع قاربًا منه.

القصة أيضًا تتضمن معرفة بحرية وجغرافية في عصر ما قبل عصر الاستكشافات، وهذه خبرة لا يمكن لكاتب أن يملكها .

ظواهر غريبة حدثت على كوكب الأرض.. لن يصدقها عقلك فنكتفي بنسبها إلى قائمة الأساطير، لذلك لا يمكنني الإجابة على سؤالك سأكتفي بربما تكون حقيقية وربما تكون خيالًا من وحي تجربة".

- أرى أنني قد حصلت على رفيقة من النخبة الأشد ثقافة، بالمناسبة ما اسمك؟؟

قطعني صوت بكاء ديم من ذكرياتي القديمة فأخرجني مما أنا فيه .

أبعدت مارلي يديها من على خدها قائلة بحزن:

- يؤلمني ما سمعت منكِ يا وعد كيف يفعل شخص ما بأحد مثلك ماذا أصاب العالم؟

تنهيدة طويلة أخرجتُها مكملة:

- لا تقلقي مارلي أنا أؤمن أن الألم ضريبة القوة وإن كل تلك الابتلاءات ما هي إلا جزء من رحلتي أما الأجزاء الأخرى فآمل أنها أجمل.

ردت وهي تخلق بسمة بصعوبة مما سمعته:

- نعم لا بد أنها ستصبح أجمل .

****

لم أعتد في مسيرتي على الخضوع في أول الطريق، وإن قررت المسير فلن أتوقف أبدًا كانت رحلة البحث عن عمل صعبة حيث إنني طُردتُ من مكانين بطريقة مُزرية عندما رأوا هيئتي كنت حزينة لكني لم أيأس؛ عاودت البحث مرارًا وتكرارًا مؤمنة بكل خطوة أخطو بها.

ما زلت أحفظ كلمة أودري هيبورن: (ما من شيء غير ممكن لأن هذه العبارة نفسها تحتوي على كلمة "ممكن")

من خلال إقامتي مع مارلي وروني أمداني بالتعليمات اللازمة التي يتوجب أن أتبعها إن رغبت في المكوث هنا وعبور الطرقات، وأول درس كان إياكِ أن تُظهري أنكِ خائفة.

إن الخوف هو غريزة فطرية بنا لكن عدم إظهارها هو القوة بذاتها لذلك حاولي أن تكتسبيها لو لم تمتلكيها.

ها أنا هنا في نهاية المطاف في أحد الكافتيريات أعمل في تنظيف الأطباق وغسل الأرضيات والمراحيض، لم أكن أعي يومًا أنه يمكن أن أقوم بمثل هذا العمل، لكن الحاجة تستجوب أي شيء، لا أنكر أنني كنت في قمة سعادتي حين حصلت على عملي ذاك فإن صاحب العمل "مستر روك" تبدو عليه طيبة القلب، لقد رق له حالي وَوَضْعِي المنعدم ووافق على منحي فرصة بمقابل دولار في اليوم، ربما كان المبلغ قليلًا لكن لا بأس فمن الرائع أن تجد شيئًا ثابتًا وكل ما حولك غير متزن.

كنت أعلم أن الأمر ما أضحى حتى يصبح أصعب، كانت ديم وما زالت عثرة في طريقي؛ لا أعلم لِمَ كُتبَ عليها أن ترى كل هذا العذاب؟ منذ السادسة صباحًا كان عليّ أن أفتح عيني وأقفز من السرير فعملي يبدأ السابعة صباحًا ومن المرهق جدًّا الاستيقاظ باكرًا بعد يوم مليء بالمهام الشاقة دون أي راحة لكني كنت أروض نفسي بمقولة تيودر روزفلت: افعل ما تستطيع، مستخدمًا كل ما تملك أينما كنت..

سوف أنجح، لا بد من إكمال هذا الطريق، يومًا بعد يوم كنتُ أرمم ذاتي وأصلحها وحدي شيئًا فشيئًا وأتعلم ما مدى صعوبة أن يعاود أحدنا بناء نفسه بعدما تناثرت روحه بعيدًا، إنها تعني أن هناك بداية جديدة ستحرز نقاطًا ليست على البال .

كان العمل مُجهدًا، كنت أترك ديم عند روني وأولي ذهابي إلى الكافتيريا فأبدأ في تجهيز الطاولات وغسل وتنظيف المراحيض، كانت تجربة مقززة فالمكان واسع مليء بالقاذورات ومتسخ حتى يصعب عليّ أن أجد منطقة واحدة نظيفة، شخص مثلي لم يفكر يومًا أن يصبح جزءًا في مثل هذا المكان ولكنها الحياة لطالما تجهز لنا أغرب المفاجآت.

كنت أنتهي من تناول طلبات الزبائن المستعصية وتنظيف ما تخلّف عنهم دون أدنى نظرة اعتذر عما خلفوه، وبعد الساعة الثانية ظهرًا يأتي روني حاملًا ديم بعدما يكون قد انتهى من إحصاء قطع الحديد والنحاس التي جمعها أمس ثم يبدأ بتنظيفها لتسليمها إلى مارلي التي باتت تعمل في إحدى مخازن المدينة. أما أنا فأضم ديم بين صدري وأتنهد بها عن كل ما مر بي طوال يومي، إنني أعتقد- كما يقولون - إنه حتى الأطفال حين نحضنهم نشعر أننا نحن المحتاجون للحضن وليس هم.

أرضعتها حتى شبعت وها قد حانت ساعة غدائي، مستر روك كان قد خصص لي وجبة غداء، رغيف وقطعة جبن مع كوب من اللبن كانت تسد رَمقي رغم أنني كل هذه الفترة لم أجد متعة لتناول الطعام. أرتشف آخر رشفة لبن وأضعها في ركن بينما أدندن لها وأنا أكمل غسيل الأطباق، لم أكن أعلم قبلًا أن غسيل الأطباق يمكن أن يكون ممتعًا، كنت أحب الرغوة في يدي وأنا ألامس بها جبين ديم وهي تقهقه بلا شك لو رآني مستر روك فإنه سينزعج فلا بد من التفاني في العمل والانضباط والمحافظة على مقتنيات المكان، كانت هذه تعليماته الأولى التي تلقيتها حينما وافقت على العمل تحت سلطته. كان رجلًا متغطرسًا إلى حدٍّ ما ولا يتكلم بسهولة لكن لا مشكلة مَنْ قال إنني سأمضي حياتي هنا لا بد

أن أجمع أكبر عدد ممكن من النقود حتى يتسنى لي العودة إلى الديار مهما كلفني الأمر.

****

كانت تكبر أمامي يومًا بعد يوم، وحُبي يكبر لها أكثر كانت تجري وكأنها تتسابق مع المرح من يبلغني أولًا ما زالت حياتي كما هي تائهة، أجري وراء يومي الذي ليس له بداية ليكون له نهاية، ديم هي محور حياتي كلها، كان يومي صعبًا جدًّا اليوم لقد كنت أنظف الأطباق حين صاح مستر روك بأعلى صوته:

- وعد، تعالي حالًا ونظفي المكان.

أسرعت إلى الخارج لأجد شابًا مسكرًا مخملًا قد أخرج كل ما ابتلعه في معدته على الأرضية، حملتُ أدوات التنظيف وسارعت في المهمة وحين عدت إلى الداخل انكببت في حضن ديم التي كانت تمسك بي بكل قوتها، كنت قد انفجرت بالبكاء بحرارة، لم تكن المرة الأولى التي أنظف فيها ما تخلف عن تلك المخلوقات البشعة التي لا ترحم لكن شيء بداخلي قد بدأ بالتمرد على هذا الواقع ولم يعد يحتمل، جلست وسط أرضية المطبخ أحتضن ديم وأضمها أكثر وأكثر، كنتُ قد اعتدت على الهرب مني إليها وهي مستكينة تنظر إلي بعينين جامدتين لعلها اعتادت على هذا المشهد وتلك المشاعر التي يتخللها شيء واحد يتكرر دومًا (الخوف)

لكن لقد أيقنت أخيرًا مقولة

إن كل ما تريده موجود هناك على الجانب المقابل للخوف.

****

توقف روك أخيرًا مشيرًا بيديه نحو مكان يبدو مهجورًا قائلًا بصوته المبحوح:

- المكان صغير ومتسخ قليلًا لكن أعتقد أنه سيفي بالغرض

جذبني من يدي إلى مكان بعيد عن الكافتيريا بعض الشيء، أصابتني كلماته

بالارتياب خاصة أننا وحدنا والمكان لم يسبق أن رأيته قبلًا بالرائحة الكريهة، والأتربة تعم الأرجاء، الأرض تضج بالقذارة، قطط تموء باحثة عن أي شيء يملأ جوفها، نظرت حولي فلم أجد غير غرفة وحمام ومطبخ قد أخذ منهم الزمن ما أخذ .

نظر إليّ مليًّا وقد طفت على وجهه ابتسامة قائلًا:

- هذا هو العرض الذي أخبرتك عنه

****

تكبرين يا ديم وتزدانين حلا، أراكِ تتنقلين في أرجاء المكان كالنجم وسط الظلام، لطالما كنت أود لك رَغْدَ الحياة، لكن الحياة أرادت أن تعلمنا أن الرغد يكمن بنا لا بها، السعادة موجودة في أي مكان ربما الضحكة التي ترتسم بوجهك عزيزتي وسط هذه الفوضى أجمل من رخاء في قصر لا تتوسطه بسمتك.

آسفة على تسمية بيتنا فوضى رغم كل الندبات التي تركها الزمان على جدرانه وثنايا أرضيته إلا أنه يأوينا.

ما كنت لأنسى حين عرض مستر روك عليَّ المكوث هنا من غير إيجار كانت فرحتي لا توصف لا أنكر أنني كنت أرتعش خوفًا حين جلبني معه إلى هنا، فالمكان والمنطق كانا يوحيان بأن الأمر غير جيد تمامًا لكنني طرت فرحًا حين عرض عليّ الإقامة هنا مقابل العمل بالكافتيريا لخمس سنوات دون انقطاع، أحسست وكأني امتلكت الدنيا، ألقينا نظرة أنا وأنت بعدها عليه لم يكن بالمكان الكبير، كان يكفي ليحضننا في ضياعنا، أذكر يومها كيف خرتُ صريعة الفراش من كثرة التعب جراء محاولة إحياء ما تبقى منه فلم يكن جعله أفضل بالسهل ولا بالمستحيل، كان هناك الكثير من الفوضى ومقتنيات بلا جدوى، هناك سرير مهترئ لكن لا بأس به، وثلاجة مع باب لا يُحكم يحتاج الإصلاح، وموقد غاز صغير صدئ من الإهمال ليس أقل صَدَأً من قلبي يا ديم، أمّا الأريكة فكانت

تتسع لثلاثة أنا وأنت والأمل الذي نعيش معه وبه يا ديم.

كان الغبار يحتاط كل ما حولنا، جلست طوال اليوم في محاولة لبثّ الحياة في أرجاء المكان، الجدران مليئة بالفتحات ولم تنجح محاولاتي في إنعاشها لذلك قد ادخرتُ ثلاثة دولارات لشراء ورق حائط، كان بيتنا بسيطًا يفتقر إلى الحب وها نحن ننثره به ليكبر أكثر فأكثر بنا.

كان أول خاطر خطر ببالي عند مكوثنا هنا إسراعي لإحضار روني ومارلي معنا كم سنكون فرحين معًا.

لقد كانا رغم صغر سنهما كبيرين لأبعد مدى في نظري، لقد كانا أول من انتشلني من ضياعي في الطرقات، لقد طبع الخير بصمة في قلبهما لم تنجح الظروف وقسوة البشر في تلويثها، صحيح أن أبويهما قد رحلا منذ زمن إلا أن الحياة قد قدمت لهما قدرًا كبيرًا من الأخلاق المكسوة بالخير ومفعمة بالأمل لكنها الحياة عليك أن تدفع ثمن ما تأخذ لذلك احذري يا ديم احذري من أن تشتري الرخيص بالغالي. لكن على أية حال لن أخاف عليهما، إني أدعو لهما ليلًا ونهارًا أن تحيطهما رعاية الله فقد انتقل مكان عملهما إلى مدينة أخرى ولن يعودا إلا قبل سنتين أو أكثر، كان الفراق صعبًا جدًّا فقد كانا بمثابة ملجأً لنا رغم قلة وقتهما معنا إلا إنهما مكثا بداخلي كثيرًا جدًّا يا ديم أراكِ أنت أيضًا تفتقدينهما رغم كونكِ غير قادرة على فهم معنى الفراق الآن إلا أن عدم إظهار الشعور لا يخفي الألم.

أذكر جيدًا مدى لمعة عينيكِ حين يداعبك روني، كنتما تمتلكان نفس البراءة أتمنى ألا تستطيع الأيام محوها من ملامحكما.

ما زالت الحياة تصر على أن تأخذ منا كل ما نحب، وما زلتُ أنتظر أن تعيد لي أكثر مما أحلم أملي بربي أكبر من قلقي من مواقف عابرة.

****

الفصل السابع

في الليل تمر في بالي مئة فكرة فأتوقف عندك أنت لأغفو وأنام.

"أعتقد أنك قد انتهيتِ من كتاب "اللحظة الراهنة" لغيوم ميسو، ما رأيك به؟ وأنا متأكد أنها ما كانت لتروق لك كثيرًا، إنها من النوع الفانتازيا، كثيرٌ من القرَّاء لا يستهويهم ذاك النوع من القراءة لكن هناك سببٌ آخر في دعوتي لكِ في هذه الرواية سأخبركِ عن أمرها لاحقًا.

كما أني أحب الكتاب الذي يترك لي باب العِبر مفتوحًا ولا يأتي بالنصيحة صريحة، يترك الأمر في متناول القارئ ليستنبط كل واحد منّا فكرة حسب رؤيته، إن الكتاب الرائع هو الذي يحمل سؤالًا واحدًا تتخلله مئات الأجوبة.

لن أطيل عليكِ لكن دعيني أقف عند مقولة قالها آرثر حينما كان يحادث جده سوليفان حول جملة (تذكر نحن لدينا حياتان) لن أناقش هذه المقولة كونها عبارة قديمة مقتبسة من حكمة صينية الأصل أم لا لكنها استوقفتني حيث يقول سوليفان إنه لدينا حياتان والثانية تبدأ حين ندرك أننا ليس لدينا إلا واحدة".

رددت بعد تفكير استغرق ثوان معدودة:

- وهل يوجد أحد لا يدرك أنه يملك حياة؟

- نعم بالطبع هناك الكثير.

بسخرية رددت:

- إذًا في هذه الحالة لا بد أنه معتوه أو مجنون.

- "لا أبدًا دعيني أفسر لكِ، إن كثيرًا منا يملكون حياة رائعة يتمناها الكثير لكن في نظرهم هي واحدة من إحدى بوابات جهنم يتسكعون من غير وجهة محددة بلا هدف دون أدنى نظرة لغدهم والكثير من الشباب نرى أنه لا يوجد وراءه سوى ملء بطونهم بالويسكي والخمور في الطرقات برائحة عفنة هل هذه حياة بالنسبة لهم ولو سألتِ أحدًا منهم عن أي شيء لا شك أنه سيمدك بوابلٍ من العبارات اللاعنة لحياته البائسة المقيتة".

قاطعته بانتصار:

- أنت تعترف هنا أنه يمقت حياته وهنا تحديدًا تصريح في امتلاكه حياة سواء بائسة أم لا.

تابع حديثه بنفس القوة:

- نعم قولك ليس بالخطأ ولكنه قد اختلط عليكِ المفهومان، هل تُعد الحياة على حافة الجحيم والبؤس لرجل لا يملك منها شيئًا كحياة رجل لديه أهداف ورؤية وحياة مستقرة؟ بالطبع لا، يمكننا هنا أن نسمي الحالة الأولى ألم الاستمرار ليس إلّا؛ لا يكفي أن نكون على قيد الحياة يا ندى لنُسَمَّى أحياء نحن لسنا دوابًّا أو نباتات؛ نحن معمرون، والتعمير لا يكون بالاستمرار في الحياة ومتطلباتها؛ التعمير بالأحلام، بالأهداف، بالحب، بالشغف نحو كل ما نحب وننتظر تحقيقه هنا فقط تنبثق حيوات أُخرى نحن نموت مرة واحدة ونعيش كل يوم .

انتظر قليلًا فلم أرد فبعث مجددا:

- أراكِ صامتة!

وصلته مباشرة رسالة نصيه مني:

- لا أبدًا، إني أتأمل وجهة نظرك.

- إذًا أخبريني ما رأيكِ في موضوع الثقة الذي طرحه فرانك على ابنه آرثر؟ لقد تناول غيوم ميسو في أول كتابه أنه بينما كان آرثر يجلس على السرير تقدم أبوه وهو يُظْهِرُ مشاعر العطف وقد رفع يديه طالبًا من آرثر أن يقفز في الهواء وأنه سيلتقطه، أجابه آرثر أنا خائف لكنه تابع لا تخف سألتقطك فما كان من آرثر إلا أن قفز من سريره وهو متأهب للتشبث برقبة أكثر شخص أحبه بالعالم، لكن فرانك تراجع في اللحظة الأخيرة خطوة إلى الخلف عمدًا فانطرح آرثر أرضًا على كامل طوله وارتطم في فكه وجمجمته وقبل أن ينفجر بالبكاء لقنّه والده درسًا: "عليك ألا تثق بأحد في الحياة هل تفهم يا آرثر لا أحد حتى أبيك نفسه".

تنهدت قليلًا وأجبت:

- جميل هو الاحتياط بالتعامل وعدم الانكباب بالثقة الكاملة لشخص واحد لكن ألا ترى أنه بالغ، برأيك كيف ومن أين تتكون الثقة بالآخرين؟

- "سؤال جميل لذلك سأجيب:

أولًا: إن الثقة مرتبطة ببعضها البعض فهناك الثقة بالنفس والثقة بالله ومن ثَمَّ الثقة بالآخرين، نحن لا يمكن أن نثق بصنعة ولا نثق بصانعها وإن الذي لا يثق بنفسه لا يثق بالآخرين يا ندى، وأساسيات الثقة بالآخرين هي من مواقف الآخرين ذاتهم حيث تلعب الخبرات والتجارب والتنشئة والاحتكاك دورًا أساسيًّا، دعينا نبدأ بالتنشئة كما فعل ميسو، عندما يخبرك شخص مقرب منك أنه سيضرب خالك وهو يمزح والتلفظ بالمفردات البذيئة والألفاظ الخارجة لعمك وهذا غير طيب واضرب هذا ولا تمشِ مع هذا فإننا لن نفقد الثقة في

الآخرين وإنما نفقد الثقة بالشخص الذي أعطانا التعليمات نفسها، إن ما يفعله الآباء ليس موقفا أو مثالًا إنما هو برمجة كلية وتامة للطفل وتكوين برمجة تامة مثل هذه للطفل هي تعامل لا شعوري مع الناس بهذه الطريقة".

تأملتُ كلامه قليلًا لأجيب:

- حسنًا أكمل.

- "النقطة الثانية وهي خبرات الحياة والتجارب والاحتكاك بالواقع نحن لا نثق بشخص هو لا يثق بنفسه أو أننا لا نثق بمعلم لا يلتزم بالنصائح التي يعطينا إياها، لا يمكننا قبول نصيحة من شخص بأن التدخين مضر وهو يمسك بسيجارة.

أما النقطة الثالثة وهي أخطر نقطة فهي قاعدة التعميم؛ كلهم خائنون، كلهم كاذبون، كلهم... ولو أنك لم تتعامل معهم كلهم لكنك عممت النظرية على مواقف قلة ومشكلتنا أننا شعب يعشق التعميم ما إن يَرى حالة أو موقف حتى يتخذ منها أسلوبًا للحياة متغافلًا بقية الأشخاص والصفات".

بدأتُ أركز وأنغمس في التفكير بحديثه أكثر فسألت:

- إذًا كيف نعرف ونقيس أن هذا الشخص جدير بالثقة أم لا؟

توقف عن الكتابة ثم تابع:

- أولًا إنكِ تريدين وضع معيار للثقة والمعيار ذاته الذي سنضعه نحن مختلفون فيه إنه كمعيار الحب والصدق والسعادة تمامًا وكلٌّ منّا يأخذ المعيار حسب نظرته ورؤيته، إن الثقة يجب أن تكون بلا إفراط ولا تفريط؛ بلا إفراط من الثقة بالآخرين وبلا تفريط من الخوف والبعد عنهم، إن التوازن يكمن في تحكم الإنسان بالظاهر ليتجاوز الباطن بالتعامل والتجارب.

- إنني معك، لكن ألا ترى أن هذه الثقة يمكن أن تورطنا في مشاكل عدة وتجعلنا أغبياء في أعين الغير؟

عاود الكتابة من جديد لتصلني باقي رسائله:

- لقد أخبرتكِ أنه لا يتجاوز الحكم على الشخص إلا بما يظهر منه وأن الأثر النفسي موجود.

- نعم إن الأثر النفسي يمكن أن يكون موجودًا لكن مستجدات الحياة والأقنعة الزائفة التي نواجهها نحن لسنا مدربين عليها ومهما أخذنا من النصائح هي ليست كفيلة أمام موقف نعيشه ألا ترى أنه معظم الوقت الظاهر يخدعنا.

- بالتأكيد الظاهر يمكن أن يخدعنا لذلك لم أعنِ أن نعتمد عليه كُليًّا حيث يجب أن نغلفه بالفراسة والنظرة البعيدة والذكاء الاجتماعي.

رددتُ وقد بدأتُ أجد صعوبة في الفصل بين خيوط الموضوع:

- لكن عند الاعتياد على الأقنعة الزائفة فإنه من الطبيعي أن تتقلص ثقتنا بالآخرين ومن ثَمَّ نفقد الثقة كُليًّا في المستقبل.

- هناك نظرتان ينظر بهما الإنسان إلى المجتمع إما أن يفترض سوء النية حتى يثبت العكس أو أن يفترض حسن النية حتى يثبت العكس وفي كلتا الحالتين يجب عليه أن يفترض شقًّا آخر من النظرة وبالنهاية أعيدها لكِ لا يعني أننا خُذِلْنَا من موقف أن نعمم الواقعة لتصبح قاعدة، لا بأس أن نفترض حسن النية في الظاهر ولكن داخلي محصن لا أعطي مقاليد الأمور لأحد وزمامها في يدي حتى لو كنت أُكن كثيرًا من الثقة لبعض الناس أو جميعهم .

****

لست من الفتيات التي تؤمن بالصداقة بين الشاب والفتاة بدرجة كبيرة لطالما نظرت للصداقة بين الطرفين إنها ليست إلا عبارة عن مرحلة صدى حب.. الكثير من صديقاتي والأغلب لا يمانعن من توسيع حلقة الصداقة فهن يعتبرنها نوعًا من أنواع الانفتاح، أما أنا فلم أكن أكترث لمثل هذه التفاهات بتاتًا وإن كنت أؤمن بالزمالة إلا أني أحصرها في نطاقها لا أكثر، حين حادثني "يزن" أول مرة عارضًا عليّ قراءة الكتاب، لم يبدو لي الأمر على قدر من الأهمية لكن حينما تابع رسائله قد بدأ الموضوع يأخذ مجراه في عقلي لذلك لم أتوقف عن الإجابة بل بادرت بالسؤال حينما سألته من هو ولم يجب، فقط بادر بالسؤال متجنبًا الإجابة وحينما أصررت أَوْضَحَ لي ليجيب من هو!!!

لطالما تلاقينا في المكتبة ولم يتجاوز حديثنا سوى عبارات مختصرة التي لا تزيد عن: "- أين أجد قسم الأدب أو أين ذهب العم حسن، كم الساعة لديك؟". كان يعمل بجانب المكتبة التي أرتادُ إليها، أخبرني أن ذوقي بالقراءة لا بأس به وحين أخبرته كيف تعرفت على ذوقي قال إنه كان يطّلع أحيانًا على عناوين الكتب التي أحتضنها بأصابعي".

قطع تشاجر أفكاري صوت أبي وهو يناديني:

- احضري لي كوبًا من القهوة من فضلكِ يا ندى، كيف حال يحيى ساكن الطريق؟

- تقصد يحيى المجنون أليس كذلك؟ إنه بخير لا تقلق يتدبر أمره جيدًا.

- لكني لم أقصد يحيى المجنون.

- إذًا من قصدت؟

- "قصدتُ يحيى ساكن الطرقات لكنه ليس بمختل كما الجميع يزعم لقد قابلته منذ فترة ووجدت أنه يملك عقلًا محصنًا ضد الترهات إنه لا يكذب ولا يسب ولا يضرب فمن المجنون إذًا؟ إنه فقط يسخر، يسخر من الواقع، من الحكومة، من الترهات التي دَفَنَّا رأسنا بها من بُعْدِنَا عن خالقنا، يسخر من ذهاب عقولنا في المسار الخطأ حتى ذهب عقله لكنه ليس بمجنون وليس

بعاقل إنه ما بين المنطقة الفاصلة بينهما، إنه يحيى لقد تتبعت قصته وعرفت أنه كان شابًّا ميسور الحال تخرج في كلية الشريعة الإسلامية ودرس التجارة وقد وجد وظيفة في إحدى الشركات.

فقدَ بعدها رشده حين ذهب والداه جَرّاء عملية سرقة من لص حاول اختلاس أوراق تخص عمل يحيى وحينما اعترض والداه طريق اللص لاذ بالفرار بالأوراق بعد أن سدد عدة طلقات لأمه، أما والده فقد توفي بعدها بثلاثة أيام من حسرته عليه بعد إصابته بصدمة نفسية خطرة، لم يتحمل يحيى الحادث بفقد والديه وعمله ومن ثَمَّ رشده وبات يجري في الطرقات هكذا".

فتحت فمي صارخة:

- هل هذا صحيح؟
- هذا ما حدث وهو ما نقل يحيى تلك النقلة.
- دعيني أخبرك بقصة.
- كلي آذان صاغية.

- "كان بهلول وعلى عادته يمشي في بغداد فلقيه رجل تاجر فقال لبهلول: أريد استشارتك في أمر التجارة.

فقال بُهلول وكان في يده خزيران يضرب بها كفه الأخرى بهدوء: وما الذي عدل بك عن العقلاء اخترتني دونهم؟

ثم صمت وقال: حسنًا وما الذي أردت استشارتي فيه؟

فقال التاجر: إني أعمل بالتجارة وإني أريد شراء متاع أحتكره ثم أبيعه لمن يدفع لي به ثمنًا باهظًا.

ضحك بهلول حتى بان ضرسه وقال إن أردت الربح فاشتري الحديد والفحم.

شكره التاجر وانطلق إلى السوق وفكر في كلام بُهلول فارتأى بأخذ كلامه جيدًا فاشترى حديدًا وفحمًا وادخرهما في مخزن لمدة من الزمن ولما احتاج

لثمنهما وكان قد ارتفع سعرهما باعهما وربح من ورائهما ربحًا كثيرًا يسيرًا ولكن هيهات إن هذه الثروة أثَّرت على التاجر كما تؤثر على معظم الناس فاغترّ التاجر بنفسه فأخذ يتحدث عن ذكائه وفطنته.

مرّ التاجر ببهلول يومًا لكنه لم يعره أي اهتمام هذه المرة بل سخر منه وقال أيها المجنون أشر عليّ باستشارة لمتاع أحتكره ليعود عليّ بالربح.

هنا ضحك بهلول وقال: عليك بالثوم والبصل.

خطى التاجر عدة خطوات ثم قال باستكبار: عليك أن تفتخر بمشورة تاجر مثلي

لكن بُهلول لم يجبه بشيء حتى انصرف.

وذهب التاجر بعدها جامعًا كل أمواله واشترى بها الثوم والبصل على أمل التكسب والثراء، وبعد أشهر مضت جاء التاجر وفتح أبواب المخزن وقد وجدهما قد تعفنا ونتنا وفاحت رائحتهما المكان، فضرب بكلتا يديه وصاح: يا للخيبة والخسران لن يرغب أحد في شراء ثوم وبصل متعفنين، لا بد من نقلهم إلى المزبلة. واستأجر عمالًا ليخرجوا البضاعة من المخزن والتخلص منها.

امتعض التاجر من بُهلول وازداد غضبًا عليه فأخذ يبحث عنه في كل مكان حتى عثر عليه فلما رآه أخذ بتلابيبه وقال: أيها المجنون ما هذا الذي أشرت به عليّ لقد أجلستني على بساط الذل، وقص التاجر على بهلول وصوته يرتعش من شدة العضب بسبب ما حدث له.

فقال بُهلول: لقد استشرتني أولًا فخاطبتني بخطاب العقلاء فأشرت عليك بما يشيرون، لكنك عندما استشرتني ثانيًا بخطاب المجانين فأشرت عليك بمشورتهم فاعلم أن ضرك ونفعك مخبئان تحت لسانك، فأطرق التاجر برأسه فتركه بُهلول الحكيم وانصرف عنه.

- أعتقد أن الحكمة قد وصلت أليس كذلك؟

- بلى كذلك.

****

لقد آلمني جدًّا ما حصل ليحيى يبدو أنه تألم كثيرًا حتى ما بات عقله ليتحمل المزيد فطاف في بعد آخر .

كم هو مؤلم الفقدان يُذهب أحدهم فجأة من غير تحية، من غير وداع، من غير كلمة أحبك .

إننا نتمرن على الفقدان منذ أن كنا أطفالًا، نفقد سنًّا ثم لعبة ثم وقتًا نلهو فيه، أحدنا يفقد طفولة ثم شخصًا، يليه حلم لكن الأصعب حتمًا حين نفقد ذواتنا فلا نعد ندرك شيئًا مما حولنا .

لطالما اعتقدت أن الفقدان تدريب شاق للنسيان، على قلوبنا إتقانه جيدًا، لكننا نكذب على ذواتنا حين نزعم إننا قادرون على النسيان، نحن نتناسى، نركل مأساتنا إلى ركن بعيد داخلنا لكنها تظل ثابتة داخلنا توخزنا من حين لآخر لكننا لا ننسى، ربما لو كنا أسماكًا ذهبية لكان الفقدان أسهل فلن تتعدى ذاكرتنا الثلاث دقائق لكننا بالنهاية بشر وهذا جزء من طبيعتنا .

صحتْ متأخرة بعد أن غطت في نوم عميق، تناولتْ بخفة بنطالًا رمادي وبلوزة صفراء مع فردتيّ جوارب مختلفتين؛ لم يتسنَّ الوقت لتضع عدستها اللاصقة فارتدت نظارتها الطبية، ألقت نظرة لشعرها غير المرتب مُحدثة نفسها:" لا بأس إنها الموضة الدارجة".

التقطت حقيبة يدها ونزلت مهرولة سريعًا إلى عملها الذي ينتظرها

"يا إلهي لا أرغب بالمزيد من التأخير لكن يبدو أن المرور معطل لن أصل هكذا ما كلّ هذا!!!".

صرختْ: اللعنة، لن أظل واقفة أنتظر تحرُّك السيارات.

نزلت من سيارة الأجرة مكملة الطريق مشيًا، لهيب الشمس حارق يبدو أنه ليس من أفضل أيامها.

نظرتْ في نوافذ السيارات متأكدة من هيئتها، قالت بضجر: يا إلهي قد نسيتُ غسل وجهي وعيناي منتفختان".

فتحتْ المحل ودخلتْ، نظرتْ في الساعة فور دخولها، كانت قد تأخرت ساعة إلا ربع، قالتْ في سرها: "حتمًا لو عم طوني هنا لكان أمطرني بوابلٍ من المحاضرات عن أهمية الوقت والتوقيت حيث كان دومًا يردد على مسمعي أن الوقت هو أكثر ما نحتاج وأسوأ ما نستخدم، والذي يسيء استخدام الوقت هو أول من يشتكي من قصره".

أسرعتُ في تنظيف المكان والاعتناء بالتحف من خلال إزالة الأتربة عنها كان هناك طلبية من التحف عليّ توضيبها وتسعيرها وإفساح لها مكان في الواجهة حيث كان شعارنا دوما التغيير هو سيد الموقف، كان عم طوني يحب تغيير ديكور المكان من حين لآخر، إنه يزعم أنه إن لم يجذب الزبائن فإنه يجذب انتباههم .

أنهيتُ العمل، حضرت كوب قهوة ساخن بينما أتفحص صفحات كتاب، لقد تجاوزت العاشرة صباحًا، الثانية عشرة ظهرًا، الثالثة عصرًا لكنه لم يأتِ بعد. لم يكن من طبيعته التأخر هكذا من غير إعلامي لقد بدأ الشك يساورني ليس لأنه تأخر فقط بل لأنها ليست من عادته المزعومة.

جلستُ أكمل عملي منهمكة في جعل المكان أفضل، كنت أحب بل أعشق هذا المكان، لم يكن بيتي الثاني بل كان ملجئي الأول، أشعر هنا بالسكينة، كل ما حولي قديم وثمين، آلاف السنين منطوية بداخله، فكم مرت عليه حكايا وقصص وأناس عابرة فكيف لا يكون دافئًا وهو يعج بكل هذه الذكريات القديمة .

إني أحاول مهاتفته منذ حوالي ساعتين لكن هاتفه غير متاح، لا يعجبني هذا الأمر كما أن ميعاد انصرافي قد قارب على الانتهاء، المشكلة ليست في تأخري لكني لا أود أن أرحل قبل أن يأتي لربما يحتاجني.

رن أخيرًا هاتفي فأجبت مسرعة، لكنها كانت ريم ليس إلا:

- الحمد لله تبًّا لك كنت أعتقد أن العم طوني من اتصل.

- لا بأس هل هناك مشكلة؟

- لا لكن العم طوني تأخر اليوم وأحاول الاتصال به منذ الصباح لكن هاتفه مغلق.

- ربما، ماذا تفعلين؟؟

- جيدة لا بأس كنت أشاهد فيلم للجوكر إنه رائع حقًّا بكل معايير الكلمة لكنني حزينة على هيث.

- نعم لقد شاهدته إنه عظيم، لكن لمَ هيث؟ إنه يمثل جانب الشر.

- لا لم أقصد هيث كونه لعب دور الجوكر في الفيلم، حزينة على قصة هيث الواقعية، إن هيث أبرز الممثلين الاستراليين كما تعلمين وقد حقق نجاحًا مدويًا بعد مشوار فني بدأه بالظهور في أدوار تلفزيونية خلال حقبة التسعينيات ثم طور حياته الفنية في هوليوود، لكن عام ٢٠٠٨ وبعد يوم واحد من الانتهاء من أحد أبرز أدواره وهو دور الجوكر في فيلم باتمان الشهيرThe Dark Knight ، أصابته حالة اكتئاب طويلة أدت إلى تدهوره فقرر إنهاء حياته بتناول جرعة زائدة من عقاقير الاكتئاب، وعُثِرَ عليه ميتًا منتحرًا داخل شقته بعد اقتحام الأمن لها، فلقد أدى تقمصه الشديد لشخصية الجوكر بتقمص الشخصية لعقله وأدرجته تحت قائمة المرضى النفسيين. لقد آلمتني قصته كثيرًا ألا ترين أنه كان ضحية فيلم قد عاش تفاصيله حتى تغلغلت داخله مسيطرة عليه مؤدية به إلى الانتحار، أن نعيش لنمثل هو أن نعيش مشاعر غير التي نكنها، وهذا وحده انتحار.

- أنا معكِ حقًّا في هذا إن إضمار الأحاسيس يؤثر علينا بطريقة عكسية جدًّا قد تُودي بنا. لكن دعيني أصحح لكِ الأمر، إن هيث لاعب دور الجوكر لم يمت بسبب تأثير الفيلم.

- كيف إذًا؟

- لقد جاءت بعدها الحقائق لتنفي خبر انتحاره بجرعات زائدة من أدوية الاكتئاب حيث قال كيت ليدجر، شقيقة الممثل الشهير هيث ليدجر، إن دور "الجوكر" في فيلم فارس الظلام لم يكن مسؤولًا عن الموت المفاجئ لليدجر، فقد مات هيث بسبب جرعة مخدرات زائدة، وليس عقاقير اكتئاب، ولم يكن مريضًا عقليًّا على الإطلاق؟

وأضافت كيت: حياة هيث كانت طبيعية للغاية قبل وفاته، ولم يكن لديه أي مشكلة فيما يتعلق بصحته العقلية، لقد صُدِمت حقًّا، بسبب كل تلك التقارير والأقاويل التي كانت تتكهن وتؤكد اكتئاب هيث قبل وفاته بسبب دور الجوكر، ولكن الحقيقة هي العكس تمامًا؛ فقد كان مرحًا للغاية وسعيدًا. نافية اكتئابه الأيام التي سبقت وفاته أو تأثير شخصي الجوكر فيه.

- أمم، أنا لا أصدق هذا ولا أكذبه؟

- وأنا أيضًا لكن ما نتفق عليه أن المشاعر هي أكبر سلاح يمكن أن يُودي بنا بعيدًا.

- ماذا تفعلين؟

- انتظري قليلًا يا ريم إن العم طوني يهاتفني سأحدثك بعد قليل.

- حسنًا.

رددت بلهفة:

- أين أنت يا عم طوني لقد قلقت عليك؟

- لا بأس أنا بخير أحببت فقط أن أطمئنكِ، حسنًا أغلقي المحل وغادري.

تعجبتُ بشدة ورددت:

- أغلق المحل!!! منذ متى ونحن نغلقه في مثل هذا الوقت؟ ألن تأتي اليوم!! هل أنت بخير؟!

- لن أستطيع النزول اليوم فقد أنهيت عمليتي فجر اليوم وأنا بخير حمدًا لله.

- ماذا؟ عملية!!! أي عملية؟!!

لا تقلقي أنا بخير يا ابنتي، حسنًا لا تتأخري، وداعًا.

- وداعًا

***

لا أحد بالبيت لقد سافر أبي وزوجته وغسان لزيارة أقاربهما وأخبراني أنهم لن يتأخروا ربما أسبوعين أو ما شابه وبما أنني خارج نطاق العائلة فآثرت البقاء بالمنزل كما أنني لا أحب الأجواء العائلية تلك ربما لأنني لست معتادة عليها، أن تمضي حياتك منبوذًا من عائلة الأم والأب لأن كلاهما اقترف ذنبًا أسماه المجتمع الطلاق فحتمًا ستعتاد على المسافات البعيدة عن كليهما.

لا بأس في ذلك سأمضي هذا الوقت وحدي بالبيت أستيقظ كما شئت ولا عبارات عن التنظيف والترتيب والنوم مبكرًا وإلخ إلخ ......

لم يكن لدي رغبة في تناول أي طعام.

ارتديت ملابس النوم وانصعت إلى غرفتي وقد أنهيت قراءة (اللحظة الراهنة) وها أنا في كتاب (غدًا) بناءً على طلب عزيزي القارئ.

ما زال يشغلني أمر عم طوني إنه متحفظ جدًّا عما يؤلمه لكن لماذا أخفى عني أمر العملية؟ لا شك أنه لم يرغب أن يقلقني أكثر من ذلك، في النهاية حمدًا لله على سلامته.

لقد مللت من الجلوس هكذا سأتصل بريم ربما نتناقل بعض الأحاديث التافهة.

حاولت مرارًا ولكن هاتفها مغلق، لا شك أنها نامت، إنها من النوع الذي يغلق العالم حوله وينفرد بنفسه في عالم الأحلام، إن ريم من محبي النوم كثيرًا ومهتمة أكثر بالأحلام، لها طقوس مثيرة أولها ألّا يتجاوز موعد نومها أي سبب وتستحم قبل النوم مباشرة، ترتدي أرقى ثياب وتضع الكثير من العطور التي تفضلها، إنها تتزين بأبهى زينة كما أن استراتيجيات اليوغا من أساسيات يومها كالتنفس العميق أو التأمل أو الاستماع إلى موسيقى مريحة، ثم تغلق هاتفها وتنصاع إلى هذا العالم الآخر إنه عالم الأحلام.

حينما سألتها عن أهمية كل تلك الطقوس أمطرتني بوابلٍ من الحقائق العلمية المختصة بذلك الموضوع وشدة أهميته لكنها صمتت أخيرًا وقالت إنه الجزء الوحيد الذي لا يتحكم به قلبي والمكان الأكثر حفاوة بي، إنه يدور كله حولي إني بطلته وملكته ومخرجته فكيف لا أحتفي به .

تنهدت يومها قائلة: هل تعلمين يا ندى أن مشاعرك الحقيقية تظهر خلال نومك وأثناء أحلامك؟ على سبيل المثال، قد تخسرين شخصًا مهمًّا في حياتك إلا أنك تتأقلمين مع الأمر في حياتك الواقعية، لتجدي بأنه لا مهرب من تفريغ مشاعرك الحقيقة إلا من خلال أحلامك، فأنت غالبًا ستقومين برؤية هذا الشخص في حلمك !

فتحت شاشة هاتفي أتصفح السوشيال ميديا حين أنذرني اهتزازه عن قدوم رسالة.. يا ترى مِمّن!!!!؟

نظرت إلى المرسل وقد آلمتني اللحظة التي رأيت بها جهة المرسل.

هل تذكرتْ أن لها ابنة أخيرًا، ماذا تريد؟ إنها لم تحادثني منذ مدة طويلة حتى إنها لا تأبه لأمري، إن زوجها وأولادها في المركز الأول لديها لكن أنا لست إلا خطأ من الماضي عليها تجاوزه، ليس عليّ أيضًا لومها إنها حياتها وهي حرة بها.

فتحت رسالتها كانت تحمل طبعة حنان وهي تحمل اسمي في أول كلماتها: "عزيزتي ندى، كيف حالك؟ وكيف تسير حياتك؟ أود إخبارك أني سأسافر غدًا إلى فرنسا؛ لقد أتى أمر السفر مفاجئًا جدًّا، أعلم أنني قد وعدتك حين أخرج من روسيا سآتي لزيارتكِ، لكن الوقت ليس ملكي، فطائرتنا غدًا، أعرف أنك ستتفهمين الأمر، تَمَنّي لي التوفيق وداعًا عزيزتي".

مرّ وقت كثير وأنا جالسة مُتسمرة مكاني، لا أعلم كم مرّ من الوقت وأنا محدقة في حروف رمتها رميّ الرصاص في قلبي لكن لِمَ؟؟؟

لا أستوعب شيئًا، ما زلت أُعيد قراءة الحروف وعيناي لا تتوقفان عن الانهيار مُحْدِثةً اضطرابًا داخليًا، لكن كيف؟ كيف سولت لها نفسها؟ لقد خذلتني، لماذا أخبرتني إذًا أنها ستأتي لزيارتي؟ لِمَ فعلت ذلك؟! لهذه الدرجة كنتُ خارج نطاق اهتمامها.. ما زلت محدقة في تلك الكلمات اللعينة التي تبدو كأنها أيضًا تسخر مني.

حاولت أن أكتب لكن الحروف لوهلة واحدة بدأت تتقلص وبقبضة واحدة دفعت بالهاتف ليرتطم بالحائط، ربما حين تتوقف الشاشة عن الإنارة تتوقف مشاعري عن الصراخ لكن هذا لم يحدث.

استيقظت ولم أعلم كيف استطعت النوم أخيرًا بعد تلك الليلة لكن هذا غير مهم، وجهي متعب وكأنني بقيت مستيقظة مئة عام، أإلى هذا المدى وأكثر يمكن لرسالة واحدة تَرْك كل هذا الندبات بملامحنا؟ استوقفني الحزن الذي نال مني وجعلني أواجه كل هذا العجز، لطالما تحليت بالثبات أمام الجميع دائمًا كنت أتأقلم مع الخذلان وأتعايش مع الصراعات وتوقعاتي تجاه الآخرين لكني مع هذه المساحة، مساحة الوالدين تلك المساحة الحساسة أجد تأثيرًا ضخمًا يلتهمني فوحدها من تمتلك سطوة استثنائية على نفوسنا. نحزن لأنه حين نحاول تجاوز إساءة أبوية لا نتجاوز سوى ذواتنا.

حمام دافئ صباحًا كان قد أعاد شيئًا من اتزان جسدي وإن ما زالت روحي مضطربة. عدّلت هندامي وتزينت وذهبت إلى عملي، كنت متأهبة كثيرًا لرؤية العم طوني ويا ليتني لم أره لقد اعتدت على صلابته ونظرته للأمور لكن لم أتوقع صلابته لمثل هذا الحال، أن يفقد الأنسان أعز ما يملك في ليلة واحدة ليولي اليوم التالي عمله بكل اعتيادية إنه لعجب.

جلس عم طوني يتحدث بكل سلاسة وكأنه يناقش الأخبار اليومية،،،،،

- "أخبرني الأطباء أن إحدى مضاعفات مرض السكري المحتملة، هي الإصابة بما يسمى اعتلال الشبكية السكري، إذ قد تُحدث خسارة للبصر نتيجة ضعف يصيب الأوعية الدموية في الشبكية، مما يتسبب في تمزقات ونزيف داخل العين. لم أعطِ للأمر بالًا يا ندى وإن كان يشغلني بعض الشيء، أخبروني بأنه يجب إجراء العملية، كان شيء يخبرني أن أُمْلِي عيني من كل ما أحب أكثر مع أنهم أخبروني أن الرؤية ستغدو أفضل.

وأثناء محاولة شفاء العين من التمزق الحادث قد تتسبب الندوب الناتجة في الشبكية بخسارة البصر تمامًا."

قاطعته بحدة:

- لكن من هذا الأخرق الذي قام بهذه العملية؟!!

- "يا ندى لا يمكنني أن أُحَمِّل الطبيب سبب مرضي، إنه قضاء وقدر ولا بد أن هناك خيرًا في ذلك، وأنا يا ندى قد رأيت من الدنيا ما يكفيني حان الوقت لأن أراها من نظرة مختلفة.

كان والدي دومًا يخبرني بقصة الرضا بالقضاء والقدر وأن الخير يكمن بالشر حتى بتّ أحفظها من كل قلبي.

دعيني أقصصها عليك وهي أن شيخًا كان يعيش فوق تل من التلال ويملك جوادًا وحيدًا محببًا إليه ففر جواده وجاء إليه جيرانه يواسونه لهذا الحظ العاثر فأجابهم بلا حزن وما أدراكم أنه حظٌ عاثر؟

وبعد أيام قليلة عاد إليه الجواد مصطحبًا معه عددًا من الخيول البريّة فجاء إليه جيرانه يهنئونه على هذا الحظ السعيد فأجابهم بلا تهلل وما أدراكم أنه حظٌ سعيد؟

ولم تمضِ أيام حتى كان ابنه الشاب يدرب أحد هذه الخيول البرية فسقط من فوقه وكسرت ساقه وجاءوا للشيخ يواسونه في هذا الحظ السيئ فأجابهم بلا هلع وما أدراكم أنه حظ سيئ؟

وبعد أسابيع قليلة أعلنت الحرب وجند شباب القرية وأعفت ابن الشيخ من القتال لكسر ساقه فمات في الحرب شبابٌ كثر.

وهكذا ظل الحظ العاثر يمهد لحظ سعيد، والحظ السعيد يمهد لحظ عاثر إلى ما لا نهاية في القصة.

وليست في القصة فقط بل وفي الحياة أيضًا يا ندى فحظنا العاثر هو بمثابة الحظ السعيد لغيرنا والعكس صحيح هذه هي الحياة.

فأهل الحكمة لا يغالون في الحزن على شيء فاتهم لأنهم لا يعرفون على وجهة اليقين إن كان فواته شرًّا خالصًا أم خيرًا خفيًّا أراد الله به أن يجنبهم ضررًا أكبر ولا يغالون أيضًا في الابتهاج لنفس السبب.

إن الله قد أعطاني البصر ستين عامًا وأكثر فهل لي برأيك أن أعاتبه حين أخذه مني الآن، فحمدًا لله على نعمته، إنني راضٍ يا ندى، هناك الكثيرُ من الجمال حولنا إن أردنا إدراكه جيدًا علينا تأمله بقلوبنا لا بحواسنا وإن كان البصر -ولا أكذب عليكِ- نعمة كنت بها وأحزن عليها إلا إن الرضا في داخلي كثير .

وهؤلاء هم السعداء يا ندى فإن السعيد هو الشخص القادر على تطبيق مفهوم (الرضا بالقضاء والقدر) ويتقبل الأقدار بمرونة وإيمان لا يفرح الإنسان لمجرد أن حظه سعيد فقد تكون السعادة طريقًا للشقاء.

والعكس بالعكس...".

*****

(الفصل الثامن)

كانت امرأة، تستطيع رؤية قوتها بمجرد النظر في عينيها

- ما بك يا ديم، ما الأمر؟ لماذا تبكين، أنت بخير؟!

- إنهم في المدرسة ما زالوا يسخرون مني يا أمي لقد مللت.

- لا تحزني عزيزتي سأرى هذا الأمر.

- أمي لماذا نحن فقراء بينما أصدقائي لا؟ لماذا خلقنا الله هكذا؟ ألا يحبنا؟

- لا يا عزيزتي من قال إن الله لا يحبنا؟

شردت لثوانٍ بالجدار لتتابع:

- إن الأطفال دومًا يخبرونني بذلك، من يكرهه الله يجعله مثلنا.

- حسنًا يا ديم وهل من يحبهم الله يجعلهم أغنياء؟ لو كانت الأموال معيارًا لتمايز الأحب لله والأسوأ عنده لما كان محمد أحب الخلق لله ينام جائعًا وتمر عليه الأيام ولا تُوقدُ في بيته نارٌ لطعام، وقد عاش فقيرًا ومات فقيرًا وهو أكرم خلق الله، ولقد أخبرتك بقصته مسبقا، ألم يقل سبحانه فإن أعطيت فاشكر وإذا منعت فاشكر، إن الله سبحانه يعطي لحكمة ويمنع لحكمة وفي الخير لعِبر إن الله خلقنا فقراء لأنه يريد ذلك، ألم أخبركِ من قبل في سورة الملك قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[١].

إن الله يا ديم خلقنا فقراء ليختبرنا بذلك ألم ترِي ذا الاحتياجات الخاصة والمرضى وإعاقات جسد ومنهم المشوه، ومنهم الكثير يا ديم؟ ألم تلاحظي أنك أفضل منهم كلهم؟ أخبرتك قبلًا أن حياتنا تلك ليست إلا امتحان للآخرة ووفقًا للامتحان المعطى لنا وسوف تتم محاسبتنا، إن الله يا ديم يحاسب أناسًا مختلفة بطرق مختلفة، ألم تتسألي يومًا إن كنت غنية ماذا سوف تشترين وبماذا ستلهين؟ وكم من أطباق لذيذة سنأكل؟ لا أعتقد أنك تساءلتِ عن الواجبات التي ستفرض عليك وقتها، شريعتنا الإسلامية تقول إنه ٢.٥٪ من أموالنا يجب إن تخصص للصدقات أي للزكاة، أما عن الفقراء فإن الله أعتقهم من الزكاة بل خصصها لهم لذا فالصعوبات تقع على الغني أكثر من الفقير.

رفعت رأسها وبصوت منخفض قالت:

- حسنًا فهمت لكن هل أذنبنا في شيء لجعلنا فقراء؟

- "لا يا عزيزتي نحن نؤمن أن كل الأطفال أبرياء من الذنوب، ألم يقل الله (أموالكم وأولادكم وأزواجكم امتحان لكم)

ربما أراد امتحاني أنا بك أو امتحانك أنتِ، من منا سيصبر إنه امتحان صعب وكلما صعُب الامتحان زاد الأجر والثواب دعيني أخبرك قصة لكن أولًا غيري ثيابك واغسلي وجهك.

كان هنالك مزارع فقير لا يمتلك سوى حمار وأدوات عمله ويتنقل بحماره من مكان لآخر وكان يعمل أجيرًا عند أغنى أغنياء قريته وكانت الأرض التي يعمل بها كبيرة وخصبة تحوي كل ما لذ وطاب، ودومًا كان المزارع يتمنى لو يبدل الله الأدوار ويصبح المزارع مالكًا لكل هذه الأرض ويتمتع بكل ما تشتهي أعينه وتمتلئ منها معدته مع أن مزارعنا الفقير كان يمتلك زوجة صالحة وابنة

---

[١] الملك: ٢.

تحفظ القرآن تقية لا تقل عن أمها صلاحًا وكانت دومًا تطلب من أبيها أن يرضى ويشكر الله على نعمه ويقنع بما قسمه له، وكانت دومًا زوجته تكرر عليه حديث الرسول ﷺ (وما قل وكفى خير مما كثر وألهى) إلا أن المزارع ما زال يتمنى الغنى وأن يبدل الله أحواله مع صاحب الأرض، وقبل فجر إحدى الليالي بساعة نهض المزارع من نومه مفزوعًا فأسرعت ابنته وزوجته للاطمئنان عليه لكن المزارع لم يكن ينطق إلا بجملة واحدة:

"لن أنظر لغيري ورضيت بما قسمت لي يا ألله، لن أنظر لغيري ورضيت بما قسمت لي يا ألله"

وحين سألته زوجته وابنته عن الأمر قال: إني رأيت أنني مت وأنتم كما تعرفون لا أملك سوى حماري وفأس وحبل وإذا برجلين يسألان في قبري من أين أتيت بالحمار؟ وبكم اشتريته؟ ومن أين لك بالمال؟ وفي أي أرض ترعى حمارك؟ وهل استأذنت صاحب الأرض في أن ترعى؟ وفأسك كيف حصلت على ثمنها؟ وهل أذيت بها أحد من قبل؟ والحبل أين وجدته؟ وهل أجرتك تستحقها أم أنك لا تتقن عملك؟ وعشرات من الأسئلة التي لا تنتهي وكل ما أملكه حمار وفأس وحبل فكيف سيكون حسابي لو أني امتلكت ما يمتلكه صاحب الأرض من خيرات وأموال وأراضٍ، والله لأن أظل فقيرًا معدمًا أرحم من أملك الدنيا وما فيها ".

أعلمتِ الآن يا ديم ما هي إرشادات قصتنا:

ارضي بما أعطاه الله لنا واقنعي نحن لا نعلم مساوئ عطايا من هم أفضل منا.

إن الله يحبنا يا ديم يحبنا كثيرًا".

قفزت فرحة

- حقًّا وأنا أحبه أيضًا ولكن كيف عرفت أنه يحبنا هل أخبرك؟

- "نعم قال رسولنا الكريم (إن أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى)

آخر شيء أود إخبارك به يا ديم، إننا فقراء وهو قدرنا مع مشيئة الله، لكن هذا لا يعطينا الاختيار أن نظل هكذا، الفقر ليس عيبًا إنما جريمة".

- أمي أنا أحبك أكثر من حبي للحصول على الحلوى الملونة برغم أنني لا أعرف طعمها لكنها جميلة مثلك.

لقد نامت كم تؤلمينني يا ديم لم أكن أريد بك أن تأتي إلى هنا لكنها مشيئة الله حتمًا يخبئ لكِ الأجمل، لم تكن حياتنا بمرسيليا جيدة وبدأت الأمور تستاء أكثر وأكثر.

إن ديم تكبر يومًا بعد يوم ومنذ قررت إلحاقها بالمدرسة حتى ما عدت أسيطر على زمام الأمور، لم تكن الدولارات التي أتقاضاها يوميًّا تكفي وقتها حتى تكفينا اليوم.

ما زلت أذكر أول يوم سرت مع ديم إلى المدرسة؛ كنت قد استدنت بعض الدولارات الإضافية لشراء الزي المدرسي بقميصه الزيتي المخطط بالأبيض وتنورة قصيرة مع خُف بيضاء، كانت تقفز من شدة فرحها هذه أول مرة كنا نستلذ معًا بفرحة الملابس الجديدة بل لأنها بالأحرى لم تجرب هذا الشعور، فمنذ ولادتها وهي لا ترتدي غير المهترئ. كانت جميلة دومًا لكن يومها كانت متألقة بروحها وهي ترفرف فرحًا حولي وحين وصلنا كانت الأطفال تبكي وترفض البقاء متمسكة بأهاليها، لا بد أن ديم كذلك تشعر بالرهبة لكنها فاجأتني، كانت قد اختارت مقعدًا وجلست ساكنة تتجول في ملامح الأطفال والمكان، أسعدني هدوؤها وطمأنني سكونها فقبلتها قبلة حنونًا وأمضيت سائرة إلى عملي، كان عليّ كل يوم الاستيقاظ أبكر لإيصالها للمدرسة ثم أولي ذهابي للعمل للتنظيف والمسح وإيصال الطلبات التي لا تنتهي.

يومًا بعد يوم كنت ازداد تعبًا؛ نقودنا لم تعد تكفي، حاولت الاستغناء عن وجبة العشاء والاكتفاء بها من أجل ديم، لكن لم يكن لينفع كما أن طلبات المدرسة لا تنتهي، لا أستطيع نسيان نظرات ديم وهي تأتي حزينة من مدرستها جريًا إلى الغرفة كانت تعلم جيدًا إنه ما من ميزانية لأي متطلب لذلك كانت تكتم كل ما يطلب من متطلبات، لم تكن تريد زيادة همومي.

أصبحت ديم قادرة على العودة وحدها وكان طريق عودتها مقابلًا للكافتيريا فكانت تلوح لي لتطمئنني وتولي ذهابها للبيت.

****

- أمي كم من الوقت عليّ تحمل الجوع؟

- حسنًا عزيزتي سأجهز العشاء.

- كيف ستجهزينه؟ نحن ليس لدينا أي شيء.

- لا تقلقي سأنزل وأتبضع أي شيء.

ردت ببهجة:

- لا تتأخري

أخذتُ المعطف ووليت الذهاب إلى السوق مع أني لا أملك أي شيء من النقود، استمررت مشيًا للسوق من دون وجهة منذ يومين ونحن لا نملك فتات خبز لنسد به رمقنا، قد استهلكت كل نقودي في مصاريف الدراسة لديم وما أتقاضاه لم يعد يكفي يومًا، عقلي يشتعل ضجيجًا من أين آتي بالمال؟ معدتي تعتصر جوعًا فماذا إذن بديم؟! لن أعود قبل أن أحضر شيئًا يؤكل.

لم أكن أملك في جيبي غير بطاقتي الشخصية جذبتني رائحة السمك المدخن يا لها من رائحة نفاذة لا بد أنه سيعجب ديم جدًّا ويملأ بطنها الفارغ الذي

يعتصر ألمًا من الجوع فقط، استجمعت شجاعتي ودخلت إلى صاحب المحل وأخبرته إني لا أملك من النقود شيئًا وأود بسمكتين وسأترك له بطاقتي وأحضر له نقوده بعد يومين.

- أتمزحين أنت؟ خذي بطاقتك واغربي عن وجهي المكان ليس للمتسولين.

لا أعلم كيف تمكنت من إلمام كرامتي المبعثرة أرضًا والخروج مهرولة من دون وجهة، وعيناي لا تكف عن ذرف الدموع، اتخذت طرقًا كثيرة على وجهي حتى صعبت عليّ الرؤية.

يا رب لماذا يحدث معي هكذا؟ يا رب إنك تسمعني لا تتركني

جلست على رصيف في زقاق وأنا لا أكف عن البكاء؛ ما الذنب الكبير الذي اقترفته لأنال كل هذا؟ كانت وجوه العابرين تنظر بازدراء وبعضها متفحصة وأخرى تتطاول نظراتهم إلى حد التأمل الفاضح المذري بالطبع فنحن في ضاحية الجريمة والفقر والسرقة لا سيما التحرش والاغتصاب المعلن في أزقتها، كان لا يمر يومان من غير أن تقع جريمة والشرطة لا تحرك ساكنًا ربما لأنهم سئموا من الإمساك بالمجرمين حتى ما يلبثوا بالسجن حتى يهربوا وأغلب فئات الأمن خاضعة لتلك المؤامرات هم منهم وعليهم.

نهضت من مكاني فلم يكن عليّ البقاء هنا أكثر فلم أكن أريد العودة لديم إلا وأنا أحمل لها شيئًا تسد رمقها به، أما الآن فأنا لا أود إلا العودة للبيت والارتماء في حضن خيبتي.

أي خيبة، أي خيبة التي تنطلي علينا وننطلي عليها؟ أي خيبة تلك التي تخبرنا أن النفط والمناجم والاحتياطي من المخزون وخطط العمل للمساعدات وكفالة اليتيم والفقير والمحتاج وندوات التوعية التي تساق إلى شاشات التلفاز ولا نأخذ منها غير المشاهدة إنها حقًّا لخيبة.

تدور في رأسي مئات الأفكار والصرخات والوجع ولا أستعمل منهم غير الصمت.

وصلت أخيرًا إلى البيت أشعر أنني كنت أسير عامًا ودقيقة؛ عام أتألم وفي دقيقة أصل. لم أكن أعلم ماذا سأخبر ديم، هل سأشيح بنظري عنها وأصمت؟ أم أخبرها أنني لم أعرف كيف أتصرف ولن نأكل الليلة؟ أم ألزمها بربط معدتها وإخفاء أصوات الجوع فأنا لا أحتمل مزيدًا من سُبل التعذيب؟ لكن لحسن الحظ فقد أعفتني هي من كل هذا؛ لقد انتظرتني طويلًا أنا أعلم جيدًا أنها لم تمل من انتظاري أو سئمت من عودتي من غير طعام لكنها فضلت النوم على أن تراني بوجه تعتريه ملامح الخذلان فآثرت النوم.

آسفة يا ديم، هذا العالم ظلمنا بكل عدل

ما زلت أتذكر عادات أهل الشام....

كانت عادة التجار وخاصةً في الأسواق القديمة عندما يفتحون دكاكينهم أن يضعوا كرسيًّا صغيرًا بجانب باب الدكان، وأول زبون يأتي للدكان يقوم التاجر بإدخال الكرسي لداخل الدكان ويبيع للزبون يعني يستفتح.

وعندما يأتي زبون آخر ويسأل عن سلعة، إن كانت موجودة يخرج التاجر خارج دكانه وينظر إلى السوق ويلاحظ أي دكان لا يزال الكرسي موجودًا على بابه فيقول للزبون: هل ترى ذلك الدكان؟ إن شاء الله ستجد طلبك لديه، أنا استفتحت.. وجاري في السوق لم يستفتح بعد!!

هذا هو التكافل الاجتماعي، هذه هي المحبة، كانوا يشعرون ببعض، يحبون بعضهم البعض ويساعدون بعضهم دون أدنى نظرة شفقة، هنالك مئات الخصال التي لم يعهدها أو لن يعرفها هذا المجتمع القذر.

متعبة جدًّا وجائعة أيضًا لا بد أن اعتاد إذًا على هذا الأمر إن أردت الإكمال، لا أعلم ما كل هذا السخط على من حولي. البارحة كنت الأم الناصحة الناضجة واليوم ساخطة ومتعبة وقانطة، كلي تناقضات معاذ الله أن أقنط من رحمته لكني لم أعد أتحمل، يمكنني المرور بكل شيء إلا رؤيتي لطفلتي وهي لا تقوى على قول جائعة لأنها سئمت من الرد لإجابتها.

لو لم أسافر أو لم آت معه أصلًا. لهذه اللحظة وأنا لا أعلم حقيقة ما الذي جرى، كلما حاولت تذكر الأمر آلمني رأسي وكاد أن ينفجر فألهيه بالتفكير بأي شيء آخر، لماذا يا زياد؟ ماذا فعلت بك لأستحق كل هذا؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أين ذهبت وتركتني؟ تُرى أين أنت الآن؟ لا أعلم حتى هل أنت حيّ أم لا؟ حسنًا أنا لا أهمك ماذا عن ديم؟ هي أيضًا لا تهتم لأمرها؟ تلك التي بتَّ ترعاها ليالي داخل بطني، تلك التي رسمنا كل أحلامنا عليها. لهذا الوقت لا أعلم بتاتا ماذا عليّ أن أسمي الذي اقترفته بحقنا أهو خيانة؟! لا لا إنه أفظع، أيمكنني إذًا تسميته جريمة، أم إنه هروب؟! لكن هروب ممن ولِمَ وإلى أين؟

أتذكر دائمًا كنت تكلل يدي بقبلة حنون هامسًا لي: "وعد، أنا أعدك البقاء"، أيمكنني أن أسمي هذه كذبة؟ لكننا لم نكن في شهر أبريل وإلا كنت سميتها كذبة وأنت لست بكاذب، لا تخبرني أني لم أبحث عنك فقد حفيت أرضًا وأن أُفتش عن ظلك فلم أجده في مستشفى ولا سجن، كان صعبًا عليّ جدًّا أن أبحث عنك في قائمة الوفيات لكني حين يئست بحثت ولا أعلم هل من الجيد أني لم أجدك أم العكس؟

أقف أمام المرآة وأنظر مطولًا لتلك المرأة التي جعلتني إياها ولا أعلم عنها شيئًا لطالما كنت تخبرني كم تكره أن أنظر كثيرًا إلى المرآة ودومًا كنت أعاندك وأضحك، أراك بداخلي تنظر مني إليك، لدي الكثير من الأسئلة وكلها عبارة عن:

أين أنت؟

****

قالت بنغم الأطفال وهي تقفز بمرح:

- هيا أمي هيا استيقظي كفاك نومًا،،، أمي هيا انظري ماذا أحضرت لك ألا تشمين الرائحة هيا أمي سوف يبرد .

استفقتُ وأنا أُجاهد لأفتح عينيي:

- إنه خبز ساخن محشو بالجبن.

رددت بعدما نهضت وأنا مستغربة:

- ومن أين أتيتِ به يا ديم؟؟

- هيا يا أمي تريدين معرفة كل شيء هيا لنأكل قبل أن يبرد.

- ديم، من أين أتيتِ به؟ من أين أتيتِ بالنقود؟

- لم أجلبه بالنقود بل ابتعته مقابل صفقة.

- ديم بربك من أيّ محل أتيتِ بالخبز هذا؟

نكست رأسها لتُجيب:

- من آخر محل حلويات في منعطف السوق.

أخذتُ كيس الخبز ونزلت مسرعة إلى المحل دون حتى أن أتكبد عناء غسل وجهي المتورم، تلك الطفلة العنيدة ترى ماذا فعلت حتى أتت بمثل هذا الخبز؟ إنه نوع فاخر كيف لأحد أن يعطيها إياه دون مقابل؟ كثير من الأفكار تتضارب داخل رأسي حتى وصلت أخيرًا إلى المحل وبنفس متقطع قلت:

- مرحبًا سيدي.

نظف البائع يديه واستدار لي:

- تفضلي كيف أستطيع مساعدتك؟

- لقد أتت طفلة صغيرة منذ قليل وأخذت رغيفين من الخبز المحشو بالجبن وهي لا تملك نقودًا وهذا ليس من حقنا تفضل إنه لك، أعتذر عن الإزعاج فيما بدر منها.

أزحت بصري وأدرت ظهري لأهم بالخروج لكن صوت الرجل استوقفني:

- لكن الفتاة دفعت ثمنهما سيدتي.

- أظنك مخطئ ابنتي لا تملك نقودًا.

- لكنها عرضت عليّ شيئًا أثمن من ذلك أظنها رائعة في الصفقات.

- أي صفقة لا أفهم؟

- "قد جاءتني طفلة منذ قليل كانت تنظر إلى الواجهة عن كثب بعدها دخلت وسألتني إن كنت سأشتري مئة رغيف من الجبن هل أحصل على واحد إضافي فأجبتها بالطبع إن للكمية شيئًا رمزيًا فأجابتني حسنًا أنا سوف أعمل لأحقق حلمًا وأجني جراءه نقودًا كثيرة واليوم الذي أمتلك ما يكفي من النقود سوف آتي إليك وأشتري مئتيّ رغيف أما الرغيفان الهدية فسوف آخذهما الآن فأمي جائعة جدًّا وأريد أن أفرحها.

نظرت إليها مليًا وأنا مندهش من حديثها وتلقائيتها فوافقت وأعطيتها الرغيفين وأنا ما زلت شاردًا في لمعة الفرحة في عينيها وأنا أحضر رغيفين ساخنين.

إن ابنتك يا سيدة دفعت أكثر مما يتوجب دفعه، إن خبرتي في عالم الطهو طويلة لأول مرة أرى كيف يقدم طبق العطاء بنكهة طفولية حالمة" .

عدت إلى البيت وعيناي تملؤهما الدموع، كنت أعتقد أن الدموع إما دموع فرحة أو دموع حزن لكن ما فرزته عيناي كان شيئًا آخر لم أعرف له مسمى بعد.

حينما دخلت جريت إلى الغرفة فوجدتها متكورة بجانب السرير، ضممتها بين يدي وهي ما زلت تشهق، قالت وهي تلتقط أنفاسها:

- أظننتني أنني أسرق، ألم تخبريني أن الله يحبنا فكيف لي أن أتنازل عن شيء في قمة الثراء كمحبته وأجري وراء شيء بخس حتى ولو كنت أشتهيه؟ أم اعتقدتِ أنني أذللت نفسي من أجل رغيفين وأنت من ثُني ظهرك وأنت ترفعين

منزلتنا، أمي أنا سوف أعمل وأجني مالًا ولن نحتاج لأحد لا تقلقي.

- لست قلقة يا ديم لست قلقة، هيا تناولي الرغيف وابدئي في مذاكرة دروسك، أريدك أن تتقدمي في الدراسة أنت فتاة ذكية.

- أمي هل الذكاء يتعلق بالتحصيل الدراسي؟

- لا وليس دومًا لكن لماذا تسألين؟

- لا أحب المدرسة، أشعر بالضجر حينما أدخل، لا أرغب بالذهاب هناك.

- لماذا يا ديم؟ إنها مكان رائع.

- لا ليست مكانًا رائعًا ولا أحد ينتبه لي، والمعلمات يتجاهلنني دومًا حين يقسمن أدوار المسرحيات والألعاب والأنشطة وحين تحدثت للمعلمة أخبرتني أنني لا أليق أن أقوم بهذه الأعمال فظللت صامتة حينها لكن ما معنى أنني لا أليق بهذه الأعمال؟ إنني لم أفهم معناها لكني أعتقد أنها صفة سيئة أليس كذلك؟

حاولتُ الابتسام وتابعت:

- بتاتًا إنها تقصد فقط أن أحدًا ببراعتك يا ديم مكانه أفضل من هذا بكثير عليك فقط اختزان قوتك لما هو أكبر.

- حسنًا ولكن أيضًا الأطفال لا أحد منهم يلعب معي، دومًا يجتمعون في حلقات أخلو منها لقد سئمت منهم ومن اللقب السخيف الذي ينعتونني به، هل أنا غريبة لينفر مني الجميع؟

- لا يا ديم، لست غريبة؛ أنت متميزة، والمتميزون يصنعون لهم مكانًا بعيدًا عن المتشابهين لا أكثر.

- أنا أحبك.

- أنا أحبك أكثر، هيا تناولي طعامك وأنا لا أريد أن أتأخر عن عملي.

- حسنًا

****

أسرع في خطواتي لأصل في ميعادي، لا بد أن أبحث عن عملٍ ثانٍ؛ مرتب واحد لن يكفينا لكن من أين آتي بالوقت؟ إني أعود متعبة وفي وقت لا يكفي لأعمل فترة أخرى، يا رب اغمرني برحمتك ما لي سواك.

كان عمل اليوم مجهدًا وشاقًّا إنه يوم الجمعة مما يعني وابلًا من الزبائن الذي لا ينتهي وقدمين متورمتين زيادة عن اللزوم.

من الطاولة ثلاثة للطاولة أربعة وأربعين، أضع هذا الطبق وأرفع ذاك، هذا يطلب وذاك يرحل، ورزمة أوامر عليّ تلبيتها في وقت واحد.

أووه حقًّا تعبت متى ينتهي هذا اليوم؟

- الطلب جاهز.

- حسنًا.

أحمل الكؤوس لأضعها على طاولة أحد الزبائن حتى توقفت عيناي وتسمرت قدماي حتى حسبني الناظر تحجرت.

صحت في داخلي بعد ذهول: نعم، إنه هو نفس الطول، نفس عرض الكتفين لكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل أواجهه أم أركض وأعانقه؟ ماذا أفعل؟ إنه نفس القميص بل هو، ما زلت أذكر جيدًا كيف ومتى اشتريناه معًا، إنه لوني المفضل لقد تعبنا كثيرًا حتى وجدنا مقاسًا مناسبًا منه، هل يعقل أنه عاد هل هذا أنت حقًّا.

تركت الكؤوس وأسرعت واستجمعت كل ما دفنته داخلي طوال تلك الفترة كل الخراب، الألم، الخداع،،، التيه، وأطلقته دفعة واحدة لتخرج من فمي كلمة لا غير.

زيااااد

****

حرارتي مرتفعة ويناوبني صداع قاتل، نصحني مستر روك بالمغادرة مبكرًا مضيفًا أن عليّ الارتياح وأخذ إجازة غدًا، لكنني اكتفيت بالمغادرة فلا داعي للإجازة فسوف أكون على ما يرام لا تقلق.

شكرته وغادرت، كنت أمشي ببطء كأنني غدوت في العقد الخمسين من عمري، مررت بجانب مرآة فاستوقفتني نفسي الكهلة، نظرت مليًّا إليها هامسة: (ومرحبًا بالمتسولة قلوبهم على أرصفة الحنين يبتاعون ذكريات ماض عفى عنه الزمان ولم تعفُ عنه الملامح) .

لماذا لا تتركنني صورتك يا زياد؟

لماذا تصر على التنقل في أشباهك الأربعين لتربكني؟

اليوم هرولت مسرعة إليك، لكن لم تكن أنت، ومن يومين ظللت محدقة النظر في أحدهم فكان يمتلك نفس ضحكتك لا شك أنه اعتقد أنني معجبة به أو ما شابه فأشاح بوجهه عني.

لماذا لا تتركني ملامحك يا زياد أم أن عيني أدمنتك حتى فقدت القدرة على تمييز ملامح أخرى غير وجهك؟

إلى أين ذهبت يا زياد؟

ماذا تعني بهذا الهروب؟ كيف طاوعك قلبك؟ كيف تخليت بهذه السهولة؟ ما الذي جنيته بالمقابل؟

لم أعد أستطيع التحمل أكثر

ماذا عن ابنتك الوحيدة؟ لم فرضت عليها أن تأتي لهذا العالم من غيرك؟ من غير لمسة حنان تشعرها بالأمان، همسة في أذنيها قبل النوم تجعلها تطمئن، لم قررت التخلي بهذه البساطة وأنت من كنت أكثرهم تعلقًا؟ لهذا الوقت يا زياد أعجز عن تصديق ما قمت به، أرفض أن أتبنى فكرة أنك تركتني هكذا بكل بساطة من غير سابق إنذار، من غير وداع، من غير صفعة واحدة منك حتى تخبرني أن كل شيء انتهى.

فمنذ أن أخبرني جون -بعد عمليتي التي أجريتها وأنت بجانبي واستفقت منها وأنت غير موجود- بأمر المنزل الذي استأجرته وأنك لن تعود إلا بعد إنهاء عملك وقد شعرت أن الأمر يشوبه خطأ ما، مرت ليلة وثانية والثالثة كان صاحب البيت قد طردني ولم أعرف كي أصل لجون حتى.

ومن يومها وأنا وابنتك نسير في الطرقات، مع ذلك أنتظرك، لن أرحل عن روسيا ليس لأني لا أملك عائلة أو منزل ينتظرني ولا لأن ابنتك ستعاني في بلد عربي من اسم لم يُنسب لك بعد، ولا لأني إن عدت فلن أجد إلا ما هربت منه لكني هنا ولن أرحل حتى تأتي، سأنتظرك ليلًا نهارًا علك تعود ومعك تفسير أو من دون تفسير انتظرك دومًا .

وثبت بقوة تحتضنها:

- أرى أنكِ قد عدت مبكرًا هل أنتِ بخير؟

- بخير لا تقلقي لكن مستر روك أذن لي بالمغادرة مبكرًا قليلا اليوم.

صاحت بقوة:

- مرحى سنلعب معًا.

- حسنًا لكن سأغتسل سريعًا وآخذ قيلولة صغيرة إنني متعبة جدًّا.

****

- قد أخبرتني من قبل أن الذكاء لا علاقة له بالتحصيل الدراسي أليس كذلك؟

- بلى.

- "اليوم وأنا استمع للراديو تناولوا هذا الحوار، كان شيقًا وممتعًا جدًّا قد ذكروا أسماء ضخمة وقد سمعت أن أجاثا كريستي هي أكثر كاتب بريطاني يقرأ له الذي يليها شكسبير وتعد من أعظم المؤلفين في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها، وطبع لها من الكتب ما يقارب ألفي مليون نسخة وبالرغم من أنها لم تذهب للمدرسة قط بل تلقت فقط تعليمها في المنزل على يد والدتها فقط وأنها كانت تواجه صعوبات في فهمها لقواعد اللغة وتهجي الحروف فاقترحت والدتها أن تقوم بكتابة قصة قصيرة لزيادة تقدمها ولتمضي الوقت الذي كانت به مريضة فلا تشعر بطوله ومن هنا بدأت رحلتها بأول رواية لها وهي "ثلوج على الصحراء" التي رفضها جميع الناشرين والتي لم تكن قد حظيت أصلًا بإعجاب كريستي ولم تنشر هذه الرواية قط، ثم قامت بكتابة رواية بوليسية تحت مسمى "القضية الغامضة" في ستايلز التي رفضها ستة ناشرون، لكن في المرة السابعة قُبلت الرواية التي أدخلتها بعد إلى عالم الكتّاب والكتب لتصبح أشهر روائية بوليسية على مر التاريخ.

كما تناول المقال أيضًا "الأخوان رايت" اللذين اخترعا أول طائرة ناجحة وقاما بأول رحلة في العالم التي حلقت بها طائرتهما على ارتفاع ٣٧م وبقيت في الجو لمدة ١٢ثانية.

والعجب أن "الأخوان رايت" لم يكملا تعليمهما وأنهما تركا التعليم حين وصلا المرحلة الثانوية لكنهما كانا مولعين بالميكانيكا منذ صغرهما واستمرا في إجراء التجارب حتى أكملا بناء الطائرة ومحركها الذي يعمل بالبترول إلى أن استطاعا إبرام عقد مع وزارة الحربية الأمريكية لتصنيع أول طائرة حربية، هكذا شقا طريقهما نحو العالمية.

ومنهم الكثير الذين لم يكملوا تعليمهم وأخذوا طريق الناجحين كأمثال توماس أديسون وأدولف هتلر والأديب جابرييل غارسيا ماركيز وشونغ جو يونغ الفقير المعدم الذي استطاع أن يؤسس واحدة من أكبر شركات السيارات في العالم".

كانت وعد تُنصت بفرحة وإعجاب لحديث طفلتها لترد بعدما أبهرتها بكم المعلومات التي سردتها:

- إن انقطاع الدراسة يا ديم لا يعني انقطاع التعلم، إن التعلم لا يمكن أن ينحصر بين جلدتي كتاب أو في حضور مدرسة بانتظام أو الإنصات إلى العلماء نعم إن كل هذه الأنشطة تجعل منك إنسانًا متعلمًا لكن لا تجعلك ناجحًا وأنا لا أُغيب دور المدرسة أو المعلمين أو الكتب إلا أن فكرة التعلم نابعة منا نحن من داخلنا، يمكننا التعلم ونحن جالسون فوق سفح جبل أو ونحن نتأمل مسير النمل وهو يعمل ويكدح أو يمكننا التعلم ونحن نستمع لثرثرة الآخرين غير المجدية التي تعطينا انطباعًا عن فكر كل واحد منهم وكل ما يشغل بال الآخر ونظرته للأمور التي تمكننا من الإمساك بزمام الأمور حين نناقشه في موضوع بعد ذلك، طالما أنت حي يمكنك التعلم . ليس هناك قيود تمنعنا من التعلم أو تفرضها علينا هكذا هي الحياة تعلم دون أن تخطو خطوة على قواعد كيفية التعلم.

مثلًا إن أردت أن تكون حياتك سعيدة فليس عليك الذهاب إلى أقرب مكتبة واقتناء كتاب كيف أصبح سعيدًا صدقيني إنك ستكونين أهدرت مالك ووقتك أيضا، إن السعادة لا تؤخذ من أفواه البشر، لا أحد مهما بلغ من الحكمة يستطيع أن يخبرك كيف تقتنينها، السعادة تصنع من ذواتنا، كل ما عليك إن أردت السعادة أن تذهبي إلى أحد الأطفال فهم سيعلمونك كيف يمكنك أن تكوني سعيدة دون أدنى سبب.

أما لو أردت أن تصبح حكيمًا وتحل المشاكل بكل يسر وفطنة فليس عليك مجالسة الحكماء أربعة وعشرين ساعة وكبار السن واقتناء آلاف الكتب والمراجع، كل ما عليك هو الاحتكاك بالحياة بكل قوتك، عندها فقط سوف تكتسب خبرة مواقف كثيرة كنت قد تصرفت فيها بكل بلاهة لاحقا سيصبح لديك الكثير من الحلول غير الجدية لتبتعد عنها في أي مشكلة.

أخذت نفسًا عميقًا بصدر رحب وعقدت يديها قائلة:

- حسنًا إذًا حسمت قراري.

- جيد أرى أنك تحمستِ في بلوغ مرادك.

- لا، سأترك المدرسة.

****

أمي لا تعلم شيئًا عن معاناتي، أترين كيف صرخت في وجهي حين أخبرتها إني أود ترك المدرسة؟ ما الخطأ في ذلك؟

إن كثيرًا من عباقرة العالم تركوا المدرسة وأكملوا طريقهم بنفسهم ولنفسهم وهي الآن من أخبرتني أن انقطاع الدراسة لا يعني انقطاع التعلم، كيف لها إذًا أن تتراجع؟ لماذا لا تتركني أفعل ما أرتاح له؟

نعم أعلم أنها تحبني وتريد لي الأفضل لكنه ليس الأفضل بالنسبة لي

ما الأفضلية في هذا وأنا ليس لدي الآن أي شخص أتحدث معه في أي شيء؟

ما لأفضلية أن يلعب كل الأطفال في وقت الفراغ بينما أجلس وحيدة أنظر لهم؟

تجاهل المدرسين يؤلمنني أكثر، أعتقد أن كل جهدها الذي وضعت في أن تدخلني مدرسة جيدة ضاع هباءً وإن كانت المدرسة جيدة في مناهجها إلا أنها تتبع نظام الأفضلية بين الأطفال.

الأفضلية هنا للمراتب العليا، لذوي النفوذ، أي لا مكان لي بينهم.

كنت أعتقد أن زيًّا مدرسيًا جديدًا وشعرًا منسقًا وجوارب نظيفة وتركيز جيد واجتهاد كل هذا سوف يجعلني مرغوبة بينهم، لكن الأمر لم يكن لينطوي على تلك الأمور فقط.

هزت دُميتها بحزن

حتى أنت بيلا دومًا صامتة، ألا تودين المشاركة في بعض آرائك؟ أعلم أنك تنصتين لي جيدًا وأنا أحبك جدًّا، لكني أتمنى أن يشاركني أحدهم الحديث غير أمي، يشعرني أنني مرغوبة، يلعب معي، يسألني أي لون أفضل، نجري وراء بعض ونختبئ كما يفعل الأطفال في لعبة الغميضة، تعبت من الثرثرة وحدي فقط لو كنت صديقة حقيقية بدلًا من دمية!

أحضرت دُميتها ثانيةً بعدما رمتها جانبًا لتعتذر منها:

أتعلمين يا بيلا ربما لو كُنتِ بشرية لربما مللتِ من أحاديثي وأصابك الضجر ورحلتِ، أما كونك دمية فهذا يعني أن أحدهم سينصت لي دومًا وأبدًا،، أحبك بيلا.

****

(الفصل التاسع)

كل من يراها يرى أنثى متألقة، لا أحد منهم يعلم أن خط الكحل أسفل عينيها قد اقتبسته من رماد قلبها...

- أرى أنك تحبين ديكارت؛ تقرئين له كثيرًا.

- نعم، إني أصنفه من أروع ما أنجبت الفلسفة.

- أووه ولِمَ كل هذه الشعبية؟

- إن أطروحاته الفلسفيّة التي ما زالت تُدرّس في المدارس والجامعات حتى يومنا الحالي كانت سببًا في ظهور عدد كبير من الأطروحات الغربيّة الفلسفيّة الحديثة، وإن كتابه الشهير "تأملات في الفلسفة الأولى"، يُعد حتى عصرنا الحالي المرجع الأساسي لمعظم كليات الفلسفة في العالم، وبالإضافة للفلسفة والفيزياء فقد كان نابغةً في علم الرياضيات؛ حيث وضع نظامًا رياضيًّا جديدًا أطلق عليه اسم نظام الإحداثيات الديكارتيّة، كما يُعد المؤسس الأول للعقلانية في القرن السابع عشر، وهو صاحب العبارة الشهيرة " أنا أفكر؛ إذًا أنا موجود" إني أحببت الفلسفة به

- يبدو أننا متناقضان؛ أنا لا أقرأ لشخص لا يمشي على هدى أفكاره.

- كيف ذلك؟ ماذا تعني؟

- يعني هو أنكِ تتبنين أفكار شخص أبله لا يفقه شيئًا في صميم علمه، يقول الشيء ويفعل نقيضه، كيف لكِ أن تؤمني بأفكاره وهو حتى لا يسير على هديها، لذلك أراني لا أنتمي للفلسفة.

وضع قدمًا على قدم ينتظر ردًّا من ندى وهي تتصفح عناوين الكتب على الأرفف:

- إنك تنكر علمًا أقره علماء كبار أمثال أفلاطون جون لوك وسقراط وديكارت، إنك مهزوم، فأنا حين أتخذ من أفلاطون أو نيتشيه أو روسو نافذة لأطل منها على الفلسفة لا أتخذهم قدوة بشخصيتهم وحياتهم الخاصة؛ إني أتبنى أفكارًا لا نهج حياة.

وضع كوب قهوته بعدما تناول آخر رشفة منه:

- "لا مشكلة لدي بأن أرفض ما لا يمكنني قبوله وإن كنت أؤمن به أن الفلسفة موجودة لكن صياغتهم إياها وتطبيقها أفسدت الأمر. فهناك قضية أساسية ومهمة لدينا نحن العرب، وهي أننا لدينا صورة جد إيجابية ومشرقة عن الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين، خاصة المشهورين منهم. فنحن لا نعرف شيئا عن حياتهم الشخصية، ولا نهتم بها، ولذلك ننظر إليهم كقديسين. وقد ترسخ لدينا أنه لا ينبغي التدخل في الأمور الشخصية وأن نناقش الأفكار لا الأشخاص" لنختم النقاش ب "إنها حياته الشخصية"، قد قرأت كثيرًا لهم وبحثت في ثنايا حياتهم فأدركت الأمر جيدًا، دعيني أخبرك بما لم يخبرونا به يا من بدأتِ الفلسفة باسم أفلاطون.

ذكر أفلاطون أن الفضيلة في بعض جوانبها هي التشبه بالآلهة فهو هنا قد وقع ضحية لما تعارف عليه قومه من أن بعض الآلهة قد كان شاذا. وبالتالي فهو عندما يمتدح حياة الشواذ الذين يتشبهون بآلهتهم تلك، فهو يخطئ هنا عندما يعتقد بأنه وبعمله هذا يتماهى مع الآلهة ويسمو إليها وإلى حيث هي في عالم المثل، ويترفع عن العالم الحسي الذي يراه مزيفًا ومنبعًا لكل الشرور.

وهو في تقربه هذا من الآلهة يبتعد عن حياة العامة التي هي حياة في أنفس ميتة. لأن حياة العامة هي موت الفلاسفة، وموت الفلاسفة هي حياة العامة كما يقال. وانطلاقًا من هذا فإننا نرفض عمل من يقدم أفلاطون على أنه شاذ جنسيًّا فقط، ومن دون أن يقدم لنا حقيقة هذا الشذوذ وإطاره الخاص والعام ثم لا يبين المعنى الحقيقي لعشق أفلاطون للولدين. ويقوم بعمليات بتر للحقيقة لكي يقدمها لأجل الوصول إلى غاية واحدة تتمثل في خدمة أهدافه. وهو هنا يخون أفلاطون ويكذب عليه ويُــقوله ما لم يقلْ، وهو بهذا يريد استغباء الغير واحتقارهم والتعامل معهم على أنهم جملة مغفلين وتافهين ورعاع ومن يفعل هذا أي مصداقية بقيت له كي أتبناها. كما أنه اتخذ موقفًا معاديًا من المرأة والتي هي من درجة العبيد والمخبولين والحيوانات، والنباتات عنده. وهذا ما جعله ينفر من الأنوثة لصالح الرجولة التي يتحيز لها. وهي مبررات تبدو عارا على من يريد الاحتكام لها، ولذلك فكل ما بني عليها اليوم فهو باطل.

وهذه الثقافة المعادية للحب الأنثوي لم تكن وليدة فترة أفلاطون بل نجدها عند مَن قبله مِن المفكرين مثل بوزيناس الرحالة والجغرافي الإغريقي الشهير وأرسطو أيضًا، حيث كانا يعاديان الحب المغاير لصالح الحب الشاذ أي حب الرجل للرجل، فكيف لشخص شاذ جنسيا، حيواني مثل هذا أن يعلمني شيئا ينفعني.

أما ديل كارنيجي مؤلف (دع القلق وابدأ حياتك) كيف له أن يقنعني بحلاوة الحياة وإبعاد القلق عن رأسي وقد مات منتحرًا.

أما جان جاك روسو من أقر أن من لا يستطيع أن يقوم بواجب الأبوة، لا يحق له أن يتزوج وينجب أبناء". هذه إحدى مقولات رائد عصر التنوير الفرنسي المفكر وصاحب أهم مؤلفات ما يعرف بعصر العقل في أوروبا من قبيل كتابه (العقد الاجتماعي) وكتابه الأهم (الاعترافات) الذي أسس لتيار كامل في الأدب والحياة الاجتماعية.

روسو كتب كذلك رواية بعنوان: (إميل) تحدث فيها عن تربية الأطفال، رافضًا الأسلوب الذي يعتمد على الحفظ ويشجع الآباء على تثقيف أولادهم إلا أن هذه الرواية قوبلت بالرفض في عصرها، رغم أهميتها في الأدب العالمي الآن، حيث قال البعض كيف يكتب للأطفال من رمى أولاده في الملجأ؟! هذا بالإضافة لترك زوجته وهجرها من غير سبب.

كيف لي أن أصدق كتابًا كتبه شخص يدعو للأخلاق والتربية وهو يقيم مئات العلاقات المتعددة لأنه يرفض التقيد؟

من لا يستطيع أن يقوم بواجب الأبوة، لا يحق له أن يتزوج وينجب أبناء .

برأيي: الكاتب الذي لا يمثل كتابه لا يستحق القراءة بنظري! ".

ابتسمتْ ندى ابتسامة خفيفة حين شعرتْ أن المناقشة بدأت تثور:

- إنك هكذا تنثر نجاحًا كاملًا لأجل زلة في حياة أحدهم كما قال دوستويفسكي: " الإنسان كائن حيّ يسير على قدمين، ناكرٌ للجميل..."

رد مباشرة:

- إذا كان دوستويفسكي قال هذا، فإن نيتشه قال ما الإنسان إلا كائنٌ ينبغي التفوّق عليه... "

- أنتَ صعب المراس حقًّا.

- أنتِ من ترفضين الحقيقة.

- أنا لا أرفضها؛ إني مقتنعة بفكرك لكن أنا آخذ منه ما أحب وأتجاهل الباقي

جاء صوت ليس ببعيد يصيح بهما بضحكة متقطعة:

- أيها الثنائي المتناقض ألم تنتهيا من تحاوركما بعد؟ أقسم إن تابعتما جملتين أيضًا سيخرج أفلاطون وديكارت ليفضا الحوار.

ردت ندى وقد تناولت كتابًا بيديها:

- حسنا عم حسن قد انتصر يزن عليّ هذه المرة.

- إلى اللقاء.

خرجا من المكتبة وهما يضحكان مع عم حسن ومع كلّ منهما كتاب جديد:

- أتمانعين لو أوصلتكِ؟

- شكرًا لذوقك يزن لا عليك تعلمت المشي البارحة.

- لربما تحتاجين إذًا مرافقًا إثر تعثر أو ما شابه.

- إذًا سيترتب عليك شراء حلوى.

- بالفانيليا إذًا.

****

دخلتْ قائلة بمرح طفولي:

- مرحبًا عم طوني كيف الأخبار اليوم؟

- يوم رائع ولا أجمل.

- ألن تكف عن تفاؤلك المفرط هذا، أنت الشخص الوحيد الذي لم أره يومًا يندب ما السر ها؟ ألن تبوح لي؟

ضرب بعصاه ضاحكًا بنصر ليقولَ

- أنتِ من قلتِ إنه سر، والسر لا يباح به، غلبتك.

- لا تزعجني.

- "أحيانًا علينا ألا نفكر، نترك الأمور تسير كما هي يا ندى، وأنا لا أقصد أن نسير مع التيار تاركينه يسوق حياتنا فتغدو جحيمًا؛ إني أقصد الرضا والقناعة بما لدينا والتوقف عن الالتفات لما رحل، فكري بما لديك الآن - في الحاضر - فهو من سيغدو بعد ذلك مستقبلًا مبهرًا ومن سيكون ماضيًا جميلًا...

لو ابتعدنا قليلًا ونظرنا إلى الخرفان، الأرانب، الدجاج، والعصافير إنها لا تكف عن التكاثر والغناء، هي بطبيعتها تمتلك فطرة الخوف من الموت والخوف من السكين والثعالب والصيادين.. لكن هل رأيت خاروفًا لا يأكل لأنه خائف من أن يُذبح، ودجاجة لا تبيض لأنها تشهد الفلاح كل يوم يسرق بيضها، وعصفورًا لا يطير لأنه يدرك أن الصياد موجود، بالطبع لا، كلهم موقنون طبيعة الأمور وإنه يتوجب علينا المواصلة إلى النهاية وبكل ما تتكلفه روحنا... إن مستقبلك وماضيك لا يتوقفان إلا على حاضرك أنتِ فاجعليه مبهرًا حد الإمكان ...

كفي عن وضع القرفة بكل أمور الحياة نحن لسنا في مطبخ حلويات استعملي قليلًا من البهارات واجعليها مبهرة.

طفتْ على وجهها ابتسامة:

- ألن تكف عن السخرية؟ قد كبرت وشخت يا رجل ينبغي لك الرزانة، أتشرب قهوة؟

- وإن كنتِ تسمين حساء الماء الساخن من البن المُختر الذي تصنعينه قهوة فلا أمانع.

ردت وهي تبتعد عنه لتتابع عملها:

- حسنًا لا أحد يقدر مواهبي هنا، لكن لا بأس سأحضر كوبًا لك أيها العجوز المسن.

رفع من صوته كي يصلها:

- ألن تخبريني مَن ذاك الشاب الذي أوصلك إلى هنا؟

اقتربت منه وهي تضحك بدهشة:

- كيف تمكنت من رؤيته يا عجوز؟ هل تملك عينًا سحرية تحت قبعتك؟

- هل أخبرك أحدهم أنني فقدت السمع مع عيني يا بلهاء، أم أنكِ مَن فقد عقله وبدأتِ بمحادثة الأشباح؟

- حسنًا إنه يزن، صديق من المكتبة تعرفت عليه لا أكثر، يسكن بالقرب من هنا وتمشينا معًا.

قالت وهي تضع كوب القهوة بجانبه:

- عم طوني أنتَ لم تحكِ لي عن زوجتك بتاتًا.

صمت قليلًا وتنهد قائلًا:

- "بعض الحكايا لا نخبر بها أحدًا؛ نجعلها تحيا بنا، لكن لا بأس أحضري القهوة وتعالي.

كانت أفضل حكاية عشتها، كانت من نوع آخر، مقطوعة كلاسيكية قديمة تعزف نفسها بنفسها، قادرة على ترميم روحك كلما أهلكك القدر، أعطت

لحياتي لونًا آخر وملأت عليّ حياتي، وحينما ذهبتْ أخذتْ جزءًا كبيرًا مني معها، كان رحيلها في البداية جحيمًا، أصبحت الحياة بلا طعم، بلا لون، بلا موسيقى، بعد الفراق أصبح كلُّ شيءٍ بطيئًا، كانت دومًا تكرر على مسمعي: هل ستتركني؟ فأبادرها: أبدًا، فلما ضمنت بقائي أخذها القدر مني غفوة، وكأن الحياة تسارع بسحب أقوى ورقة بأيدينا لتعلمنا كيف نخيط بأوهن خيوط نملكها حياة جديدة.

حين كانت على حافة الحياة لم تكن تئن، ولم تكن تبكي كانت تنظر إلي فقط وتبتسم، لم تكن ابتسامتها تقليدية؛ كانت تحمل كمًّا من الأحاسيس، كانت شِفاهها تعزف أعمق مقطوعة وداع، تربت على قلبك بهدوء العجائز، وشغف الأطفال، وحنان الأمومة، كقصة يخلدها القلب في معركة البقاء، ربما رحلت الآن لكنها تسكن بداخلي في الموسيقى، في القهوة، في القمر، هي دومًا تنظر إلي من أجمل الأشياء لقلبي.

علمتها معنى الحب فعلمتني كيف أخلقه وذهبت".

- لهذه الدرجة تفتقدها

- لو كان بإمكاني احتضانها مرة أخيرة فقط.

****

الحقيقة الحتمية والفلسفة المجهولة من غير قوانين ولا قياس لا واسطة ولا رشوة لا رأفة، فقط رحلة واحدة بمفردنا لا نملك تذكرة عودة ولا محطة استراحة ولا تواصل عن بعد، حتمًا إنها النهاية الحتمية.

ليس المرعب في الموت هو الرحيل المحتم وإنما الغصة التي تبقي ندبًا أبديًّا في قلوبنا اسمها الفراق، ولا أعتقد أنه من علمٍ حديث أو طب متقدم سينجح في إخفاء مثل هذا الجرح وإن خففه.

في النهاية فإنها الحياة، من منا يأخذ منها كل ما يريد؟! علينا التنازل وتظل "لو "،،، عزاء نقدمه لأنفسنا جراءً لما فقدناه دون عودة.

لو لم يرحل، لو لم يذهب، لو لم ألقَه، لو لم يكن...

قطع استرسال أفكارها الهائمة بمذكراتها اليومية وصول رسالة من أحدهم:

- مرحبًا، كيف حالك؟ أتمنى أني لم أزعجك اليوم بإيصالك للعمل.

- لا أبدًا.

- هل أنهيتِ الكتب التي اقترحتها عليكِ؟

- أنا في آخر كتاب، أسلوب الكاتب جيد، لكن لا أعتقد أنه أسلوبك المفضل في القراءة.

- في الواقع نعم، إني أفضل الأدب القديم لأمثال ميخائيل بولفاكوف ودوستويفسكي وليو تولستي وبافلوفيتش تشيخوف، إني أحب الأدب الروسي فالمؤلف الروسي لا يرائي ولا يخدع القارئ في تصوير أبطال القصة. فإذا أراد تولستوي مثلا أن يصف امرأة جميلة لم يمنعه هذا الوصف أن يقول إن أنفها كان كبيرًا. وإذا أراد دوستويفسكي أن يصف مجرما خبيثًا لم يمنعه هذا الوصف عن القول بإن قلبه قد تفطّر عند رؤية فتاة منكوبة . أضف إلى هذا أن القصة لهذه السذاجة أيضًا لا تحتوي على شيء مما قد آلفه قراء القصص الغربية من

وجود عقدة أو مسألة هي عمود القصة، يأخذ المؤلف في كشف استارها واحد بعد آخر حتى يصل إلى النهاية. أما ميسو فإنه رأي آخر سأخبرك به حين تنتهي منه.

- أنت غريب!

- وماذا تعنين بغريب؟

- لا أعلم ربما غامضًا تقريبًا أنا بالكاد أعرف اسمك وأنك ترتاد المكتبة كثيرًا وأنك تعمل بالصحافة لا أكثر.

- وهل هذه المعلومات ليست كافية برأيك؟

- لا لم أقصد ذلك.

- ماذا تحبين أن تعرفي إذًا وسأخبرك؟ ولكن أنهي الكتب التي تقرئينها.

- يا لا العجب ما القصة؟ هل يوجد سر بها أم أنك دفنت كنز علي بابا بها؟

- أخشى أن أُفضي بما داخلي هباءً.

- رغم أنني لا أفهم شيئا إلا أنني سأفعل، تصبح على الخير.

أنهيت المحادثة معه وعدتُ للكتابة مجددًا

ما قصة الكتب تلك لا أفهم ما الذي يرمي له هل ترك لي رسالة ربما في إحداها؟ لا لم أجد شيئًا بين الورق، أنهيت آخر رواية لم تكن غريبة هي عادية بالنسبة لي.

اختار لي أولًا رواية اللحظة الراهنة مارًّا بأغلب كتب ميسو إلى آخر رواية، لم يكن هناك شيء غير عادي فأرسلت له:

- لقد أنهيتها جميعها، بدأت (باللحظة الراهنة) ثم (غدًا) ثم (وبعد) ثم (غدًا أجمل)

فقال لي: حسنًا أنا أقرأ الآن لغيوم ميسو رواية "لأنني أحبك" فضميها للمجموعة كعناوين.

اللحظة الراهنة

غدًا

وبعد

غدًا أجمل

لأنني أحبك

وصلتني رسالة

- أنتظر إجابة

رددت أخيرًا بعد تورد وجهي:

- لِمَ لا تقرأ (ولنا في الحلال لقاء)؟

****

ربما لم أشعر هكذا يوم، يا إلهي أنا لا أعلم ما الذي جرى؟ هل عليّ أن أطير؟ أصرخ ما هذا الكم من الجنون في داخلي أقسم أنني لو نظرت بداخلي لأرى أمعائي ومعدتي ترقص على موسيقى قلبي الطائش، إنني سعيدة جدًّا، لا بل أكثر، ما هو التعبير المناسب لذلك؟

أوه لا أعلم كل ما أرغب به أن أقفز عاليًا جدًّا منذ زمن لم يضحك قلبي هكذا، أعتقد أنها المرة الأولى التي تُقام حفلة كهذه داخلي تهز مشاعري وتقلبها رأسًا على عقب، يمكنني أن أدعوه بكل تبجيل: "فخامة الحب".

****

تمر الأيام سريعًا، كنت قد رأيت شيئًا من الوله في عينيه، شيئًا من الجنون، شيئًا من تلك السعادة التي تهبط في أعيننا تاركة ربكة في سلسلة حديثنا، لكني لم أكن قد أذعنت أنها حب إلا بعد الاعتراف.

مرت الأيام علينا سريعًا أو بإمكاني قول إننا مررنا بالأيام سريعًا، جميل هو الحب الذي لا تنتظره ولا نُحضر له ولا نرسمه في مخيلتنا حتى، فقط يفاجئك بكل قوته.

فقد أصبحت الأيام أخف ثقلًا، لا أعلم أين هو السر؟ ربما هو شعور أن هناك شخصًا واحدًا في كل هذا العالم الكبير يهتم لأمرك، يتفقدك ويبحث عنك ليخبرك كم يحبك، هكذا كان يزن أجمل هدية حملها القدر على هيئة حب.

كلنا نملك نظرة عن الحب، وكلنا نعرف تلك المفردة، كلنا نحمل منها انطباعًا، لكن فقط حين نعيشها تذهب كل تلك الأشياء ويحل محلها ملامح شخص واحد تغنينا عن كل الشرح، إنها مسألة خارج النقاش لا تحتمل أدلة ولا قوانين ولا شرحًا، إنها اللعنة.

ففي الحب فقط يصبح القمر أكبر، والمطر تعبيرًا للرومانسية بدلًا من البرد وتغدو الغيوم وراء الشمس جذابة للتأمل أكثر، نرسم أفضل ونكتب أفضل ونرقص أفضل، حتى مفردة واحدة تسمى أحبك تغدو قاموسًا من المشاعر وأفضل حل لِكمٍّ هائل من المشاكل.

إنها تعويذة الحب يا سادة

من قال إن التنويم دجل فها أنا أعيشه.

مذكراتي العزيزة...

يأتينا الحب غالبًا من حيث لا ندري من شخص لم نكن نظن في يوم من الأيام بأننا سنحبه أو حتى سنحب مثله، قد يأتينا في وقت لا نتوقعه أو من دون أن نعرف متى بدأ أصلًا ولِمَ بدأ وكيف بدأ، قد يأتينا بسبب لم يخطر لنا من قبل.

قصة حاكتها نوتة موسيقية عزفتها مشاعرنا في لحظة انقباضة قلب تتأرجح على سقف الواقع يكون صوتها ضحكتنا.

حين يأتينا الحب ويخترق أبوابنا من غير استئذان فنجلس صامتين لا نتكلم لا نرفض ولا نقبل.

مع وسط زحام حُب من كثيرين لقلبٍ أبى حتى الالتفات لمئات القلوب التي تتلهف لالتفاتة أو نظرة عابرة، ثم يخضع خضوعًا تامًا لآخر.

هنا لا بد لي أن أسال: كيف أتاني الحب؟ أو ربما كيف ذهبت إليه أنا هذه المرة؟

للأسف لا يوجد قانون يحمي اختراق قلوبنا. لذلك عليك دومًا أن تضع في الحسبان أن يداهمك الحب فجأة.

****

أمسكتْ بسماعة الهاتف بعد أن أصابها الضجر من كثرة الانتظار، ليجيب الطرف الآخر أخيرا فُتجيب بسرعة:

- البيت هادئ من غير أحاديثكم، متى سوف تعود؟ قد اشتقت إليكم، قد أخبرتني أن غيابك لن يطول أكثر من أيام، أتكذب علي؟!!

- تعلمين يا ندى أن العائلة هنا لم تتجمع منذ سنوات وحفل الزفاف خلال هذه الأيام أعتقد أننا لن نعود قبل شهر.

- قبل شهر أنت تمزح صحيح؟

- هيا ندى لست صغيرة كما أنني أحضرت لك كثيرًا من الهدايا ستعجبكِ.

- لا بأس أوصل لهم سلامي جميعًا سأحادثك غدًا إنني بحاجة للنوم وداعًا ...

أغلقتُ الهاتف وارتميت على وسادتي:

هل يمزح معي ألم يفكر أني هنا بمفردي بينما هم يلهون كما يحلو لهم تبًا للعائلة

بعض التداوي يكون حبًّا لذلك ما وجدت أمامي غير يزن الذي بادر قبلي بالاتصال للاطمئنان:

- مرحبًا لِصتي الصغيرة.

- لصة! وماذا سرقت منك؟

- ما الذي تركتِه بي؟ عليكِ أن تقولي إن كُلي بداخلكِ.

- كفاك عبثًا يا قيس المجنون.

- لست "قيس" يمكنك دعوتي بالقاضي الذي أصدر قرارًا بمحاكمة حبك بالسجن المؤبد في قلبي.

- امم حسنًا أيها القاضي لكن الحب شاب مجنون لا تخضع أفعاله لحكم القانون.

- اصمتي قليلًا واسمعي ما أسمعه.

- ماذا؟

- قلبي ينطق أحبك.

- إذًا فاعترف دومًا ب أحبك فالاعتراف سيد الأدلة عزيزي.

****

في كل مرة تتخذ الطريق نفسه أملًا أن تلقاه وها هو هناك، تقترب منه بحنان قائلة بنبرة مُطمئنة:

- كيف حالك اليوم؟

- ولِمَ عليّ إخبارك هل تهتمين؟

- نعم.

- أنا لا...

- حسنًا أخبرني ماذا تفعل؟

- أمارس لعبة لماذا.

- وما هي هذه اللعبة؟

- لعبة نُجيب بها على أسئلة نعتقد أننا نعرف إجابتها لكننا لسنا كذلك، مثلًا كنتُ أسأل نفسي لماذا يأكل الإنسان؟

فسارعت ندى بضحكة طفولية:

- لكي يستمر بالحياة يا يحيى.

رد مستهزئًا بضحكة أعلى:

- خطأ.

صمت قليلًا وقال سأعطيك سؤالًا آخر.

- إن كُنتِ تُصلين لماذا تُصلين؟

****

قالت ريم بحنق:

- ندى هل أنت جادة حقًّا إذًا كل هذا العمق كان بسبب كلمات خرفة من مجنون لا يعي شيئًا.

- ربما كان مجنونًا لكنه يعي أكثر مما كنت أعي أنا.

- "لم أعد أفهمك حقًّا أصبحتِ لا تطاقين حقًّا، يومًا تتعرفين على مجنون وتتحدثين معه وقبلت الأمر ثم تذهبين للشارع الذي يعتاد عليه خصوصًا لِتُحيّيه ولا أعطي بالًا، أما أن يجعلك بهذه الحالة فلن أصمت.

نحن نمر منذ الصباح في المكتبات لكتاب يجيب عن سؤال نعرف إجابته، وكم من شيخ قام بالإجابة على سؤالك وأنت لا تعطين بالًا، أخبريني ماذا حل بك هل جننت؟

ردّت بامتعاض:

- لا أعلم، لا أعلم، لكنه لم يكن سؤالًا عاديًا، كان له وقع أثر في داخلي وكأنني أنتظر إجابة أخرى لا أعلم ما هي ولكن أؤمن أنها موجودة من أجلي.

- إنك جننت حقًّا وإن أردت إكمال مسيرة البحث فأنا تعبت؛ إن غيرت رأيكِ وأردت اللحاق بي ستجديني في المطعم المقابل إني جائعة، وداعًا.

تركتني ريم ورحلت. حتى أنا تعبت من البحث ولكن لا أعتقد أن كل هذه الإجابات التي حصلت عليها هي ما أبحث عنه.

لكن أين أجدها

سحبتْ كرسيًّا وارتمت بتنهد وهي تمسح جبينها المتعرق:

- أرى أنكِ عدت، هل مللت من البحث عن ما لا تعرفين كيف تجدينه؟

- لا، إنني تعبت لا أكثر كما أنني جائعة لم آكل منذ البارحة.

- أخبرتك أنك ستخسرين الكثير من الجرامات حين يطرق الحب بابك.

- لا تكوني ظريفة ليست تلك المشكلة.

ردت ريم وهي تُحاول إثارتها أكثر:

- أحيانًا أعتقد أنني أصطحب كومة من المشاكل معي.

- هكذا هو الأمر إذًا، قد أخطأت حينما طلبت منك الإتيان معي.

- هيا يا غبية تعلمين أنني أمزح.

- بالطبع أعلم، أنوي إشعارك بالخزي كي تدفعي أنت الحساب إنني مفلسة.

- إنه المعتاد.

- دعيني من هذا هيا وقولي كيف تسير الأمور مع يزن.

- عن ماذا بالتحديد؟

- لا تتغابي ندى، كيف تشعرين معه هل الحب رائع؟

ردت بضحكة عالية:

- وكأنك لم تجربيه، تسع حالات ارتباط ولا تعلمين كيف يكون الحب؟

أرجعت ريم شعرها بحركة سريعة:

- تسع حالات ارتباط ولم أشعر تجاه أحدهم بأي شيء كلهم أحبوني لكن لم يستطع أحد دخول قلبي، لم أشعر باللهفة لأحدهم، لم تتملكني الغيرة التي يتحدثون عنها، ولا دقات القلب المتسارعة، لم أصب بربكة في الكلام حين يظهر أمامي فجأة كما تزعمون، لم أتصرف بغباء معه، ولم يزعجني غيابهم، أين إذًا الحب في هذا؟

- وما المشكلة في هذا؟ ألستِ من أزعم أنكِ مؤيدة لكلمات جدتكِ: تزوجي من يحبك ولا تتزوجي من تحبين؟ وأرى أنه في كونك المسيطرة في العلاقة يُتيح لكِ التنازل عنها متى شئتِ دون أدنى مشاعر تعتريها الحنين.

- أرى يا ندى أنكِ تعترفين أن الضعف في العلاقة الذي تكونين به خاضعة لقوانينه، تبادرين بالأسف وتشتعلين نارًا حين يحادث أحدًا غيرك، ويتلهف قلبك وتصبحين كالمجنونة إن غاب عنكِ، هو مجرد أمر يمكنني أن أضعه في قائمة سلبيات العلاقة.

ردت ندى بعدما طلبت شريحتيّ لحم مدخن وكأسيّ عصير.

- ليس تمامًا لكني لا أحب شعور الضعف بالعلاقة والاحتياج للطرف الآخر.

- "لكنها ليست مسألة اختيار ودعيني أُصحح لك مصطلح الضعف هنا، إن خوف طرف من الطرفين على العلاقة ومبادرته بالتأسف حتى لو لم يكن مخطئًا لا يمكنك تسميته بالضعف، الغيرة ليست ضعفًا، اللهفة، الاشتياق، الخوف، هذه كتلة مشاعر لا ينضج الحب من دونها بأي حق تطلقين عليها ضعف؟

كيف تريدينني أن أدخل في علاقة لست متمسكة بها ومستعدة لإفلات يدي في اللحظة التي تفقد يده قوتها؟

ربما كنت أردد مقولة أن أكون مع من يحبني لكني أدركت جيدًا خطأها لا يمكنني فرض ملامح حب مزيفة على وجهي، لا يمكنني إجبار قلبي على تمثيل مشاعر لا يتقنها، إن الحب أكبر من نظرة بين اثنين، أكبر من حفل يفرضه الأهل على ضحيتين لتبادل التهاني، أكبر من خاتم يتوسط إصبع يكاد يختنق من ثقله.

إنها رابطة روحانية في قلبين كلما أُنهك أحدهما بادر الآخر ببذل الضعف للمحافظة على قوة الرابطة فتزداد متانة ضد العقبات، لا أعتقد أنهم اخترعوا منتجًا تجميليًّا يجعلك تتوهجين جمالًا أفضل من الحب.

****

أمسكتْ هاتفها بشغف قافزة عاليًا حين رأت الرسالة:

- كلهم جنح إلا أنت جناية. أحبك، أما بعد مساء الخير أين أنت منذ الصباح؟

ردّت بشغف:

- أهلًا بالعاشق الولهان.

- دومًا تصرين على السخرية، كيف حالك؟

- هل هذا من باب الفضول أم العادة؟

- من باب الحب.

- "لماذا نحب؟ جميل ومُسكر، محزن ومُحطم للنفس.

وفي معظم الأحيان كل ذلك في نفس الوقت، فلماذا نُحب؟ !

لماذا نختار أن نُعرّض أنفسنا لذلك الإخفاق العاطفي للحب؟

هل يمنح الحب حياتنا معنى؟

أم إنه هروبٌ من وحدتنا؟

هل الحب قناع يخفي رغباتنا الجنسية؟

أم إنه خدعة بيولوجية تدفعنا إلى التكاثر؟

هل هو كل ما نحتاج إليه؟

وهل تحتاجه الأخلاق؟

كلها أسئلة تدور في عقلي لطالما رددها الفلاسفة والبيولوجيون والمجانين والعشاق ولطالما لم أجد له إجابة تشبع تساؤلي".

ردّ أخيرًا بعدما استغرق فترة طويلة في الكتابة.

- "ربما لا أملك إجابة كافية ربما لأن الحب ليس بالعلم المنهج الذي يخضع لنتائج محددة وقوانين واضحة لكن دعيني أسلسل لكِ أكثر أفكار الفلاسفة انتشارًا

أولًا- يجعلنا الحب مكتملين مرة أخرى.

إنه فيلسوف اليونان القديم أفلاطون الذي لا أتفق مع شخصيته لكن لا بأس من طرح الفكرة التي رآها حين وضع فكرة أننا نحب من أجل أن نصبح مكتملين، في كتابه المحاورات يحكي عن حفلة عشاء يقوم فيها أرسطو وهو كاتب مسرحي سافر بتسلية ضيوفه من خلال القصة التالية:

حيث كان البشر فيما مضى مخلوقات ذات أربع أذرع وأرجل ووجهين وذات يوم أغضبوا الآلهة فشطر زيوس كل واحد فيهم إلى اثنين، وفي ذلك الوقت فقد كل شخص نصفه أو نصفها الآخر.

فالحب هو التوق لإيجاد النصف الآخر الذي سيجعلنا نشعر بالاكتمال مرة أخرى أو على الأقل اعتقاد أفلاطون أن هذا ما قد يقوله كوميدي ثمل في حفلته

أما الألماني شوبنهاور حين قال: يخدعنا الحب حتى ننجب حيث أكد أرثر أن الحب يرتكز على الرغبة الجنسية وارتأى أننا نحب لأن رغباتنا تقودنا إلى الاعتقاد بأن هناك شخصًا سيجعلنا سعداء، ولكننا مخطئون بشدة، تخدعنا الطبيعة كي نتكاثر ويكتمل الاندماج الغرامي الذي نسعى إليه بولادة أطفالنا.

أما وفقًا للفيلسوف الإنجليزي راسل عرض أن الحب هروبٌ من وحدتنا حيث إنه وفقًا لبرتراند راسل فإننا نحب من أجل إرواء رغباتنا الجسدية والنفسية، فقد هيئ البشر للتكاثر ولكن من دون نشوة الحب العاطفي فإن الجنس يصبح غير مرضٍ.

والحب هو فتنة مضللة

فسيدهارتا غوتاما الذي أصبح معروفًا ب بوذا أو المستنير اقترح أننا نحب لأننا نحاول أن نشبع رغباتنا الأساسية ومع ذلك فإن رغباتنا العاطفية الملحة تعد من نقائصنا، وأهوائنا حتى الحب الرومانسي يعد مصدرًا كبيرًا للمعاناة.

يتيح الحب لنا الوصول أبعد من أنفسنا

أما سيمون دي بوفوار اقترحت أن الحب هو الرغبة في الاندماج مع شخص آخر وإن ذلك ما يملأ حياتنا بالمعنى

وبالرغم من أنه لا يمكننا أن نعلم حقًّا ما هو سبب وقوعنا بالحب إلا أنه يمكننا التأكد من أنه سيكون دربًا من التقلبات العاطفية كركوب الإفغوانية إنه مخيف ومبهج يجعلنا نعاني وينطلق بنا عاليًا ربما نفقد أنفسنا وربما نجدها.

لكني قد قررت مسبقًا خوض التجربة معك

أبهرني تحليله فانتظرت قليلًا وأجبت:

- وأنا معك لكن هل ستخوض الحب بمكوناته الثلاثة؟

رد بسرعة:

- هل يمكنك الإيضاح؟

أخذت نفسًا وكتبت

- نظرية مثلث الحب للطبيب النفسي سترنبرغ والتي شرح فيها أن للحب مكونات ثلاثة وهي الحميمية والشغف والالتزام، وكل مكون من هذه المكونات ينتج شكلًا مختلفًا من الحب والحميمية أي مشاعر العاطفة المتعلقة بالدفء والارتباط إذا امتزجت مع الشغف المرتبط بالانجذاب الجسدي ينتج عنه ما نعرفه بالحب الرومانسي.

وإذا ما خلصنا الحميمية بالالتزام أي قرار الفرد الواعي بالبقاء مع الفرد الآخر طيلة الحياة متبعًا علاقة مستقرة لا تتخللها الشهوة فقط سنجد نوعًا آخر وهو....

استوقف كلامي فجأة برسالة:

- لا تكملي أني أنتظر هذا التصريح منذ وقت. وأخبري والديكِ أني آتي لزيارة رسمية وابدئي في تنظيف البيت أعلم أنكِ مهملة.

****

في الصباح ذهبت مبكرًا إلى عملها لترى يحيى لعله يملك إجابة فعلًا لما تود أن تعرفه...

*****

الفصل العاشر

البعض حين تخبرهم أنك متعب من كثرة الركض سيشرعون في بتر قدمك.

ديم هيا كفاك لهوًا لديك الكثير من الواجبات.

كفي عن الاختباء هيا.

ديم بدء صبري ينفد.

نظرت حولها حيث البيت كله ساكنًا يخلو من أي حركة

قالت بتساؤل: هل دخلتِ الحمام؟

نظرت حولها بقلق أكبر فلم تجدها، صرخت بحدة:

ديم أين أنتِ؟

نزلت مسرعة إلى الشارع ربما تلهو كعادتها مع الأطفال أو تبحث عن بعض الخردوات لتجمعها كألعاب هكذا بدأت تطمئن نفسها لكنها لم تكن لا هنا ولا هناك، سألت الأطفال فلم يجبها أحد، هرولت سريعًا لمنعطف الشارع لا تعلم أين تذهب وهي تنادي بأعلى صوتها، فلم تجبها سوى نظرات الناس المتعجبة بدأت تسأل مذعورة بأنفاس متقطعة ووجه أحمر مرتاع هل رآها أحد؟

بني، قميصها بني، بشرة، بشرة قمحية

ديم يا ديم

الكثير من النظرات حولها لكن دون عون

بدأت الدموع تنهمر حتى بدأت تجد صعوبة في الرؤية

أنفاسها تتسارع أكثر فأكثر، وحدها عيناها لا تكف عن الحوم في كل الاتجاهات.

بدأت تهرول يمينًا ويسارًا من غير جهة.

ثم وقفت لتلتقط أنفاسها المضطربة جالسة القرفصاء وهي تضع رأسها بين كفيها لتتوقف عيناها فجأة وهي مندهشة.

ركضت بسرعة وهي تُسدد لها صفعة على وجهها ثم أخذتها بضمة تحمل قلق الأمهات.

كان تناقضًا الذي فعلته، ولكن إن دلّ على شيء فهو الخوف.

صرخت بغريزة الأمومة:

- ماذا تفعلين هنا؟

صمتت وقالت:

- استمعي.

حدّقت بها بعدم فهم، ووجهها يتفجر غضبًا:

- نعم إنها موسيقى؟ ما الغريب في هذا؟ قلت لكِ ماذا تفعلين هنا؟ لمَ تغيبتِ كل هذا عن البيت من غير أن تعلميني هكذا؟ تعلمين جيدًا طبيعة الحياة هنا؛ سرقات وإرهاب وأناس مخيفة، هل تعلمين كيف كان ثقل الدقيقتين اللتين مرتا بي خوفًا عليكِ؟!

ردت بلهجة متسرعة:

- حسنًا، حسنًا، آسفة، استمعي فقط .....

نظرت إليها وعيناها تشتعلا نارًا:

- ماذا بكِ يا ديم؟ هل تسخرين من أمك؟!!!

برأس مطأطأ وبسمة تزينه:

- ليس كذلك، لكنها المرة الأولى التي أطير بها.

بتعجب صاحت:

- تطيرين؟!

- نعم إنها الموسيقى، اسمعي فقط وأنصتي لتلك المعجزة

****

كنتُ كلما فقدت ديم ذهبت إلى وسط المدينة، هو نفس المكان الذي تجلس فيه لساعات، تنهي واجباتها بعجلة فقط لتستعجل الوصول كل يوم نفس المكان، نفس اللمعة في عينيها، نفس السكون، أيقنت يومها شدة التعلق التي كانت في قلبها التي جعلتها حبيسة ذلك الصوت.

كانت تحيا مع الألحان

في عيد ميلادها الثامن قررت إحضار هدية بسيطة، لفت نظري شيء واحد؛ شيء واحد قادر على إحيائها دومًا، نظرت في محفظتي لا أعتقد أن ما أملكه يمكنه تسديد التكلفة لكن لا بأس من المحاولة.

دخلت المحل وطلبت ما وقعت عليه عيني وما كان يرقص له قلبها، كان جميلًا مبهرًا، لم يكن المبلغ الذي أملكه ليكفي ربع ثمنه فترددت، ألقيت نظرة أخرى عليه وأشحت بصري فتخيلتها وهي تفتح هديتها وتطير من الفرح حين تشاهدها، طلبت منه ما هو أقل تكلفة قليلًا لكن البائع قد لاحظ على وجهي الارتباك حين أخبرني بالسعر فقال كم من المال تملكين؟

كان يعرفني وعلم أنه هدية من أجل ديم واشتعل فرحًا عندما علم ما أنوي القيام به فمرارًا وتكرارًا قد شاهدها جالسة هناك لساعات طوال.

جعلته يغلف الهدية بشيء من البساطة الأنيقة وقد تعهدت له بدفع جزء من المبلغ كل أسبوع، كانت سعادتي ترتفع بي لترفرف في قلبي وتهبط فلم أكن سعيدة هكذا يومًا أعتقد أنني كنت سعيدة أضعافًا بقدر ما ستكون سعيدة بها .

لم يكن قد تبقى لدي المال لشراء طعام جديد، فقررت أن نتناول بعض الجبن مع الخبز الساخن.

دخلت الغرفة مسرعة وكُلِّي تأهب لمفاجأتها بهديتي، كان كُلِّي يرقص، لم أشأ أن أناديها، قررت مفاجأتها وحين دخلت كانت نائمة مستكينة، همست لها لكنها لم تجب.

أفلتُّ الهدية من يدي حين سمعت أنينها وقطرات العرق المتناثرة على وجهها، كان لهيب حرارتها يصل إليّ من أنفاسها، كانت حرارتها عالية جدًّا وتكاد لا تراني ولا تسمعني....

ماذا أفعل؟ بدأت أفقد صوابي حين رأيتها تهذي بكلام غير مفهوم.

ديم، ديم أفيقي هل تسمعينني.

خلعتُ عنها ثيابها وحملتها إلى حوض الاستحمام، فتحت المياه لكن لم ينزل أي ماء تبًّا لهم؛ قطعوا المياه مجددًا.

بدأت أنهار، وضعت عليها شيئًا من الثياب الخفيفة وحملتها مسرعة إلى أي مكان يساعدنا به أحد، تذكرت بأني قد أنفقت كل المال، لم يعد معي شيء لأستقل به الحافلة.

يا رب

حملتها ونزلت مسرعة أهيمُ على وجهي بغير وجهة وأنا أصطدم بكل ما يأتي حولي، حاولت إيقاف أي سيارة مارة لكن لم ينصت لي أحدهم، كانت عيناي لا تتوقف دمعًا حتى ما عدت أرى حتى خلت يدًا تربت على ظهري وصوتًا أكاد أعرفه يحدثني:

- وعد هذا أنت؟ أليس كذلك؟؟

****

قال مبتسمًا:

- حمدًا لله على سلامتها، حاولي أنت النوم سأقوم أنا بالاعتناء بها وهي نائمة.

- لا أود أن أزعجك، كان قدومك معجزة لنا، ما كنت أعلم ما الذي سيحدث لولا.....

قاطعها:

- لا تبكي وعد أرجوكِ، حمدًا لله ها قد تحسنت والحمد لله كَوني وصلت في الوقت المناسب:

جففت دمعها قائلة:

- لكن أين مارلي؟

- إنها ما زلت هناك لم تتمكن من ترك عملها لكنها أبلغتني أسفها الشديد لك كانت متلهفة جدًّا لرؤيتك ومقابلة ديم إنها تحبك جدًّا كما تعلمين.

- وأنا أيضًا أعانها الله.

- حسنًا ارتاحي قليلا قد تعبتِ بما يكفي اليوم.

- لا عليكَ لقد أصبح التعب طقس يومي قد اعتدت عليه.

- لا عليكِ أحكي لي عن حياتك فيما مضى كيف تتدبرين....

قطع حديثنا صوت ديم بعد نوم طويل استفاقت أخيرًا:

- من هذا؟؟

- ديم حمدًا لله على سلامتك.

ردت بخوف:

- كنت أتألم كثيرًا، هل سأموت؟

- لا حبيبتي أنت بخير، كله بفضل الله ثم روني.

اقتحم الحديث بضحكة حنون:

- مرحبًا ديم من المؤكد لا تتذكرينني كنتِ صغيرة جدًّا منذ آخر لقاء.

ردت ببراءة الأطفال:

- أهلًا، هل أنت الهدية، قالت لي أمي أنها ستحضر هدية في عيد ميلادي.

- نعم يا ديم هو هدية لنا لكنه من عند الله.

بنظرة متفحصة حول الغرفة ردت بشغف:

- "ما هذا الذي على الأرض، أيمكنني فتحها، سأفتحها .

يا إلهي لا أصدق

هل هذه لي

لمن هذه

هل هي تعمل".

بضحكة من وعد:

- إنها هديتك ديم.

قفزت عاليًا وارتمت بين يدي:

- أنا أحبك أمي أحبك أكثر من أي شيء آخر أكثر من الحلوى بكثير، هل يمكنني أن أجربها؟

- عليكِ أن تتدربي إذًا إن أردتِ العزف.

- بالطبع، سأصبح أفضل عازفة ناي، لقد أحببته.

****

بدأت حياتنا تتغير، فقدوم روني قد أضاف الكثير من البهجة لنا، فقد أصبح شابًّا طويلًا يمتلك قدرًا من الهيبة والرزانة مَنحتهُ إياه الأيام التي أضناه مرارها، كان عمله شاقًّا خارج البلدة بعدما تركته وهو طفل صغير لا يتعدى السبع سنوات حين وجداني هو ومارلي وأنا مغمى عليّ في أحد الأزقة، كنت أنا وديم من غير مأوى ولا طعام، بعدها اضطرا للسفر خارج البلدة للعمل لكن أسفي على مارلي كنت أود جدًّا أن أراها، مرت السنوات بسرعة حين رأيت يدًا تربت على ظهري وينطق باسمي، ما كنت لأعرف بتاتًا بأنه روني فقد تغير شكله كليًّا لقد كبر وازداد طولًا ووسامة كبيرة وكان شكله لا يوحي بالفقر الذي كان عليه إلا أن بؤس الأيام ترك بعضًا من الندوب في ملامحه، لكنه وجدني بسرعة ربما لأن مظهري لم يختلف كثيرًا حتى إنها نفس الثياب التي كنت أرتديها فاستطاع التعرف عليّ، ما كنت أملك من النقود شيئًا، هائمة على وجهي لا أعلم أين أذهب، وديم محمومة تهذي وحرارتها مرتفعة وأنا كالمجنونة لا أعلم بأي وجهة عليّ أن أتحرك، حمدًا لله استطاع إيقاف سيارة بسرعة وأوصلنا لأقرب مشفى قريبة فعملوا اللازم حتى استقرت حالتها وانخفضت حرارتها شيئًا فشيئًا وعُدنا معًا إلى المنزل.

كان روني جراء عمله في البلدة قد اكتسب بعض النقود، طفل في مثل عمره لا يمكنه الاعتماد على نفسه في تحصيل فلس واحد، لكن بالنسبة لروني وانغماسه في الحياة منذ نعومة أظفاره فقد كان على دراية شديدة كيف تتم إدارة الأمور لذلك حقق مبلغًا متوسطًا من المال واشترى بعض لفائف السجائر ليقوم ببيعها هنا.

كان يعلم طبيعة الحياة وأنّ عملًا مثل هذا سيحقق نجاحًا كبيرًا بوقت لا بأس به، أما مارلي فآثرت البقاء هناك مع زوجها حتى تحقق مبلغًا جيدًا من المال، إنها بارعة بالمنسوجات جدًّا؛ لقد أرسلت لي ولديم بعضًا من أعمالها؛ حقيبتين بالأسود والسماوي كما حاكت جوارب طويلة لديم مع قبعة وقفازين قد حيكا بغاية البراعة، هي تعلم جيدًا كيف تخلق الإبداع وهناك هذه الحرفة

بدأت تندر وتنقرض ولم تعد محط أنظار، لكن مارلي تعرف جيدًا كيف تخلق التميز فإبداعها بطرق مبتكرة تساير الموضة في المنسوجات الصوفية قد أضفى عليها طلبًا جيدًا وبأسعار زهيدة ولا أعتقد أنها ستعود الآن .

أصبح روني يسافر من حين لآخر للاطمئنان على مارلي ولتسويق بضاعته، أما ديم بعدما أصبحت تمتلك نايًا يقاسمها مشاعرها أصبح وحده محور حياتها، كانت تحيا بالموسيقى وإلحاحها الكبير على التعلم والتدرب وحدها أخبرني أنها تمتلك مَلكة عظيمة، كان لديها حس موسيقي رائع، إن آلة مثل الناي كان يصعب جدًّا على المرء العزف عليها وحده لكن حين تعزفك هي يصبح من السهل الإبداع بالألحان، كان الحي الذي نقطن فيه يعم بالفوضى والضجة فخلت أن الموسيقى ستلين مشاعرهم أو أنهم لن ينزعجوا لكن ما لقيناه كان الرفض دومًا، فكثيرًا ما قوبلنا بالشتائم المزعجة رغم أن الصوت كان منخفضًا وساعات تدريبها كانت تقتصر على وقت قليل بسبب عملها الذي بدأته بعدما دخلت أنا في دوامة المرض، لكن لا يهم ما كان علينا سوى التجاهل، حاولت ضمها لمعهد الموسيقى لكن التكاليف كانت عالية لذلك قررت ادخار جزء من نقودي لتكاليف المعهد ربما تستطيع دخوله السنة القادمة .

****

ركضتْ بقوة لتقول: ماذا أعني؟

- لا أفهم عزيزتي، ماذا تقصدين؟

- ديم، ماذا يعني ديم؟!

- امممم حسنًا أما أنت يا ديم فتشبهين المطر في قسوته ورحيله وفي عودته ولطفه. كانت تمطر حين أتيتِ للعالم وحين نظرت إلى عينيكِ أيقنت أنكِ ديم رغم كل القسوة التي كانت تُحيط بي أتيتِ أنتِ، ففي وسط إعصاري أتيتِ خيرًا، إنه يليق بك، إنكِ المطر الغزير المحمول بالخير، هذا هو ما يعني ديم؛ أما لو أردت أن تعلمي ما معناكِ أنت فوحدك من تملكين الإجابة.

- لا أفهم

- ستفهمين قريبًا.

****

- أمي، متى أنتهي من الابتدائية؟!

****

- لماذا طلب منك الطبيب الذهاب للمشفى هل أنت مريضة أم أنه عمل جديد؟!!

****

- أمي، لم أكن أعلم أن المرحلة الإعدادية صعبة هكذا لقد مللت من الدراسة.

****

- وأخيرًا قاربت السنة على الانتهاء إنني في قمة السعادة وأخيرًا سأتمكن من العمل أكثر كي أساعدك.

****

- أمي خمنيّ من اجتاز الاختبار هذا العام، إنه أنا، لا داعي للنظر إلى الدرجات يمكنك القول إنني محظوظة باجتياز المرحلة الإعدادية بدعائك ولم أكن أتخيل أنني سأنجح لكن ها قد فعلتها، أمي هل أنت على ما يرام؛ هل هناك ما يؤلمك!

****

أخبرتك إنه ليس هناك داعٍ لأن تعملي، سأتكفل أنا بالعمل؛ إن صحتكِ تَتدهور، بالله عليكِ لا تقلقيني عليكِ هكذا.

****

لم يخبرني الطبيب بشيء يا روني أشعر أن هناك خطبًا ما.

****

مرت السنون سريعًا لكن ليس بالسرعة التي مرت بها ملامح أمي، أصبحت كهلة ضعيفة لا تقوى وكأنها عجوز في السبعين.

كنت أعتقد أنه مزاج سيئ كما أخبرتني أو ربما وعكة صحية ستمر، لكن ما إن توالى المرض عليها وسكنَ ملامحها حتى أدركت أن زائرًا جديدًا قد استقبلته أمي مجددًا، كانت قد أخبرتني أنها كانت مريضة وتعافت حمدًا لله، ما كنت أعتقد أنه سيعاود طرق بابها ولم أكن أعلم أن السرطان عاودها مجددًا وبدأ ينحت في جسدها منحوتات للألم.

****

- "قد تأخرنا جدًّا"

هذا آخر ما نطقه الطبيب، دخلت الردهة مسرعة لأقابل الطبيب:

- افعل شيئًا أرجوك لقد أخبرتني الأسبوع الماضي أن هذا الأسبوع هو دورها في إجراء العملية.

- للأسف لم نجد متبرعًا.

- كيف ذلك؟ أنت من أخبرتني أن المتبرع موجود وهذا الأسبوع دورنا.

- للأسف كان هناك خطأ في بعض الحسابات.

- أرجوك سأدفع لك ما تريد فقط حاول.

- للأسف الوقت تأخر جدًّا.

بدأت تركل بقدميها فاقدة أعصابها:

- ماذا تعني بقولك؟ ما معنى أننا تأخرنا؟ هل تقصد أنه لا أمل؟ ماذا تعني،،،،، أم أنك ستدخر جهدك لمن يدفع أكثر؟ هيا تكلم ماذا تعني، ماذا تعني بتأخرنا؟؟ هل تعتقد أني غبية بشأن المتبرع؟ ويلكم من الله؟ ويلكم جميعًا.

دخلت في نوبة صراخ حتى أخرجوها من المشفى بالإكراه، وأخذت تسير في الشوارع بلا وجهة والدموع تترك أثرًا وراءها لا يتبعه أحد، لتنتهي جالسة على ناصية الطريق:

لماذا يا ألله؟

افعل شيئًا رجاءً

لا تتركنا

لماذا تأخرنا؟

لماذا نحن؟

أين أذهب أين أرتمي ماذا أفعل؟ إنني غريبة جدًّا عن أي مكان يمكن للمرء الهرب إليه.

فكرت في الاتصال بروني لكن ما عساه أن يفعل إنه في سفر ويحتاج بضعة أيام على الأقل للوصول.

لا أملك غير الصلاة، لكن لم يتغير شيء، لن تحدث معجزة ولن تنهمر النقود من السماء، هل تعود أمي بصحتها مجددًا هل ستشفى هل هناك أمل يا ألله؟ أجبني يا ألله، هل من أمل؟ هل ستشفى يا ألله

وهذا ما ظللت تردده.

****

أيقظها من سباتها صوت فرامل سيارة مسرعة فانتفضت واقفة:

لا بد أنني هنا من فترة طويلة فإن الشمس قاربت على المغيب والوقت يمر ببطء شديد. هي نفس الوجوه، نفس الأصوات، نفس الطرقات كم هو مؤلم انتظار اللا شيء، انتظار المعجزات التي لم تعد تحدث فآثرت العودة إلى المشفى حيث لم يكن هناك مكان واحد يمكنني أن أخبره كيف بإمكاني مساعدة أمي غير حضن أمي؟ كانت دومًا الملاذ الوحيد.

كم أتمنى لو أن روني هنا، لكان ربت على كتفي كما كان دومًا يفعل ليخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام حتى وإن كان يعلم أنه ليس صحيحًا، كان دومًا يملك ثقة مفرطة في طمأنتي، أنا أحتاج إيمانك الآن يا روني، أحتاج يدًا تربت وتقول كل شيء سيكون بخير حتى وإن كنت تكذب.

أريد أن أصدق الأكذوبة وأنا أبتسم وأنظر بعينيك وكلي ثقة كما كنت أفعل، أين أنت يا روني؟

استجمعت قواي وعدت أدراجي ودخلت المشفى لأقابل رائحة أنفاس المرضى وقذارة المكان المفرطة. حيث رائحة التعفن المنبعثة من الحمامات تغطي رائحة الأدوية والتعقيم التي أكرهها، الجو يبعث الارتباك أكثر من الاشمئزاز، حيث الردهة طويلة أكثر من المعتاد أو ربما أشعر اليوم هكذا. الحيطان المطلية بالأبيض الذي كساها الزمن اصفرارًا مسودًا كانت تبعث شعورًا بالخنقة، كان الطبيب المشرف على أمي يقف في آخر الممر فتجاهلته وأسرعت بخطواتي أكثر، لست بقادرة للاستماع لأقل كلمة لكنه بادر باللحاق بي وناداني مسرعًا:

- ديم، لست غاضبًا من موقفك أنا متفهم حالتك لذلك لن أعتب عليكِ أريدك أن تحاولي تحسين حالتها النفسية فهي متدهورة جدًّا.

تبسمت بسمة استحقار وتركته.

حاولتُ خلق ابتسامة دافئة وأنا أدخل إليها:

- كيف حالك اليوم؟

بحضن دافئ أكثر احتضنتني:

- أفضل، حمدًا لله.

- قال الطبيب إن حالك في تحسن كبير.

ابتسمت بكبرياء كعادتها:

- "أعلم ما قاله الطبيب يا مشاغبة، هل تعتقدين أن قليلًا من الفحوصات والإجراءات الطبية ستحدد كيف هي حالتي؟ لا أعتقد أن الطب مهما تطور يمكنه معرفة ما يختلج في أرواحنا، إن صحتي جيدة وفي أفضل حال، إن كان جسدي منهك وممزق من كثرة ما فتك المرض منه فإن روحي ما زالت مزهرة، دعيني أخبرك شيئًا لطيفًا ديم:

الأمل هو ضمادة الألم، فاحتفظي دومًا به".

ضممتها بقوة متجاهلة أجهزة التنفس:

- لكني خائفة.

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1] هذا قوله تعالى ما بالك حين عز وجل يطمئننا بلسانه هو، اصبري لحكم ربك يا ديم، فرب الخير لا يأتي إلا بالخير.

****

[1] البقرة: ١٥٥.

دخلتْ مسرعة مبتهجة:

- أمي أنا عدت هيا استيقظي كفاك كسلًا، انظري من جاء ليراك إنه حبيبك الشقي.

تقدم وقبل يديها:

- اشتقت لك كثيرًا، كيف حالك اليوم؟ أرى أن وجهك مستبشر.

- حمدًا لله يا روني إنني بخير ما زلت قادرة على التبسم.

أخرجتْ ديم من حقيبتها شيئًا ما قائلة:

- لقد جلبت لك زهر الأقحوان الذي تهتمين به عني.

أخذت نفسًا عميقًا ثم ردت ببسمة:

- لا شيء يشغلني عنكِ ديم، لكنه يمثل الحياة لي.

ردت وهي ترفع حاجبًا وتستكين بآخر:

- ألن تخبريني سر حبك وتقديسه لهذا القدر؟

- "لأنها تخبرني أن الحب يمكن أن ينمو أينما ذهبنا، دعوني أخبركم أسطورة الأقحوان ولما سموه هكذا:

بدأت الأسطورة مع الإله فينيس حيث سمعت بأن إحدى حوريات البحر أنجبت طفلًا رائعًا اسمه أدونيس، فذهبت لتبارك لها ولما رأت الطفل أعجبت به إعجابًا شديدًا لدرجة أنها خطفته من أمه، أخذته بعيدًا ووضعته في صندوق وأغلقت عليه، ثم ذهبت إلى صديقتها وأخذت معها الصندوق الذي فيه الطفل وسلمته لصديقتها وقالت لها: "هذه وديعة احتفظي بها لحين أعود إليك". قالت صديقتها: "بكل سرور حين ترجعين ستجدين أمانتك". غادرت فينيس قصر صديقتها مطمئنة على أدونيس.

بعد مرور فترة زمنية ولم تعد فينيس أخذ الشك يساور صديقتها وقتلها الفضول لتعرف ما يحويه الصندوق، لم تستطع مقاومة فضولها أخرجت

الصندوق وفتحته، وفور فتحها الصندوق فوجئت بطفل بهية الطلعة رائع الجمال، أعجبت به كثيرًا وعشقته عشقًا لا مثيل له.

بقي أدونيس في القصر الذي تربى فيه حتى كبر وصار شابًّا آية في الجمال وبعد مضي فترة زمنية عادت فينيس من جديد على أمل استرجاع وديعتها فأبت صديقتها أن ترجعه لها، وقع شجار بينهما فاحتكما إلى كاهن المدينة وأخبراه القصة فقال لهما: "ستتقاسمانه، بحيث يبقى ٤ أشهر عند كل منكما وال٤ أشهر المتبقية يكون فيها حر فقبلتا بهذا الحل".

في يوم من الأيام التقى امرأة جميلة جدًّا عشقته أول ما رأته وكان لحسن حظها آلهة الحب والجمال اسمها عشتروت، لم يولها اهتمامًا في البداية، لكنها طلبت من إله الحب أن يجلب اهتمامه بها فرماه تروبيتود ـ إله الحب ـ بسهم أصاب قلبه فأصبحت تشغل الأربعة أشهر التي كان فيها حر.

من كثر حب عشتروت له كانت تتعقبه أينما ذهب، كانت تلازمه كما ظله، وفي يوم من الأيام ذهب أدونيس إلى الصيد ولسوء حظه هجم عليه خنزير بري وقتله، وكانت عشتروت تتفرج عليه، ذهبت مسرعة إليه فوجدت الأرض مكسوة بدمائه، بكت عليه بكاءً شديدًا وذهبت إلى البركة المطهرة وجلبت دلو ماء، وسكبت ذلك الماء المطهر على دمه فغلى دمه واختفى وظهر في مكانه نبات جميل سمي بشقائق النعمان أو زهر الأقحوان، منذ ذلك الوقت أصبح يسمى بهذا الاسم.

بعد هذا تقول الأسطورة أن عشتروت لم تترك جثة أدونيس وإنما دفنتها وجعلت قبره يختلف عن كل القبور".

تنهدت وعد بابتسامة:

لقد نتج الأقحوان من الحب وأزهر بالحب وسيظل يزهر ما دامت عشتروت تحب وحينما ماتت ظل الأقحوان ينمو من حبها الذي نما في براعم الأقحوان.

ومن هنا جاء الأقحوان رمزًا للحب وفي أساطير أخرى كان رمزًا للسعادة وأخرى للحزن أما بالنسبة لي فكان رمزًا للحياة وكأن الحياة في زهرة.

ابتلعت ريقها ومن ثم تابعت:

- أشعر أنني بخير دعينا نعود للبيت.

- كيف نعود للبيت؟ هذا لا يجوز ما زلت تحتاجين للرعاية.

- يا ابنتي إن روحي سليمة دعيني أذهب من هنا إن المكان يصيبني بالاشمئزاز.

- لكن يا أمي قال الطبي..

قاطعتها بحزن:

- ديم لا تتعبيني، أرغب أن أكون في بيتي، أود أن أشعر بالسكينة.

- عنيدة أنت يا أمي سأرى الطبيب.

****

مرددة بصوت حنون خافت:

- "لقد افتقدت فراشي كثيرًا رائحة أزهاري ومطبخي، ضجيج شارعنا حتى أزير الباب لديه صوت محبب لدي.

دعيني أخبرك سرًّا دافئًا، لكن اعطيني بعض الماء، أرى أنكِ لم تعتني بالزرع في غيابي يا ديم.

- آسفة لكنه ذبُل بسرعة.

أمسكت بدلو الماء بينما ركزت نظرها على المتبقي من الزرع قائلة:

- ستزهر مجددًا.

- "لا تقولي ذبل، رحل، لم يعد يمكن، يئست، كلها مفردات لا تعجبني، لا يمكننا الإيمان بالقنوط يا ديم إنه غير موجود، هل يمكنك التصديق بشيء غير موجود؟ شيء قابل للتغير.

لن أتهاون في إحياء نباتاتي فإن بداخلي شيئًا منها،،، ما إن أزهرت أحيت ما تيبس مني يا ديم".

لم تملك الفتاة شيئًا لقوله فآثرت بإخراج الناي والعزف على آخر ما تدربت عليه.

وقُضي الليل تحت نور طفيف وعزف هادئ تستكين به الأرواح .

****

استيقظتْ بنشاط بصوتها العالي المعتاد كل يوم:

- صباح الخير يا طيور، متى ستردين السلام، حسنًا لا بأس.

دخلتْ الغرفة وتركتْ الطيور تلتقط بعض فتات الخبز الذي ألقته لها لتوقظ ما تستيقظ لأجله:

- "هيا أمي كفاكِ نومًا.

أمي هيا كفى كسلًا

استيقظي هيا سأجهز الفطور

لمَ يداك باردة؟! ".

هزّت يديها بقوة صارخة:

- أمي ردي!!

*****

(الفصل الحادي عشر)

الوحدة هي أن تُنبذ من ذاتك وترتمي بعيدًا خارج حدود جسدك.

اقتربَ ببطء يلوح بكلتا يديه:

- "تريدين الإيمان من لسان مجنون؟ هل تظنين أن لدي ما يقنعك؟ الإجابة داخلك لن يخبرك بها أحد، كل ما عليك فعله أن تسألي نفسك: لماذا لم تجدي الإجابة بنفسك؟

- اعتقدت أن الحكمة في أفواه المجانين.

شد فمه ملوحًا مشيرًا إلى الداخل:

- انظري؛ ليس في فمي غير أسنان.

تركني ورحل مهرولًا، فوليتُ في طريقي للبيت وأنا أحادث ريم على الهاتف:

- قبل مرحبًا لديّ أخبار جديدة؛ يزن حدد موعدًا لمقابلة والدي .

صرختْ صرخة أصابت غشاء أُذني بألم:

- رائع وأخيرًا سأرتدي فستانًا وكعبًا.

- هذا ما يهمك؟ !!

تابعت بضحكة متقطعة:

- لا طبعًا بل وسنأكل قطع شوكولا فاخرة أيضًا على حسابكم.

- صديقتي جدًّا.

- نُكمل فيما بعد إذًا، لا تتأخري غدًا لا نريد الحرمان من دخول المحاضرة ككل مرة.

- ليس ذنبي؛ إنهم حددوا ميعاد المحاضرة وقت نومي.

- بالطبع، ذكريني أن نناقش معهم جدول الدراسة ليناسبك يا كسولة، وداعًا.

أغلقتُ مع ريم فور وصولي للبيت فبدلت ثيابي وارتميت على سريري مع دفاتري.

مذكراتي العزيزة لقد أشغل سؤالٌ بالي طويلًا بل أسئلة كثيرة ولم يجبني عليها أحد لأنها داخل نطاق (ليس علينا التفكير في هذه الأمور) لكني ندى وأحب دائمًا العثور على الإجابات.

لماذا نُصلي؟

ما الشيء الذي أضافته الصلاة إلى حياتي؟ أين الفائدة العظيمة فأنا محبوبة من الجميع أقوم بما أريده، أتحدث، أذهب، وأعود، لست بذاك الشر الذي يجعلني بعيدة عن الله.

لماذا لا تكون في آخر اليوم مثلًا بعدما ننتهي من كل واجباتنا اليومية فأتفرغ لها فأجمعها فأكون قد أديتها على الأقل بخشوع؟

إن الله يعلم أننا نحبه فلماذا ندلل على ذلك بالصلاة؟

أنا لا أعترض على الصلاة إنها فرض ودعامة من دعائم الإسلام الخمس وعامل قرابة بيني وبين الله لكني مع ذلك لا أرى أني توصلت للإجابة الخاصة بي أنا؛ لماذا أصلي؟!

لماذا أكون بعيدة عن الله إذا لم أكن أصلي؟ أليس الله يسكن في قلوبنا ويسمعنا وطالما نفعل ما لا يؤذي أحد، لا نسرق لا نقتل لا نرتشي فإنه يحبنا وأكيد سيغفر لنا.

كلها أسئلة كانت تدور في عقلي، أسئلة لطالما تجاهلتها ربما لأني لم أعمل عقلي بما فيه الكفاية لإيجاد جواب لها.

بحثت جيدًا حتى تعبت وكانت الإجابات كلها لا تشبعني وإجابات الكتب هي ذاتها، إجابات الشيوخ هي ذاتها، الإجابات التي نشأنا عليها فشعرت أني لم أتوصل بعد لما أريده وقررت تغيير جهة البحث وأغوص قليلًا داخل أسوار عقلي.

رسولنا الكريم قال: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر

لهذه الدرجة إذًا كنت بعيدة عنك يا ألله؟

والله سبحانه أوصانا بالاستعانة بها فوحدها تنهي عن الفحشاء والمنكر، إذًا هناك علاقة بأنني حينما أصلي تنتج حواجز تمنعني عن الشرور.

وفي نقطة ثالثة كان رسول الله عليه أفضل الصلاة يقول لسيدنا بلال أرحنا بها يا بلال.

ومن المؤكد لم تأتِ كلماته بصيغة المبالغة لا بد أن الموضوع كان مريحًا لهم فعليًا، إذًا لماذا لا نشعر نحن بذلك؟ لا بد أنها ليست الصلاة التي اعتدنا على القيام بها فقط في أوقات فراغنا بوقت لا يتعدى الدقيقة، الصلاة التي ننشغل عنها بسبب العمل المتعب أو انشغالات الرفاق أو جلسات العائلة، الصلاة التي ننشغل عنها بسبب كل شيء وأي شيء اعتقدنا أننا نحبه وأعطيناه أكثر من وقته.

الله وحده من كان يريد تذكيرنا إنها ليست الأشياء الأكثر أهمية وليست الأشياء التي جئنا من أجلها.

خمسة فروض في أوقات مختلفة لكي نستطيع تحديد ما الذي نحبه وما هي أولويات يومنا فعليًّا.

خمس مقابلات يومية روحية ربانية ليسألنا ما الذي نريده، ما الذي نطلبه ما الذي نحتاجه ونحن نستمر بالتجاهل.

خمسة اعترافات لكي نشكي، لكي نركع، لكي يطمئننا ونحن ما زلنا نثرثر لمن لا يهتم.

خمس فرص يومية لكي يخبرنا أنه لن نجد بتاتًا من سيظل بجانبنا غيره.

المشكلة كانت أكبر بكثير من تخيلي لفكرة الصلاة من أنها فرض يومي أو عبادة اعتيادية.

لولا أسئلتي لما اكتشفت أن ترتيبي لأشياء كثيرة في يومي كانت خاطئة

أسئلتي حُلت كلها في آن واحد

أنبتت نتيجة واحدة وهي إن طرحنا كثيرًا من الأسئلة لا يكون أساسها التشكيك بقدر ما تكون بدافع للمزيد من الإيمان.

لولا أسئلتي تلك لما كنت اهتديت إلى الاقتناع التام بأن كل حرف، كل همسة ستخرج من جوفي في الصلاة لن تكون إلا بدافع الحب والطمأنينة.

لا أود أن أكون مجرد آلة تنفذ ما تعودت عليه وتلقنته دون أي ردود أفعال مخالفة أو الشعور بالخوف والخجل من كوني أوجه سؤالًا مثل هذا وأنا في هذه السنّ لأنه ونحن في الصغر لم نلقَ سوى إجابة واحدة:

(افعلي ذلك كي لا تُعاقبي أو لا تسألي مثل هذه الاسئلة) فينكمش عقلنا ليتخذ مسار العادة دون أدنى حب.

أود أن أقوم به كما يجب له أن يُقام.

إن الصلاة قبل أن تكون فرضًا، قبل أن تكون عبادة، أيقنتُ أنها هروبٌ إلى أيدٍ ربانية تبث الطمأنينة حول كل ما شُغلنا به وشغلنا يوميًّا.

إن خمسة فروض فُرضت بأوقات متفاوتة في أوقات تتزامن فيها مشاعرنا ما بين الغضب والسخط والفرح والتعب والحزن واليأس لأنه الوحيد القادر على احتضاننا خمس مرات في اليوم دون أن نشعر بالحرج منه.

الوحيد الذي ننخفض له بضعف لنرتفع بجبر قوي.

الله لا يحتاجنا خمس مرات يوميًّا نحن من نحتاج لقاءه طوال اليوم .

****

قالت بعصبية ووجهها يضخ حنقًا

- هيا بنا لقد تأخرنا.

- لن يدخلنا.

- كله بسببك أخبرتك ألا تتأخري.

- كفاكِ ثرثرة لنحاول الدخول بسرعة لن ينتبه إنه يجهز أوراقًا.

يجتازا باب القاعة بسرعة:

- حمدًا لله لقد نجونا.

يلقي دكتور المادة نظرة عامة ثم يسترسل بكلامه:

- "قبل بدء المحاضرة لقد استوقفتني أسئلة كثيرة أهمها كان منكم وإليكم دعوني أسئلكم السؤال الذي لطالما مرّ علينا وتكرر على أسماعنا:

هل العمل في المحاماة يقع في الشبهات بحيث إن النية مبنية على تزوير الوقائع؟؟ نعم أم لا؟

لا أريد ضجة، منكم من انقسم لمن يؤيد ومن يعارض بشدة هل من تفسير؟".

ألقى نظرة مركزة على ندى وريم

- الأستاذتان المتأخرتان عن المحاضرة هل من رأي؟

أصابهما الارتباك لتقول ندى بهمس:

- تكلمي يا ريم.

- تكلمي أنت يا ندى .

- تبًّا لكِ.

تقف أخيرًا ندى وتأخذ نفسًا عميقًا:

- امم في الحقيقة أنا..

أود أن أقول.

تغمض عينيها لجزء من الثانية محاولةً إيقاف ارتباكها وجمع شتات أفكارها:

حسنًا أنا..... لا أؤيد ولا أعارض... إنها مسألة اجتماعية تخضع لوجهات النظر أكثر وبؤرة الكاميرا تركز عليها أكثر من أي مهنة بصفتها الأكثر تأثيرًا على المجتمع، في حديثنا عن المحاماة نحن لا نتكلم عن مهنة يقوم بها كائنات فضائية مختلفة عنا وإنما بشر، بشر لطالما يتصارع داخلها الخير والشر، بشر بالفطرة، المحاماة ليست دفاعًا عن الجاني فقط.

توقفت لثوانٍ مُلقية نظرة عامة عما حولها:

ومن الخطأ الذي وقع فيه السائلون في هذه الإشكالية حصره للمحاماة وأعمالها في الدفاع الجنائي، وذلك غير صحيح ولا يستقيم مع حقيقة أعمال المحاماة، حيث إنه بالعودة إلى دور المحامي في «الدفاع الجنائي» فالأصل فيه الضمير أليس كذلك؟ لأنه إما أن يكون مدافعًا كي لا يدان بريء أو يكون دفاعه كي لا يدان إنسان بغير ما اكتسب، أو أن تكون العقوبة المقدرة هي العقوبة القانونية المستحقة للفعل المقترف، حتى حين دفاعه عن فاعل الإثم، فذلك ليس دفاعًا عن الإثم بل هو في الحقيقة يصنع الشرعية لعقابه.

تبتلع ريقها لتكمل بثقة أكثر:

ثم إن المنقسمين حول هذا الأمر لا يعلمون أن على بن أبي طالب ﵁ دافع عن متهمة بـ«الزنا» وكان محاميًا لها؟ وعن أم سلمة ﵂، أن رسول الله - ﷺ- قال : " إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من أخيه؛ فلا يأخذنه، فإنما أقطع له قطعة من النار".

بل أكثر من ذلك ألا تعلم أن القرآن الكريم كان هو المدافع عن يهودي متهم بالسرقة؟ كما أن آيات الله المحكمات كانت أيضًا دفاعًا عن سيدة اتهمت زورًا وإفكًا.

إن المحاماة مثل أي مهنة تقع بالشبهات وهناك الكثير من يتخذ طريقًا مخالفًا لها وهذا لا ينصب عليها كمهنة

بالنهاية قال تعالى

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ ﴾[١] .

تهمس ريم"

- من أين أتيتِ بكل هذه البلاغة، الكل كان مندهشًا من تسلسل أفكارك حتى إن الدكتور عفا عن التأخر ولم يطردنا كالعادة أمام الملأ.

هزت رأسها بعزة:

- أنا ندى، بالتأكيد أنا مدهشة.

- ثقة لا محدودة.

---

[١] النساء: ١٠٩.

- لا يزعجني تسميتها غرور.

- مزعجة، أنا جائعة.

- ألم تتناولي إفطارك صباحًا؟

ردت ببرود"

- بلى، ولكن هذا كان صباحًا ونحن الآن بعد الصباح، أنا جائعة وأنت من سيدفع.

- لا مجال للهرب هيا بنا.

- تعلمين يا ريم كم أن الحب رائع حينما أخبرني يزن بتحديد ميعاد لطلب يدي من والدي أحسست بإحساس رائع لم تكن سعادة بقدر ما كان إحساسًا بالطمأنينة، إحساسًا بالاستقرار أنه سيكون لي بيت لا أتقاسمه مع أحدهم ليضمني وحدي دون أن أشعر بأني خارج نطاق العائلة، لقد أحدث طلاق والديّ شرخًا في توازني النفسي لسنوات.

توقفتْ مليًّا لتأخذ نفسًا عميقًا، وريم منهمكة في الطعام:

- لا يهم، غدًا سأمتلك بيتًا لنا وحدنا فقط، أنا وهو وحدنا تحت سقف واحد لنتقاسم القهوة والسطور والموسيقى، كل شيء حين يُقسم تصغر قيمته إلا الحب سيتضاعف إلى ما لا نهاية.

أكملت وهي تحاول ابتلاع الشطيرة:

- لكنني خائفة.

توقفت ريم عن المضغ متسائلة:

- من ماذا؟!

زمت شفتيها محاولة إرغام عقلها حتى لا يتهور مفصحًا أنها خائفة من شعور الاحتياج، من فكرة أن تكون متعرية داخل علاقة أمام شخص غيرها،

خائفة من الانفتاح الذي سيفضح ضعفها أمامه، وأنها لا ترغب سوى أن تظل في الصورة المثالية التي رسمتها للجميع، لن ترغب في أن يراها بحقيقتها التي دفنتها .

ابتلعت ريقها وقالت بضحكة:

- تعلمين كم أنني فاشلة في الطهي ألا يُثير ذلك الفزع .

****

فكت خصلات شعرها لتتحرر على كتفيها بقوة:

- يزن، تُرى لماذا تحبني؟

- لماذا أحبك؟ دعيني أستحضر أبيات نزار ليجيب عني:

لماذا أحبك؟

إن السفينة في البحر، لا تتذكر كيف أحاط بها الماء

لا تذكر كيف اعتراها الدوار

لماذا أحبك؟؟

إن الرصاصة في اللحم لا تتساءل من أين جاءت وليست تُقدمُ أي اعتذارْ

لماذا أحبك.... لا تسأليني

فليس لدي الخيارُ ...

وليس لديكِ الخيار".

تبسمت بحب ثم أرسلت رسالة:

- امممم إنك مراوغ أنا أود رأيك ما بالي أنا بنزار.

شعرت بحزنه حين وصلت رسالته:

- اعتقدت أن ردك سيكون أكثر رومانسية.

التزمت الصمت دون أسباب فأنارت شاشة هاتفها مجددًا:

لماذا لا تجيبي؟

هل أخطأت بشيء؟

أغلقت شاشة هاتفها بعد أن أرسلت له:

- لا أبدًا أود فقط النوم.

****

مذكراتي العزيزة

إنه الخوف من الحب الذي يتورط بي شيئًا فشيئًا أشعر بالرهبة مع الإكمال مع كل جرعات الحب تلك، في رأيي إننا حين نمر بتجربة من السعادة أو نشعر بأهمية الحياة على المستوى العاطفي فكثيرًا ما نعرض عن الأشياء التي تجعلنا أكثر سعادة وهذا تمامًا ما يحدث معي، إني متخوفة من كل جرعة الحب هذه التي لم أعتد عليها ربما لأنني أعتقد أن كثيرًا من الحب يسبب كثيرًا من الألم وهل العكس صحيح يا ترى، فعند الوقوع في الحب فإننا لربما نصبح مترددين بالدخول فيه بسبب الخوف من الحزن الذي ربما ينتج عنه لاحقًا.

إن الحب غالبًا غير عادل أو إنه غير متزن.

تركتُ قلمي حين اهتز هاتفي ليلتقط رسالة أخرى من يزن:

- هل ستتركينني على لهيب الانتظار طويلًا؟ ما بكِ ندى؟ لا تخبريني أنك متعبة وتودين النوم، أنا لست صديقتك ريم أو والدك أو أخاك غسان؛ أنا يزن، يزن من يعرف كيف تصمتين ولِمَ ومتى، أخبريني إن كنت قد أخطأت بأمر ما.

تركت دفتر مذكراتي وأرسلت:

- الأمر ليس كذلك، لكني لا أعلم حقًا، أنا لا أعلم ماهية الشعور الذي ينتابني.. إني خائفة.

- هذا يعني أنك لا تحبيني.

- ما هذا الهراء؟ بالطبع لا، وما علاقة الحب بالخوف؟

- أخبريني أنت أولًا ما هو عكس الحب؟

أجبت بسرعة:

- الكراهية.

رد ضاحكًا

- كنت أعلم أنك ستقولين هذا، نعم الكراهية من المنظور اللغوي لكن من منظور الطاقة إن عكس الحب هو الخوف. وحين يقل الحب يكثر الخوف وحين يكثر الحب يقل الخوف.

- صحيح لكني لست خائفة منك، إنني متخوفة من الآتي من المقبل علينا. إن الخوف هو الحب نفسه وبرأي أنا إن لم يكن هناك خوف ليس هناك حب

صمت لدقيقة ثم أرسل:

- بعيدًا عن الحب والخوف لا أريدك سوى أن تكوني مطمئنة، إن عجزت عن إعطائك شيئًا ما فلن أتخاذل يومًا في غمرك بالطمأنينة، لقد تأخر الوقت أراكِ صباحًا.

- دُمت بخير.

- دُمتِ لي.

أغلقت هاتفي عائدة مجددا لحروفي.

****

الكذب، .... بأي جهة من الجهات أفكر بالأمر فقط من أي وجهة نظر يمكن أن يُصلح، هل يمكن لشيء ثابت كالاستقرار أن يحط على شيء هش كالكذب بالطبع هي أسوأ فكرة.

يكاد عقلي أن يتوقف، هل عليّ إخباره وهل عليه أن يكمل؟ وإن أكمل هل هناك معنى لحياتنا بعد ذلك؟ أخبروني.

هل عليّ أن أصرخ لكي تسمع الحروف، كي ترد السطور، كي أبوح، كي أرتاح، المزيد من عُصارات التفكير التي لا تنتهي، لماذا لم أفكر بالأمر من قبل؟ من أول نظرة، من أول لهفة قلب، من أول لمعة إعجاب، وأول لحن رقصت عليه قلوبنا على منصة الحب، لطالما قرأت أن الحب يخترق القلوب ويقع وقع الرصاص بسرعة من دون إذن ولا إنذار، يأتينا بتذكرة ذهاب من غير عودة لكن لم أكن أعتقد أني منومة لتلك الدرجة التي تجعلني أمشي له بخطى ثابتة لكي أقع بداخله بكل اتزان مع سبق الإصرار والترصد، لقد بت خائفة عليه مني كما خائفة عليّ أنا.

فناجين القهوة تملأ الأرجاء، الأوراق مبعثرة في كل مكان وضوضاء تخترق عقلي لتجوب المكان باحثة عن أي ركن ثابت تحط فيه.

لربما هذه أول مرة أكون فيها حزينة لهذه الدرجة ربما لأني لم أتعامل مع الموقف بذات المشاعر.

منذ أول مرة دخلت عيادة الطبيب، من أول استشارة، من أول خطوة علاج، من أول عملية، من أول حقيقة صفعتني أني،،،، أني لن أجرب الإحساس الذي ولدنا كي نعيشه.

لقد حُسم الأمر لأخبره غدًا لكن لا بد من لقاء لا أعتقد أن شاشة هاتف قادرة على شرح وتوصيل الأمر بطريقة مفهومة ففتحت شاشة هاتفي المعتمة لأبعث برسالة:

"أريدك في موضوع مهم، الساعة الثانية عشر هل هو مناسب في الحديقة؟"

لم يجب، لا بد أنه نائم..

لم أنم تلك الليلة، حدقتا عيني مصممة على مشاهدة الصباح وهو ينثر نسيج الذهب ليعبر نافذتي، يا ليته قادر على اختراق قلبي ليحيي ما تيبس داخلي.

ارتديت ملابسي وعجلت بالخروج، كان الوقت مبكرًا على ميعاد عملي لكن فكرة الانشغال بالعمل أفضل من السكون على حافة الانتظار لتلتهمك الدقائق الثقيلة

ما زالت الساعة السابعة صباحًا، فتحت المحل وبدأت بترتيب المكان يا ليتني فقط قادرة على ترتيب أفكاري.

فنجان القهوة اليوم ليس قادرًا على إسعادي، وعيناي غير مستقرة لتحط على بعض الحروف.

يقاطع شرودي العم طوني:

- مرحبًا قطرة الندى.

- جيدة ولا أفضل.

رد وهو يُهز بعصاه:

- كَوْني لست قادرًا على رؤيتك جيدًا ليس معناه أني لا أقرأ رجفة صوتك، ما بكِ؟

أجبت ببرود مجددًا:

- لا شيء.

كرر سؤاله بصوت مازح:

- ماذا بكِ؟ أين ندى التي ترغمنا دومًا على التفاؤل، أشتم رائحة حزن.

- ومن قال إنني متشائمة أو حزينة أو منزعجة؛ إنني فقط متعبة وعلى وشك الانطفاء من كثرة التوهج.

لم يتابع عم طوني كلامه معي حين رآني منزعجة، وطلب فنجانين من القهوة وجلسنا نتابع حفلة الصمت التي بدأناها.

حين دق جرس الثانية عشر استأذنت ورحلت لمقابلة حاسمة ليست مع يزن بقدر ما هي مع نفسي.

*****

(الفصل الثاني عشر)

روحي ترتجف ولا أملك شيئًا سوى البكاء إلا أنني لا أبكي

فضاء أسود فقط فضاء تكسوه العتمة، في بُعد آخر لا أصوات ولا صور ولا نور؛ فقط ظلام حالك والمزيد والمزيد من اللا شيء.

لم أكن أستوعب ما الذي جرى.
صراخ ثم صدمة يتلوها صمت بفاجعة ملابس سوداء
أناس أعرفهم ولا أعرفهم يربتون على ظهرك.
الأرض تدور بعجلة لكن الصورة بطيئة
رأس ثقيل
مزيد من الدوار
مزيد من أقراص المسكن
مزيد من الانتظار المستحيل.

لمسة يدها الباردة

أذني المترقبة لضربات قلبها

صراخي المستمر وهي لا تستجيب

آخر نظرة لكفنها وهو داخل القبر

منظر التراب وهو يُغطي آخر جزء من التابوت

العودة للبيت وهو يخلو منها

إنها الفاجعة العظمى

رحلت وعد

في الجنازة هي من رقدت بسلام وروحي من دُفنت

الكون أصبح صغيرًا جدًّا وباهتًا، لو كان بإمكاني المساومة مع القدر لأعطيه كل شيء ويتركها لي

ماذا لو لم يكن حقيقة؟

ماذا لو كان كابوسًا؟ كابوسًا أصحو منه لتحتضنيني وتخبريني أن كل شيء على ما يرام وأنك بجانبي.

ماذا لو كنتِ بجانبي الآن؟

دق الباب معلنًا دخوله ليجلس بجانبها:

- أحضرت طعامًا، لم تتناولي شيئًا منذ أيام.

بصوت منتحب وبشرة مرهقة وعينين منتفخة قالت بأنفاس متقطعة:

- لقد رحلت يا روني، رحلت أمي، رحلت وعد، هل هناك وجع بعد ذلك؟

- ديم، كفاكِ بكاءً إنه قدر الله ومشيئته حاولي تقبل الأمر.

صاحت به:

- أنت لا تفهم ما هو شعوري، لا تعرف ما هو الفقدان.

زمزم شفتيه وتكلم أخيرًا:

- نعم؛ لا أعرف الفقدان أنا لم أجرب معنى الأم حتى.

- روني آسفة لم أقصد، كنت أعني.... روني انتظر، روني.....

خرج مسرعًا وتركني، أصبحت وحدي لو كنتِ معي يا أمي لكنت قلت ما يطمئنني.

فتحت مصحفنا فوقعت عيناي على قوله:

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

فاحتضنته باكية.

****

١ ق: ١٦.

دقّ الباب ثلاثًا فلم يجب أحد سوى الصمت، فَهّم بالذهاب حين سمع أزير الباب يُفتح.

قفزتْ بقوة وهي تمسك ذراعه بقوة، ودموعها تسيل على خديها:

- آسفة أرجوك سامحني

قاطعها بابتسامة:

- لا بأس لا داعي للاعتذار، أحضرت فطورًا.

- لست جائعة.

- لكنك تحتاجين الطعام هيا عليك أن تستعيدي بعضًا من عافيتك.

- هل سترحل؟

- سأبقى معكِ دومًا أنا دومًا بجانبكِ لكن لدي عمل سأنهيه سريعًا وأعود.

نظرت لأسفل قدميها:

- ليت الأمهات لا تموت.

- هي لا تموت، فقط أصبحت تعيش داخلنا بدلًا من المكوث معنا.

- هل لديكَ إخوة غير مارلي قضينا الكثير معًا لكني لا أعرف شيئًا عن عائلتك

رد وهو يُحضر المائدة:

- مارلي ليست أختي.

نظرت بتعجب:

- كيف؟!!

- "أعرف مارلي منذ فتحت عيني على الدنيا، كنا معًا في كل شيء، واجهنا نفس الألم ونفس المخاوف ونفس العمل ورابطة الإخوة مع إنها ليست أختي بالدم.

ماركي من وجدتني مرميًّا في عمر يناهز الأيام في أحد الأزقة، لم يكن لديها مأوى، كانت صغيرة في الثمانية أو التسعة أعوام تقريبًا، كانت تعمل عند امرأة عجوز وزوجها لكنه كان متسلطًا.

أخبرت ماركي السيدة بأمري فاهتمت بي دون علمه وأمرت ماركي بالاعتناء بي بعيدًا عن أنظار سيدها، كنا نقطن في أحد مجمعات الخردوات، كانت طفولة بائسة.

حين أتممت الأربع سنوات تقريبًا -حسب كلام ماركي فإنني لا أتذكر ذلك جيدًا- توفيت السيدة العجوز وظلت ماركي تحت سلطة الزوج، كان كثيرًا ما يبرحها ضربًا ويعاقبها بالحبس من غير طعام، وحين تعود ترتمي بجانبي ونبكي جانبًا لآخر.

كبرنا معًا وفي يوم كنا نجمع بعض الخردة سمعنا صوت بكاء طفلة، بحثنا عن الصوت حتى وجدنا صغيرة في حضن امرأة مغمى عليها في أحد الأزقة حاولنا إيقاظها حتى استفاقت، كانت الطفلة أنت وكانت المرأة وعد".

توقف ليمسح دمعة هربت من عينيه وأكمل:

-"رحمها الله، ومن يومها ونحن معًا، بعدها اضطررنا للسفر أنا وماركي إلى حيث سافر العجوز الذي نعمل معه، وحين وصلنا وجهتنا توفي ولم يترك لنا حتى تذكرة عودة، لم نعرف كيف نتواصل معكم ولم نكن نملك من المال ما يكفي ليسد رمقنا، بدأنا بالبحث عن عمل لكن عبث لم نجد، ظللنا حوالي يومين من غير مال، من غير وجهة، من غير طعام، ولا مأوى.

في اليوم الثالث قابلنا شابة تعمل بالنسيج واقترحت على ماركي العمل معها سعدنا كثيرًا، وقبلت ماركي الاقتراح على الفور وأقمنا في ضيافتهم فترة، أما أنا فكنت أذهب مع زوجها وأساعده في بيع الممنوعات من السجائر، كان عملًا مربحًا وقد تعلمت فنونه وكيفية شرائه ومتى ولمن وأين يباع؟

أمضينا فترة هناك وجمعنا مبلغًا لا بأس به وحين أصبحتُ قادرًا على التنفيذ وحدي اشتريت البضاعة وقررت بيعها هنا وأصبحنا شركاء، أما مارلي فآثرت البقاء هناك كونها تملك مكانًا تقيم به مع زوجها. كنت ألقاها كل أسبوع وأطمئن عليها، لقد بدأت حياتنا بالاستقرار الذي لم نألفه يومًا، وحين قررت العودة ذهبت إلى بيتكم فلم أجد أحدًا فسألت المارة، أخبروني بأن والدتك نزلت مسرعة بك وما بذلت جهدًا كبيرًا حتى تعرفت عليها؛ كانت تملك رأسًا شامخًا رغم ثقل ظهرها رحمها الله".

رفعت ديم رأسها أخيرًا وعيناها مبللة:

- كانت تحكي لي عنكما كثيرًا.

رد محاولًا إبعاد مسحة الحزن قليلًا:

- بالتأكيد كانت تخبركِ عن جمال وجهي ووسامتي المفرطة وعضلاتي المفتولة.

- نعم وذيلك الطويل وجناحيك العملاقين وسنانك الحادة.

- فتاة مزعجة.

- تعلمت الإزعاج منك، أتعلم كانت دومًا تخبرني عن جمالك حقًّا.

- لا تجامليني يا فلقة القمر.

- لا تفهم، أحيانًا لا نرى الجمال بقدر ما نشعر به.

*****

(الفصل الثالث عشر)

لم أكن أعلم أن المرء يمكن أن يولد من رحم نظرة تُوهبنا حياةً لا ممات فيها.

الوقت كان طويلًا جدًّا، لماذا تبدو الحديقة بعيدة إلى هذا الحد، كل شيء يمشي بالتصوير البطيء.

كان اليوم خامد الماء والغيم والمشاعر.

وصلت أخيرًا، المقاعد فارغة ووحده الهواء الطلق من يجالسها، ظللت أنتظر والدقائق تأبى أن تمر، أراقب المارة كعادتي.

وأخيرًا رأيته يهرول نحوي مسرعًا:

- ما الأمر ندى؟ لقد أقلقتِني، لقد ارتديت ما التقطته يدي حين رأيت رسالتك، هل من خطب؟

- آسفة لذلك لكني كنت مترددة جدًّا بالكلام والاعتراف يحتاج لطاقة كامنة يتم تحويلها من وقود الخوف، ليس كل واحد فينا قادرًا على الوقوف على الحلبة ليقاتل ضد نفسه كما قال مصطفى محمود الاعتراف بالحقيقة هو الأمل

في إصلاح المسار وأنا لدي أمل في إصلاح شيء سيتهدم وإن لم يصلح الأمر فلنطرح كل ما سبق أرضًا.

قاطعني ليرد بعصبية:

- كُفي عن المقدمات هذه، هل نحن بمحاضرة؟!! أخبريني، لم أعد أحتمل الانتظار، ما الأمر؟

ابتلعت ريقي وتابعت:

- أنت تنوي أن تبني عائلة معي أليس كذلك؟

رد بحنق ووجهه يشع غضبًا:

- هل أتيتِ بي إلى هنا لتتأكدي من حبي؟

تقاطعه بحدة:

- أجبني، أليس كذلك؟

- نعم كذلك.

- لكني لا أستطيع.

- لا أفهم.

- أعني أنه لا يمكنني إقامة عائلة، أنا... لا يمكنني... لا يمكنني أن أكون أمًّا.

****

لم تعد الكلمات قادرة على الاندفاع من شدة الكتمان فآثرت المغادرة بسرعة.

لم أعد إلى العمل فأخبرت العم طوني بالتغير المفاجئ بأني متعبة وأغلقت هاتفي، كان ما حدث طوال اليوم قادرًا أن يستنفد كل طاقتي.

البيت

الغرفة

السرير

والنوم

ورحلة هادئة بعيدة عن الإدراك لم أصحُ منها إلا على فجر اليوم التالي، كمثل أي يوم اعتيادي.

أرتدي نفس الثياب، نفس الملامح، نفس البسمة المبتذلة، نفس التحيات المعتادة على من نعرفهم ومن لا تعرفهم.

الشيء الفارق إنه كل هذه الأيام كنت أعتقد أن هناك شيئًا ما ينتظرني بينما اليوم أنا من أنتظره، حاولت ألا أفكر بالأمر بتاتًا لكن كل ما بي كان يفكر به.

استقللت الحافلة ثم نزلت قبل وجهتي بقليل؛ كنت بحاجة لبعض المشي لأستنشق بعض الهواء.

ليس لدي طاقة للعمل أبدًا، سأخبر عم طوني أن يعطيني أجازة لأُريح بها أعصابي.

وصلت لأجد أن العم طوني وصل قبلي، دخلت مسرعة للداخل:

- صباح الخير عم طوني.

- صباح الخير والناس الهاربة.

التفتّ خلفي بسرعة فهذا لم يكن صوت عم طوني وإنما يزن.

رددت بلهفة يتخللها الخوف:

- ما الذي جاء بك؟

تدخل العم طوني:

- لقد أتيت لأفتح فوجدته جالسًا أمام باب المحل ينتظرك فأشفقت عليه وأدخلته ربما تشفقين أنت عليه أيضًا.

رد يزن بنبرة متغطرسة:

- هل تعتقدين أنك ستتخلصين مني بسهولة؟

رددت بارتباك:

- أنا... كنت أود أن...

تدخل العم طوني حين لاحظ ارتباكي قائلًا:

- سأذهب للمقهى لأشرب كوبًا من القهوة لن أتأخر.

نظر بعينيه الحادة مطولًا بها قائلًا:

- ها نحن الآن وحدنا، هكذا تفعلين بي يا ندى؟

- لأنني أحبك.

- وأنا أحبك.

- لكني لن أستطيع أن أكون أمًّا.

- من قال إنه يجب أن تنجبي أطفالًا لتكوني أُمًّا؟ ما رأيكِ أن ننجب الحب ليكبر معنا وبنا.

لا أعلم ماهية الذي فعلته أو أي تفسير له. لكني ارتميت بين أضلعه بقوة؛ ضممته بشدة نحوي كي أشعر بالحقيقة كي أطمئن بين يديه، كان أجمل حلم لم أود أن أصحو منه بتاتًا.

****

- أحيانًا أشكر التكنولوجيا من كل قلبي لتقريبها العلاقات وجعلك بجانبي طوال الليل.

أجابتْ وهي تضع قطعة الشوكلا كلها في فمها مرة واحدة:

- أنا لا أحبها لكني مجبرة على التعايش معها.

- كيف؟!! من دونها لما تمكنتُ من سماع صوتكِ وقتما شئت.

أجابته بعدما مسحت فمها الملطخ:

- "من دونها لكنا اختزنا مشاعرنا فما استطاعت شاشات المحادثة ومكالمات الهاتف تقليص لهفتنا.

ألا ترى أن الترويج لرسائل العشق والغرام الجاهزة جعلت مشاعر الحب أبعد قليلًا من أن تتصف بالحقيقة؟

ألا ترى أن للجسد أمرًا فعالًا للفهم بطريقة بعيدة عن الغموض والإبهام التي نقع بها عبر شاشات الهاتف أو الحاسب حيث يؤثر الاتصال اللفظي على المتلقي بنسبة ٧٪ فقط؟

إني مع قول باولو كويلو عزيزي: يمكننا أن نملك كافة وسائل الاتصال في العالم، ولكن لا شيء أبدًا يعادل نظرة الإنسان" .

- أنتِ دومًا تفوزين.

ردّت بنرجسية:

- أنت من تنصاع لرأيي.

- أنا أنصاع لك.

رن الهاتف الأرضي بجانبها فألقت نظرة خاطفة على الساعة وشرعت تنهي الحديث:

- سأحدثك فيما بعد سأكون مشغولة الآن.

رد باستغراب:

- مع من؟!

- السنة الماضية تطوعت في مؤسسة لتقديم الدعم النفسي للمرأة من خلال الاستماع لشكوى مراهقين والتخفيف عنهم، هذه المؤسسة أسهمت في إنقاذ

عدد كبير من مراهقين نجوا من قائمة ضحايا الانتحار ووجدت أن ساعة واحدة خلال يومي ستكون مجدية أكثر من الثلاثة والعشرين الأخرى، هيا إن "إلينا" تنتظر.

- مَن إلينا؟
- سأخبرك لاحقًا.
- أنت لا تخبريني شيئًا لكن لا بأس وداعًا.

أغلقتْ مع يزن وهبتْ مُسرعة للمكالمة التي تنتظرها، توقفت قبل أن ترفع سماعة الهاتف وشردت: "كيف أخبره أنهُ نتاج لكل الرفض الذي واجهته؟ قررت حماية نفسي من خلال حماية الآخرين وحين قررت القيام بدور الحكيم والصالح كنت أقوم بتأمين ذاتي من الرفض، ووحده دور حلال العقد تمكن من تقريبي منهم فافسحوا لي مساحة صغيرة منحتني الانتماء الذي ركضت وراءه مرارًا، وحين حان بات بإمكاني حل المشكلات والتقرب من أولئك المحبطين والمشوهين لمشاركتهم مآسيهم تمكنت من التقرب قليلا من نفسي، دون أن أشعرهم أنني مفجوعة بنفس المأساة وأني أيضًا مُثقلة بنفس التجارب التي لطالما هربت منها بإنكارها، وأصبحت أعالج الآخرين بما أنا أحوج إليه.

لو كان بإمكانك استشعار الأدوار التي ألعبها، أحيانا كثيرة أشعر بالزيف الذي يجعلني أضطر لنصح شخص بفعل شيء أنا نفسي لا أستطيعه كالتفريغ، البوح والخروج عن دور الإنكار، السماح لأحد أن يمد العون لك والكف عن دور المنقذ والاكتفاء الذاتي، أن يكف عن ارتداء قناع الذات الزائفة كمحاولة لحماية الذات الحقيقية.

كيف لي أن أخبرك أني مريضة تتنكر بقناع المعافى ويجتاحني مرض أكثر خبثًا من أن يُشخص، مرض يأبى الكشف عن ماهيته؛ مرض يعمل لغاية واحدة وهو عزلنا مع تلك الكومة المشوهة من صورتنا التي نختزلها بعيدًا في أدمغتنا دون السماح لأحد برؤيتها ".

*****

(الفصل الرابع عشر)

الفن عُصارة الألم.

جالسين في الغرفة، ساكنين وكأن الطير فوق رؤوسنا حين هم روني بالكلام:

- ماذا بكِ أخبريني هل ستبقين صامتة هكذا؟ أم مزيدًا من الصمت؟ بربك يا ديم، لا تعزفي وتتجاهلينني.

نظرتُ إليه بأسى بعدما وضعتُ الناي جانبًا:

- إن ما بداخلي أكبر من أن يخرج حديثًا، وحده العزف بإمكانه حمل حشد المشاعر من داخلي، لا يمكنني التخطي يا روني، لا يمكنني تقبل فكرة ذهابها، موتها كان بمثابة صعقة دمرت كل ما بي، الأمر أشبه بحلقة اختناق لا تنتهي.

- أعلم أن الأمر صعب، وصعب جدًّا لكن هذا قدرها، كانت تتعذب، هذا أفضل لها.

- تبًّا للسرطان.

- ديم أنت صغيرة والحياة أمامك، من قال إن الأرواح تموت؟ إنها تسكن في السماء وتلتف حولنا تراقبنا وتطمئن، لقد عاشت وعد -رحمها الله- سنين تخللها الألم والمرض لا تجعليها قلقة عليكِ بعد موتها اجعليها مطمئنة.

- لا أستطيع.

أنهيتُ حديثي مع روني وودعته فإنه ذاهب لمدة يومين في عمل وسيعود، لقد بذل كل طاقته في جعلي أفضل لكن كيف؟

أصبح الأمر صعبًا جدًّا من دونها، بتُّ أكره الأطباء، أكره المستشفيات، أكره الألم.

الحياة صعبة منذ وفاتها، انقطعت عن الدراسة والعمل والحياة.

لم يعد للكون معنى، هذا الكويكب الصغير من دونها ما هو إلا فراغ مضجر. كل ما حولي بعيد وأنا بعيدة عنه أكثر.

لا توجد عواصف ولا رياح إلا أن قلبي يرتعش، قد مرّ شهر أو أكثر على رحيلها فمنذ ذهابها كففت عن عد الأيام.

أخبرني روني أنه يجب عليّ العودة للعمل فإنه سيشغلني قليلًا عما يدور برأسي، هو لم يخبرني أنه في أزمة مالية ويشك بقدرته على تحمل مصاريفي لكني لم أجد صعوبة في قراءة ذلك في ملامحه المضطربة.

لم أعد قادرة على الجلوس ساكنة، كل ما حولي تنبعث منه رائحتها يجسد صورتها ويحمل صوتها منذ وقت بعيد وأنا حبيسة هذا المكان، هذه الذكرى فقررت الخروج للهواء الطلق.

أُصاب بالحنق كلما تذكرت أنني صارعت تشوقًا للنزول من رحم أمي بالشهر السابع لأواجه كل هذا الألم.

أخذت الناي الذي حضر كل تشجيعها لي، الذي حضر أمسياتنا وضحكتنا وحزننا.

لم تكن لي أي وجهة فقط خرجت أمشي وأمشي حتى أصبحت في منتصف ساحة موسكو، كان المكان يعم بالضجيج، بالناس، بالحركة أو ربما بالحياة التي لم تعد تُناسبني.

توقفت عند الساحة في منتصف الزحام، رفعت الناي بكبرياء يناسب مقامه مغمضة عيني وتركت روحي تتسرب عبر ثقوبه، كنت أعزف لها من أجلها، لروحها، لضحكتها، لألمها، لرحيلها، للفقدان، للخيبة، للغد الذي لا تتخلله ملامحها.

لا أعلم كم لبثت على تلك الحال لكني أعتقد أنه كان وقتًا كافيًا لتهدئة روحي الهائجة.

صحوت من ثُباتي على تصفيق حار، نظرات محدقة وأخرى لامعة وأخرى قد انسابت منها بضع عبرات هاربة.

تفاجأت، الحشد هائل أكثر بكثير من حجم الصوت الذي انطلق يعبر عن الرضا، التصفيق لم يتوقف بعد بل يعلو أكثر وأكثر مع عبارات تشجيع وهتافات حماس، بعضهم بدأ يقترب ويضع بعض النقود بجانبي وآخرون كانوا يمسكون بشاشات هواتفهم ملتقطين الصور.

لم أكن أعلم ما الذي عليّ فعله، إنها أول مرة أعزف بها أمام أحد، لم يكن شخصًا أو ثلاثًا بل مجموعة هائلة من المستمعين، هل كنت أعزف حقًّا أمام كل هؤلاء؟ هل أعجبهم حقًّا؟

كلها تساؤلات أجبرتني على الوقوف محدقة بهم وهم ما زالوا يصفقون بحرارة، كانت الوجوه كثيرة لكني لم أكن أتخيل غير ملامح واحدة وبسمة واحدة، وعينين تشعان فخرًا بي، كنت أراها بهم بوجهها الحنون ونظرتها اللامعة بالحب الممزوج بالكبرياء في هذه اللحظة شعرت أني لست وحدي كانت تحضر بحضور نجاحي.

طفت على وجهي ابتسامة، ابتسامة صغيرة كانت قد استطاعت إحياء جزء بسيط من ملامحي .

عدت للمنزل متعبة مُخدرة ضعيفة وكأنني مشيت لمئة عام وأكثر، تأملت الفراغ الذي تركته والصمت المدوي الذي يهز أركاني.

احتضنت نفسي وتكورت في زاوية عسى أن أغفو كما كنت أفعل فأصحو وأنا في أحضانها .

****

موسكو العاصمة الرئيسية لروسيا، مركز السياح والحفلات والأسواق اليوم وأنا.

أنا واليوم

ذاته الفستان الأسود، بات قديمًا ومهترأ ربما أدخل عليه بعض التعديلات، لو كانت بجانبي لكانت أبدعت به كما كانت تفعل دوما بكل فساتيني المهترئة، لا بأس الأمر بسيط سأضيف له قطعة من الدانتيل وستفي بالغرض

لكني غيرت رأيي في اللحظة الأخيرة مكتفية به كما هو طالما هي ليست هنا لتُثني عليه أو تُبدي إعجابها.

يا ترى في أي شارع سألقى ازدحامًا أكثر، ولا بد أن أختار شوارع يشوبها أناس ذوو مستوى عالٍ كي أعود بمبلغ يفي بالغرض.

أعجبتني فكرة العزف بالخارج خاصة بعدما عددت النقود التي حصلت عليها في أول مرة كانت تعادل عمل نصف أسبوع كامل في الكافتيريا بعدما لاقيت ترحيبًا ونجاحًا حين عزفت لأول مرة في الساحة واندهشت بقبول الناس وإعجابهم بعزفي فكرت في الأمر لمَ لا أكرر الأمر؟ لمَ لا أفعل ما أتقنه؟ لمَ لا أُري الناس الجمال؟

كانت خطوة مربكة بعض الشيء، لكن لا بأس، أمي في داخلي لتطمئنني وأمامي لتهتف لي وخلفي لتدفعني.

وقفت لألقي آخر نظرة على المرآة فلم أجد سوى شبح أسود نحيل أنهكته الأيام يحاول أن يبدو بخير، صببت بعضًا من الماء للأقحوان الذي بقي ليخلد روحها وانطلقت للضوء.

أغمضت عيني لثوانٍ وأطلقت روحي على منصة الموسيقى، أجمل ما في الموسيقى كعازف كنت أو متلقٍ هي أننا نترك أرواحنا ترقص وترقص دون أن نشعر بالحرج، بعدها كنت هادئة كعادتي ساكنة بهيئتي هائجة بإحساسي ليمتزج الجنون بالانضباط ليعطي جرعة من المس الساحر تصيب أذنيك.

كانت جزءًا من مقطوعة قديمة تُسمى bella bonne sage المفضلة لدي أعزفها ليلًا نهارًا بمشاعرها الأربعة لذلك لم أشعر بالصعوبة وأنا أُزفها للناي.

لم يكن إجماع الناس كثير لكني لاقيت قبولهم مرة أخرى فابتسمت بهدوء وتوقفت لألقى الترحيب.

لم أكن قد عزمت العزف مرة واحدة اليوم فقد خصصت عدة أماكن للذهاب إليها وما زال هناك متسع من الوقت لإكمال الرحلة.

المرة الثالثة والرابعة

أعتقد أنه يكفي لهذا اليوم

لم يكن المبلغ الذي حصلت عليه كالذي توقعته؛ كان أقل بكثير لا أعرف ما السبب حتى إنها نفس المقطوعة.

عددت نقودي راضية ووقفت عائدة إلى المنزل، لكن صوت أحدهم أوقفني:

- ولأن الناي عزفكِ ولم تعزفيه اجتاز الرقي ليحلق عاليًا.

نظرت إليه متفحصة بارتياب، كان طويل القامة بمعطف أسود اللون يضيف هيبة لهيئته:

- شكرًا لك...هذا من حسن.....

لم أكمل شكري له حتى انصرف بسرعة شديدة، خاطفًا معه ملامحه التي لم ألحق أن أحفظها.

عُدت أدراجي وأنا سعيدة بتلك الكلمات التي نثرها ذاك الغريب في قلبي، أعتقد أني رأيته يومًا لكن أين لا أعلم.

لا أود العودة للمنزل الآن بالرغم من أني متعبة إلا أنني أفضل الجلوس في الهواء الطلق قليلًا.

هناك رائحة طعام شهية،،، إني جائعة، لا بأس ببعض القطع النقدية لوجبة غداء شهية، أنا لم آكل منذ فترة.

دخلت المحل وابتعت مما جذبتني رائحته، إنه لحم مدخن على الفحم سعره ليس غاليًا، لا بأس إن كان لحمًا من نوع آخر فهذا ما اعتدنا عليه.

السماء تبدو اليوم جميلة وساكنة، لا بد أني أمي تحوم بها فإني لم أرها يومًا بتلك اللمعة.

صوت زحام كبير وتجمع أناس، هذا يعني شيئين إما مصيبة وإما شيء مبهج نظرت من مكاني لكن الرؤية كانت تصعب من بعيد فحاولت الوصول قليلًا من التجمع:

كان إعلانًا كبيرًا عن افتتاح معهد تجريبي للموسيقى. تابعت النظر من بعيد أفكر.

مصاريف المعهد هنا باهظة جدًّا لا تقل عن أربعة آلاف دولار، إن فكرة الالتحاق بمعهد موسيقى هي حلمي، لماذا ليس من السهل أن أكون بينهم.

كم عليّ جمع المال لألتحق به حتمًا لو عملت ليلًا ونهارًا لن أجمع نصفه.

يا تُرى ماذا لو أخبرت روني؟ هل سيستطيع توفير المبلغ؟!!

لا طبعًا من أين سيأتي بهذا كله كما أنه ليس من الصواب أن أثقله باحتياجاتي.

ماذا أفعل؟! أود الالتحاق به بشدة هل لي بمعجزة من فضلك.....

لا يحدث شيء،،،

لم يحدث شيء،،،

لن يحدث شيء،،،،،

هل انتهى زمن المعجزات!!!

لقد سئمت، الرحمة

عربات السير، ازدحام الطرقات ودخان السيارات وجوهٌ كثيرة، الحركة سريعة وكذلك الدقائق.

أجرجر خيبتي ورائي عائدة إلى اللا شيء

ماذا أفعل؟ من أين أجلب المال؟

إن كنت أريد المعهد فيجب أن أجني المال، وأن أردت المال فيتوجب عليّ العمل أكثر، هل أعود للمقهى؟! لا أعتقد أن العزف وحده قادر على توفير المبلغ.

لكن المقهى هدر للجهد لا أكثر سأبحث عن مكان أفضل.

نظرت إلى رغيف اللحم الذي لم أتناوله بعد، لقد ذهبت شهيتي فتركته بجانب فتاة تبيع المناديل بعد أن ابتسمت لي معبرة عن الشكر لأعود إلى المنزل.

****

- للأسف لا نحتاج إلى عمالة
- إن سِنّك صغيرة على العمل.
- العدد مكتمل.
- ما رأيك أن تجني مرتب شهر كامل مقابل ساعتين فقط.
- لا نحتاج فتيات للأسف.
- نحتاج فتاة نعم لكن بعد شهرين يمكنك معاودتنا حينها إن رغبتِ.
- إذًا تقولين إنك تجيدين فعل أي شيء هل الجنس ضمن القائمة يا فتاة؟

إنها بعض من الردود التي لاقيتها اليوم يبدو أنني لن أجد عملًا بسهولة يا رب لقد فعلت ما عليّ فعله ماذا أفعل يا ألله ساعدني.

****

عزيزتي ديم لطالما أحببت وصايا فادي عزام لكن واحدة منها هي أقرب لقلبي لذلك أوصيك بها أيضًا:

- "ليكن لديك دائمًا مشروع جديد لتبدئيه، الحياة تبدأ بعد الزواج وتبدأ بعد الطلاق، ما دمتِ تتنفسين هناك دائمًا بداية.. لا تقولي أبدًا لقد انتهيت".

هذه هي نصيحته التي أحببت مشاركتها ولتتذكري يا ديم في اللحظة التي يتركك العالم كله وتُطفئ الأنوار كلها بوجهك وتواجهين الخذلان تذكري أنك لم تأتي إلى حلبة الحياة لتلقي الصفعات وتستسلمي، هناك شيء ما ينتظرك، هناك شيء جميل لامع مضيء مندثر وراء الظلمة فقط تابعي. أحبك ومعك أبدًا .

كانت رسالة ورقية قديمة وجدتها بأعلى خزانة الورق، كان هناك حزمة كبيرة تحتوي على عدة رسائل كلها، منها لا أعلم متى كتبتها لي، كلها تبدأ بعزيزتي ديم.

كورت نفسي على الأرضية محتضنة الأوراق وغفوت لأصحو على صوت ضجيج يعم الأرجاء قفزت من مكاني لأرى ما الأمر.

كان روني، لكن مع من يتشاجر؟

لم أكن أعلم ما الذي عليّ فعله فقط ارتديت حذائي وخرجت مهرولة.

أصوات عالية وتحطيم، الكثير من الناس يتزاحمون للفكاك بينهما لكن عبثًا، روني كان يندفع بقوة والآخر لا يكف عن تسديد اللكمات.

بدأت أصرخ وأنا أبكي كطفلة صغيرة فقدت والديها وما زالت المشاجرة مستمرة.

****

قالت بعد أن فرغت من تنظيف يديها:

- تود قليلًا من الشاي؟

- حسنًا.

- ألن تخبرني سبب مشاجرتك مع ذاك المفترس؟

- ديم أخبرتك لا تفتحي هذا الموضوع ثانية من فضلك.

- لا بل سأفتحه أريد أن أعرف لمَ كل هذه المشاحنة روني ما خطبك هيا أخبرني.

بصوت عالٍ نهرها:

- قلت كفى، اصمتي.

هذه أول مرة يرفع روني صوته عليّ لقد أخذ أشياءه وذهب مع أنه كان قد أتى من سفره اليوم فقط لماذا فعلت ذلك يا روني؟

كل ما يحزنني أنه لم يُصرح بسبب مشكلته في الحي واكتفى بالصمت وكأنني شخص لا يعنيني أمره، لم يزعجني تعصبه وصوته العالي بقدر ما أزعجني تجاهله. لقد رحل حتى من غير أن يودعني.

وداع ما هو الوداع

ذاك الوداع الذي أخذ مني أمي دون أن أحتضنها، حتى دون أن أخبرها أنني أحبها أكثر.

ذلك الوداع الذي لم أرَ به صورة والدي حتى الذي لا أعرف أين هو ولا أين ذهب ولمَ لم يُكلف نفسه جُهد البحث عني، البحث عن ابنته التي لم يُسجلها باسمه حتى.

ابنته التي لا يكف الخلق عن إلقاء نظرات العار والسخرية عليها .

وداع ما هو الوداع؟

هل هو حضن دافئ طويل يشعرنا أننا سنكون بأمان؟ أم أنه تربيتٌ على ظهر يشعرنا بالقوة؟

هل هو شد على عضد يد يخبرنا بأننا سنشتاق.

أم أنه نظرة حنون ممتلئة بالدموع تُظهر مدى حاجتنا للعودة مجددًا
حقًّا أنا لا أعرف
أنا أعرف الوداع كمفردة لغوية درسناها في المدارس ليس إلا، أنا لم أواجه إلا مفاجأة الذهاب من غير تلويح
ليس عندي حتى من يخبرني أنه لا بأس بالوداع
لست مستاءة قد تعودت
لقد نشأت هنا في بيتٍ يفتقر لكل شيء رغم محاولات أمي في إعطاء كل شيء حقه إلا أنني دومًا كنت أشعر أن هناك شيئًا كبيرًا أفتقر له كفنان يبحث عما ينقص لوحته، شيء لا يعرف ماهيته لكنه موقن إن وجده فستغدو اللوحة مكتملة
ربما هو دفء وتوازن الأسرة التي لم أنعم بها
ربما هي الصحبة التي كان جميع فتيات وفتيان مدرستي يتقاسمونها إلا أنا.
فقط كنت بصحبة تلك النظرة السوداوية الدنيئة التي يرمونني بها وكأنني مغلفة بالعار كوني عربية غريبة عنهم.
تلك الضحكة الهزيلة التي يطلقونها حينما أقترب لألعب معهم فيدفعونني بها بعيدًا، والمدرسون أنفسهم لم يكونوا يكنون لي الحب بل نفس النظرة، لذلك كرهت المدرسة وكرهت كل ما يتعلق بها.
أيقنت وقتها أنني يجب أن أكون وحدي دومًا، أخبرتني أمي ألا أعبأ بهم لكنه كان خيارًا صعبًا.
بدأ تحصيلي الدراسي ينخفض أكثر فأكثر حتى بدأت أواجه المتاعب أكثر.
بعد موت أمي تغيبت عن المدرسة فجاءتني عدة إنذارات من المدرسة لكني لا أهتم، لا شيء عاد مهمًّا لي. وكأن العالم ينطفي في عينيك فجأة.
بدأت الأيام والساعات والدقائق تمر عليّ ولا أمر بها

****

برحيلها شعرت أني فقدت كل شيء، هل يمكن لعنصر واحد أن يفقدك الطبيعة كلها؟ هذا ما حدث أصبحت كفنان فقد كل ألوانه فمزق اللوحة.

كنت أحتاج بعض الوقت أو بعض الإدراك لأستطيع تلقي النصائح المُثقلة على قلبي؛ أنه لا بأس أستطيع أن أمضي وحدي.

وحين بدأت بفتح عيني مجددًا كنت أراها في كل شيء، أدركت حينها أنه لا بأس حقًّا، صحيح أن الموت هو أكثر الأمور بشاعة لكن ليس بذلك الشر حتمًا فقد أتاح لروحها الطوف حولي وبجانبي وبي .

سأخرج أتمشى قليلًا، إن قلبي يحتاج بعض الهواء النقي لقد أثقل بالتلوث.

الطرقات هي الطرقات، الوجوه هي الوجوه إنه فقط الشعور مَنْ يختلف.

أحيانًا نكون نمشي بلا وجهة بلا خريطة بلا تفكير فنتفاجأ بأقدامنا توصلنا لمكان محدد، مكان نحبه، مكان نرى أنفسنا به.

وجدت نفسي عند معهد الموسيقى، لم أستطع الدخول فظللت جالسة أمامه أحمل أملي لأن أكون به يومًا أتلقى الدروس التي أحبها، أجلس مع أفراد أكون منتمية في شيء معهم نتبادل الأفكار والحلم الواحد.

أرى نفسي أعزف الجيتار، الكمان، والفلوت، أنغمس في الموسيقى وتنغمس بي.

لطالما كان التحديق في الوجوه عادتي، هذا بائس وهذا يتألم وذاك سعيد وذاك لديه نظرة حب، كنت بعيدة عن الناس جدًّا فحاولت قراءة وجوههم من بعيد، من البُعد الذي لا يستطيعون هم رؤيته.

ظللت على هذا الحال قرابة الساعة أو أكثر لا أهتم فالوقت ما عاد يعنيني كثيرًا.

فكرت في إكمال طريقي للبحث عن عمل.

المزيد والمزيد والمزيد من الأبواب المقفلة.

الرحمة، ما هذا؟؟؟ أليس هناك مكان واحد يريد عمالة؟!

ما عاد أمامي غير العودة وأنا أجر خيبتي ورائي.

ماذا أفعل؟ هل أعود لذاك المكان المقفر؟ هل أعود لغسيل الأطباق ومسح الأرضيات وتقديم الطلبات وتلقي وابل من الأوامر يوميًّا من أجل دولار بخس.

لا لن أعود مهما جرى، لن أكمل حياتي في تلك الزوايا المتسخة، لن أعود أبدًا.

في اليوم التالي كنت قد بدأت يومي مبكرًا، بدأت بتلميع الأرضية وترتيب المكان، غسيل الأطباق وتكملة الطلبات التي لا تنتهي، نعم عدت للمقهى مجددًا

أسوأ شعور حين تتخذ موقفًا حتميًا في يومك لتستيقظ في اليوم التالي للتخلي عنه، لم يكن لدي أي خيار آخر فلن أظل دون عمل.

كان يومًا متعبًا كغيره، اختلافه فقط أن الألم في جسدي اليوم يفوق النفسي وكأنهما يتنافسان على من يتملكني أكثر.

جسدي منهك للدرجة التي جعلتني أنام نومًا عميقًا. عميقًا جدًا، منذ فترة كبيرة لم أصَب بالنعاس، أعتقد أنه الجزء المريح الواحد في يومي إنه عدم الوعي.

لقد مرّ أسبوع كامل لم يتصل روني ولم يمر ليطمئن، لقد أحزنني جدًّا رحيله هكذا وأنا لا أعلم سببًا للرحيل حتى.

معهد الموسيقى كان يتطلب مالًا كثيرًا ولن يساعدني به أحد لذلك قررت رسم خطة، سأخصص أموالي التي أخرج منها من عمل المقهى وأجمع أكبر عدد من المال لتسديد تكاليف المعهد، أما في يوم الإجازة فقد وجدت عملًا كمربية طفل من الصباح وحتى منتصف الليل.

لم يكن العمل صعبًا جدًّا ولا هو بالهين فهي أول مرة أتعامل بها مع رضيع، وأصبح يوم السبت المحبب لي فأذهب لمدام كيرا ونجلس دقائق لإعطائي تعليمات عن الدواء والطعام وما غيره وغالبًا ما يكون الصغير نائمًا فأقوم بالاستمتاع بالتلفاز وهو تجربة لم أعِشها سوى عندها، أو أقوم بتناول وجبة خفيفة أو المرح مع أرم حين يصحو، إنه جذاب كوالدته بالضبط يمتلك شعرًا ذهبيًّا منسدلًا، وعينين خضراوين وضحكة طفولية جذابة، لأول مرة أشعر بالحب من الغرباء، كانت مدام كيرا تعاملني كواحدة من أفراد العائلة والصغير كان مرتاحًا معي جدًّا وقليلًا ما كان يبكي وهذا ما أثار إعجابها فاطمأنت عليه معي.

روني كان يزورني من حين لآخر لكنه لا يقطن كثيرًا من الوقت وأنا لم أشأ أن أسأله.

بدأت حياتي تتحسن بمعنى أني أصبحت أصحو من نومي بقوة، بعزيمة لأنهي ما بدأته.

لقد قمت بتحصيل مبلغ جيد لالتحاقي بالمعهد مما زاد من إصراري للمتابعة خاصة بعد تسلمي جواب فصلي من المدرسة بسبب غيابي المتكرر.

لم تكن صدمة لي فقد تسلمت عدة إنذارات قبل ذلك كما أنني لست مهتمة بالتعليم، كيف لي أن أحترم تعليمًا لم يحترمني يومًا، لا يعاملني بمكانة عادلة فلم يكن للأمر تلك الأهمية إلا أنه جعلني أشعر أني منبوذة أكثر، منبوذة من كل الأماكن .

****

عزيزتي ديم أحبك،،، أما بعد،

ففي فيلم(cast away) للعبقري Tom Hanks الذي سقطت طائرته في حادثة.. وانعزل على جزيرة نائية لسنوات وحيدًا، قاوم ليظل حيًّا، ورسم على كرة وجهًا، وسَمّاها Willson واتخذها صديقًا، حارب كي لا يستسلم مُتَخَيِّلًا أنه على الضفة الأخرى مَنْ ينتظره، زوجته التي يحبها، وحياته السابقة، هذا التخيل كان حافزًا قويًّا؛ ليبني قاربًا ويسبح في المحيط ويعود لأرضه وينجو بنفسه ويرجع من الموت..

لكن ماذا وجد؟؟

أصدقاء اعتقدوا أنه مات، وزوجة بكت عليه كثيرًا ثم تناست ثم نست وأحبت وتزوجت غيره وأنجبت..

وهو الذي كان يملك صورتها فقط في عزلته يسامرها يوميًّا ويحارب لأجلها، فلما عاد لم يجد ما توقع، لم يكن هناك من يبحث عنه.. تخيلوا موته وأقاموا عزاءه واستمرت الحياة!

لذلك أريدك أن تعلمي جيدًا أنه لن ينتظرك أحد طوال الوقت، وغالبًا من تبحثين عنه لا يبالي بك.. وهذا هو المغزى؛ أن تبحثي عن نفسك وبنفسك ولنفسك..

هذا هو لُب الأمر، افعلي كل شيء من أجلك فقط..

تألقي

قاومي لأجلك أنت فقط

أحبك ومعك أبدًا .

*****

(الفصل الخامس عشر)

لقد مُت منذ بعيد لكن جسدي مولع بممارسة التمثيل.

كنا قد حددنا أنا ويزن موعدًا ليأتي ويقابل أهلي ليأتي ويبني كلامًا جادًّا يبني عليه مستقبلنا الآتي، يأتي جالبًا معه ابتسامة تُحيي قلبي، يأتي ويأخذني بيده أمام الخلق باطمئنان، يأتي لكي أصبح ملكه وعائلته وزوجته وعالمه وصباحه ومساءه، يأتي لنتقاسم المنزل والغرفة والسرير لكنه لم يأتِ بعد.

****

العمل، البيت، الجامعة، ومن ثم العمل والبيت والجامعة، وهكذا دائرة لا تنتهي ولا أنتهي معها.

أود أن أعرف شيئًا واحدًا؛ لماذا رحلت هكذا؟ بهذا الغموض، بهذا الألم لو أخبرتني فقط لو بررت فعلتك لو أخبرتني أنني لا أصلح لك، بأنك كنت تنوي الذهاب، لكنتُ قد غفرت لك لما كنت واقفة الآن بالمنتصف، منتصف الألم، منتصف الإدراك، منتصف الفراق.

كنت دومًا تخبرني أنك تعشق البحر وكنت أتبعك دومًا بأنه مخيف، كنت تقول إنه مثير كالحب وكنت أتبعك أنه قاسٍ كالفراق. أتعلم؟ أجمل ما في البحر والحب أن لا حد لروعتهما وكذلك ما من مأمن لغدرهما.

كنت تعلم جيدًا أن قلبي قد امتلأ بك فوليت راحلًا ببساطة.

أنا التي جعلت لك مدينة في قلبي تقودها أفكارك، يجتاحها هواء أنفاسك، وتعزفها موسيقى ضحكاتك، شيدتها أنت وهدمتها أنت وهجرتها أنت ولم تتركها ذكراك بعد.

****

اسمح لي أن أكتب وأخط لك على ورقي باللون الأسود وأبعثر مشاعري ومن غير تواريخ فكل الأيام باتت واحدة، وكل الدقائق هي الأمس والحاضر وغدًا، لقد توقفت ساعتي عند آخر مكالمة وآخر لقاء وآخر لمسة يد وآخر همسة قلت لي بها إلى اللقاء.

لا تصدقني أن قلت لك إننا انتهينا فهل الحب ينتهي.

أنا لم أشأ أن أتبنى الفراق لعلاقتنا.

فلم أقم بحرق ذكرياتنا بعد ولم أبكِ ولم أطلق حدادك بعد، قد نلتقي، قد أعانق ظلك تحت شجيرة ما أو ألامس روحك في أغنية أو أدفن رأسي بصدرك في حلمٍ ما فيصبح كابوسًا يراودني حين أستيقظ ولا أجدك به.

كيف أخبرك بأن هذا الوقت ينهش صدري كما تنبش فأس قبرًا مر عليه دفن طويل.

هذا الشعور يسحقني، يكبلني ويأكلني.

إنني متروكة كطفل في أول ليلة لفاجعة موت ينتظر عودة الجثة، هكذا أنتظرك لكنك لا تأتي. وكأنك معجون من يأس.

اليوم وصلتني رسالة منه، أمسكت هاتفي وعيناي تتسابقان لتهبط على كلماته فهو لا يجيب على مكالماتي منذ فترة.

فتحت الرسالة بسرعة فكانت قليلة الحروف عميقة الأثر

(آسف، والداي يرغبان بحفيد)

ارتمت على السرير وهي تردد "حفيد "

بعثت له رسالة وهي تحاول المحافظة على اتزان رجفة أصابعها:

- كنت أظن أنك لا تمانع، ألم تقل إننا لن نحتاج لأبناء؛ فقط الحب! ألم تخبرني بذلك؟!

أجابها هذه المرة بسرعة:

- لم تخبريني من البداية أنه تم استئصال رحمك، أنا لم أكن لأعلم لولا أن رأيت تلك التحاليل التي تثبت ذلك.

- لقد أخبرتك يا يزن، أخبرتك أنني لا أستطيع أن أكون أمًّا، ما الذي فهمته من ذلك.

- ظننت حينها أنك لا ترغبين بالأطفال لم أكن أعلم أنكِ عاجزة.

- عاجزة!

****

لدي رغبة قوية في الكتابة إليك دومًا

نفس مقدار تلك الرغبة قوة تمنعني من الكتابة إليك

فأظل جالسة في منتصف نَصّ، لا أعلم هل أضع فاصلة أم أمزق الورقة.

****

لا أعلم ما الذي يجعلني متمسكة به هكذا!

كم مرة أخبرني بها أنني أحتاج خبيرًا نفسيًّا، كم مرة أخبرني أنني مهووسة بالتمثيل، مزيفة وغير حقيقية.

ربما كان حديثه صحيحًا فلطالما كنت قطعة البازل التي تحاول أن تجد لها مكانًا شاغرًا حتى لو كان ادعاءً.

أصبحت شخصًا لا هم له سوى إرضاء الآخرين وارتداء اللون الذي يعجبهم، كائنًا ممزقًا يحاول أن يصبح القطعة الناقصة لأي أُحجية تقابله، يبذل كل ما في وسعه مقابل شعور واحد بالانتماء، مقابل لحظة واحدة يشعر بها أنه يشغر مكانًا في هذا الكون.

منذ قرر والداي الانفصال وأنا أجدني عصية عن الالتئام والالتحام في أي بيئة، كنت اليتيمة في ضيافة والدين بيولوجيين.

وهكذا استمر الأمر وحينما فشلت في إيجاد مكان لي بينهما بدأت انضم لأي مكان فارغٍ اعتقادًا أنه حين يكتمل ستكتمل تلك المساحة الصغيرة التي سلباها مني للأبد.

اعتقدت أنني سأتشافى بك لكنك لم تكن إلا مشرطًا فتح جرحًا غائرًا دون خياطته.

****

لا أنكر بتاتًا أن شخصيتي يشوبها الخلل، مساحات الخجل والحرج، كُنت أواري ذلك بالقوة، بالكتمان، بالإنكار، حين وجدت الحب فيك يا يزن انهمرت بك بكل قوتي وبكل ضعف.

لا أنكر أنك كُنت تستشعر مني بعضًا من البعد اللا مفهوم وقد بدأت المسافة بيننا تزداد يومًا بعد يوم.

كُنتَ تكره كتماني، تحفظي في حديثي، عزلتي، عدم مشاركتك آلامي والإساءات التي وجهت إليّ، كنتَ تريد رؤيتي دون مساحيق تمثيل، أن تراني حقيقية كما أنا، ترى الضعف والازدواجية، ترى تلك الحقيقة التي بلا شك ستبعث بك النفور والتقزز لذلك كنت أهرب من الحميمية والقرب عبر الادعاء والكذب أو عبر تصدير صورة لامعة مني أحرص ألا يفضحها الصدأ .

****

أمسكتْ بقلمها وخطت به على ورقها:

وماذا بعد،

لا أنت حزين ولا أنت مكتئب، لكنك لست بخير، أنت من الأساس لا تحب الحزن وترفض كل أشكال الاكتئاب لكنك هذه المرة حقًّا تعاني.

يومٌ آخر انتهى لا يختلف كثيرًا عن الأمس وبالتأكيد لن يختلف كثيرًا عن الغد، ومع ذلك ما زلت تنتظر، وشعور أنك لا تعرف ما تنتظره وهل هو آت أم لا ليواصل الانتظار في نهش قلبك بلا رحمة.

الغربة لا ترحم، غربة كل شيء حولك، غربة أن تكون بعيدًا عن كل ما تحب، عن أصدقائك وأهلك حتى نفسك.

رغبة الهروب تزداد تدريجيًّا، أصبحت لا تفكر إلا في الخروج من هذا النفق المظلم، في الهروب من كل شيء فقط.

ولكن أين أنت، أنت حتى لم تعد قادرًا على فهم ما يدور بداخلك.

الكتب لم تعد تعجبك وكأنك فقدت القدرة على القراءة وأغنيتك المفضلة تسمعها للمرة العاشرة دون أن يهتز قلبك لها.

الوجوه متشابهة وكل الكلمات مكررة بشكل بارد.

أمامك فنجان القهوة الخامس وها قد برد مثل روحك تمامًا.

أود أن أعرف ما الذي يجعلنا شاردين بطريقة مريبة نحو اللا شيء.

نوم مضطرب كل ليلة، نستيقظ كل يوم لكي نتحلى بالشجاعة ونعطي أنفسنا فرصة للمعاودة ثانية ولكن أسفاه نحن نستيقظ لننام مجددًا

****

ما زلت التمس لك الأعذار وربما لن أتوقف عن ذلك.

طوال عمري كنت أرى أنني دون جذور، دون بيت، لاجئة تبحث عن وطن يقبلها ويمنحها الانتماء، كان يساورني شعور واحد عميق أنني شيء إضافي وثانوي مقتحم ودخيل، حتى التقيتك.

قرأت أن الإساءة كلها (جرح هجر نفسي) للبيئة الحاضنة التي لم تؤدِ إلا لمنحنا خوفًا مستمرًّا ونوعًا آخر من التهديد.

وإنه جزءٌ من التعافي يكمن في الحصول على علاقة شافية بديلة لتلك التي هجرتنا.

وهل تعلم ما الذي حصلت عليه؟!

نوع آخر من الهجر فتح جرحًا أعمق في صدري.

****

مئات الأوراق وآلاف الكلمات والأحرف تتصاعد وراء بعضها البعض كأنها تبني جسرًا لتتمكن روحنا من العبور خلاله، نحن نكتب ونكتب ولا نتوقف لأنه مع كل حرف نخطو به هناك أسطر تنتظر بشوق لمسات من حبرٍ اشتاقت له، همسات بين القلم وأسطر أوراقي تتلو أحاديث وكأنها تتعانق بعد غياب طويل لتتبادل قبلاتها الحارة .

هناك شيء بل أشياء لا نستطيع شرحها أو حتى إننا نعجز عن إيضاحها أو ربما أشعر أن ذلك الإحساس الذي لا يشعر به سواك كتلك الشهقة التي ظلت مكتومة في صدرك، لو تُفسح لها الطريق للخروج فقط لانطلقت على هيئة دموع تصارع أمواج البحر في اندفاعها.

ويظل هناك دومًا لحن ونحن نكتب يعجز سوانا عن سماعه،

سيمفونية تعزف نفسها وتعزفنا .

كنت أردد دومًا: أنا كالشجر لا أنحني، لم أعلم أن الشجر ينكسر جيدًا بكل قسوة .

****

متعبة جدًّا وحروفي باتت مهترئة جدًّا لتحمل جزءًا من ألمي لتسكبه على سطوري.

تعبت من الابتسامات المزيفة، من خطواتي الثابتة رغم اهتزاز أرضي.

تعبت من حملي دومًا

لا أعلم إلى متى سأستمر بهذا

متعبة جدًّا وكأنني في كابوس طويل لا أستيقظ ولا أعلم ما المرعب في هذا هل هو عدم الاستيقاظ أم أنه ليس كابوسًا وحسب.

حتى البوح أصبح متعبًا، متعبًا جدًّا وكأن حواسي كلها تتبرأ مني، عيني، وجهي، ثغري، وقوامي كله شامخ متزن مشرق كأنه ما انطفأ يومًا، أدعي السعادة وأتناول حبوب البهجة كل يوم سرعان ما أستيقظ، أرسم بسمتي العريضة قبل وضع أحمر شفاهي الزاهي وأنثر البهجة على من حولي كنثر بخات العطر على رقبتي .

أتمايل ببهجة ليحسبني الناظر فَرِحة ووحده خصري من يعتصر ألمًا.

أكتب وأنشر التفاؤل والعبارات المطمئنة لهذا وذاك وأنا خائفة من أن أطيل النظر فيما كتبت فتسخر حروفي مني.

أعود للبيت وأرتمي بحضن خيبتي لأنزع كل مستحضرات البهجة التي كلفت روحي بها عمدًا.

لأتنهد بين السطور فحتى صوتي يخاف إصدار تأوهٍ واحدٍ خوفًا من آذان الجدران

أو ربما من آذان كبريائي التي ترفض سماع كلمة متعبة مني .

تعبت، ويا خوفي أن تتبرأ الحروف من حزني أيضًا

فلا أجد لي ملجأً واحدًا بعد ولا مصطلحًا سطحيًا كان أو عميقًا أدس خيبتي فيه ولا قاموسًا فقيرًا يشرحني .

فأموت وأنا أُلمع حبات السعادة ووحدها روحي صدئة.

****

(الفصل السادس عشر)

وحدهم الأصدقاء الجيدون يصلحون كجرعة للتعافي من عالم مُضجر.

هذا جيد لو ظللت على هذه الخطة فسيكون قد تبقى بضعة أشهر لإكمال المبلغ المطلوب، وأخيرًا أقترب من مبتغاي وسألتحق بمعهد الموسيقى.

جاءني صوت نداء من المدير

أتمنى ألا أكون ارتكبت خطأ ما

أُسرع مهرولة عبر الطرقة بعدما جففت يدي من آثار غسيل الأطباق:

- أنا هنا سيدي.

استدار بكرسيه يخاطبني:

- يبدو أنك لن تستمري في العمل معنا يا ديم يؤسفني ذلك جدًّا ولكنك تستحقين ذلك.

أصابتني الدهشة ورُبط لساني فلم أعد أستطيع التحدث بسهولة وتكدست بعض الدمعات بعيني رغم أني لا أطيق هذا العمل إلا أنني أصبت بصاعقة جراء هذه الكلمات، حبست أنفاسي لثوانٍ وقلت بتعلثم:

- لكن،،، لماذا سيدي؟! هل قمت بشيء خاطئ، أعطني فقط فرصة أخرى.

بضحكة تخللتها ملامحه:

- لا تقلقي الأمر ليس كذلك؛ ستتركين المكان هنا لأنك حصلت على ترقية في مكان أفضل، فندق لصديقي، العمل متعب قليلًا في البداية لكن الأجر جيد جدًّا، وكنتِ أنت من رجحتها لهذه الوظيفة كما أنكِ ستتمكنين من سداد تكاليف الدراسة بسهولة، كما ستتضمن إقامتك هناك مصاريف المأكل والمسكن.

أجبت باستعجاب:

- إقامة؟!

- نعم إقامة فهو ليس بموسكو إنما بسانت بطرسبرغ يمكنك استقلال القطار.

رددت بعدما شردت لثوانٍ:

- لكني لم أذهب لسانت بطرسبرغ يومًا، إنها رحلة سفر بعيدة.

رفع حاجبه العريض قائلًا:

- كنت أعتقد أنك لا تودين إكمال حياتك في غسيل الأطباق يا ديم.

****

في الخامسة صباحًا كنت قد أعددت كل ما هو ضروري وكل ما أحتاجه، وخريطتي التي سأصل بها إلى وجهتي.

الحافلة أولًا التي أنزلتني عند أول قطار ذاهب إلى سانت بطرسبرغ

هذه أول مرة في حياتي أستقلّ القطار وإنها لأروع تجربة حظيت بها، إنه يمتلك نكهة خاصة فعلًا، أخبرني قاطع التذاكر أنهم يحافظون على الطابع السوفيتي حيث تتوزع الأسرّة بشكل منتظم على طبقتين متقابلتين، ويقدم الشاي بكاسات زجاجية داخل قوالب حديدية تقليدية وأنها تمتلك ميزة تمتع المسافر من مناظر الطبيعة الروسية الخلابة خاصة منطقة القرى حيث تتوزع بيوت صغيرة ملونة على مساحة شاسعة من الأرض المسطحة التي تقطعها العديد من البحيرات والأنهار وهذا لا يقتصر على تجربة (السابسان) القطارات الحديثة حيث إنه من متطلباتها الحداثة والسرعة بعكس القطار التقليدي.

لم أعانِ كثيرًا في أخذ مكانٍ لي في أحد المقاعد واخترت الجانب الأيسر المطل على النافذة، وضعت حقيبتي بجانب قدمي فلم يكن بها الكثير من الحاجيات لتأخذ مكانًا أكبر.

كان قرارًا صعبًا بعض الشيء بالنسبة لي أن أترك مكان عملي وبيتي وأرحل لمكان لا أعلم عنه أي شيء مطلقًا سوى أن الأجر أفضل، إنها مغامرة عالية وقد قفزت لها بأقصى سرعة.

بدأتْ عجلات القطار في التحرك معلنةً في صوت اهتزازها بدء رحلتنا، كنت أعتقد أن الرحلة ستكون هادئة مريحة، لكن الصوت كان عاليًا جدًّا يُصيب المرء بألم في الرأس كما أن هناك رائحة غريبة تفوح من المكان اعتقدت أن كوبًا من الشاي الساخن الذي يقدمونه هنا سيحل الأمر لكن طال انتظاري على لا شيء.

كنت أتمنى أنه لو بإمكاني إخراج الناي والبدء بالعزف فهذا سيشعرني بالارتياح قليلًا لكن للأسف هذا صعب.

أنا الآن عند جادة ليغوفسكي بروسبكت في وسط سانت بطرسبرغ، على بعد ١٠٠ متر من محطة قطار موسكو، إن المدينة تبدو واسعة كثيرًا أضاف لها كبرها لي شيئًا من الخوف.

كان عليّ الآن انتظار الحافلة التي ستقلني إلى الفندق، بدأت عيناي تحوم يمينًا ويسارًا للبحث عنها لم يتجاوز الوقت خمس دقائق حتى وصلت حافلة باللون الأحمر الوردي كبيرة الحجم وتوقفت بالقرب من المحطة على بعد عدة خطوات مني فبدأ بعض الشبان بالتقدم. حملت حقيبتي وأخذت نفسًا عميقًا وتقدمت، بنظرة سريعة ألقيت نظرة على من داخل الحافلة، كانت قد بدأت تزدحم بالشبان والفتيات الثرثارات التي كان صوت ضحكاتهن يتعالى شيئًا فشيئا.

وجدت مقعدًا فجلست أمارس عادتي؛ التأمل في ملامح الآخرين، لم يكن الجالسون حاملين بؤس تعب أو حزن؛ كان الجميع يغني ويضحك ويلقي النكات، لا أعتقد أنهم يشبهونني فعلًا، هناك جزء في وجوههم يكسوه الترف.

قطع شرودي المفاجئ صوت الفتاة التي تجلس بجانبي صدمني، جمال وجهها ورونقه ببشرتها البيضاء والعينين الخضراوين والشعر الذهبي اللامع.

أربكتني حين التف وجهها نحوي:

- لماذا لا تشاركينا المحادثة، أنا ريكا أهلًا بكِ.

كان صوتها رقيقًا جدًّا تتخلله بحة أضافت له مزيدًا من الفتنة، رددت باستحياء:

- وأنا ديم أتيت إلى سانت بطرسبرغ للعمل.

ردت بفرحة:

- حقًّا؟ أنا أيضًا هنا بهدف العمل، سنكون صديقتين إذًا هنا.

وقعت الكلمة عليّ وقع الرصاص في قلبي؛ هل قالت لتوّها صديقة؟ نعم قالت صديقة، إنها توجه كلامها لي وأخيرًا سأكون صديقة.

قاطعت ريكا محادثة عقلي بشيء من التعجب:

-هل قلت شيئًا خطأ أزعجك؟

- لا بالعكس يسعدني أن نكون أصدقاء.

أكملنا الرحلة نتجاذب أطراف الحديث عن كل شيء تقريبًا، كنت أتغاضى الحديث عن عائلتي ونشأتي، لقد قررت ترك مأساتي جانبًا فليس لدي حتى شيئًا أتباهى به.

بينما كان الجميع يتحدثون عن الأشخاص الذين لا يتوقفون عن مدّ الدعم لهم كنت أنا صامتة، فعن من أتحدث؟

عن والدي الذي ترك أمي ورحل؟ ترك أمي وابنتها الرضيعة من غير تفسير واحدٍ؟ من غير كذبة ساذجة حتى يبرر بها فعلته؟

عن من أتحدث؟

لا إخوة، لا أصدقاء، لا أهل، حتى روني، روني الذي اعتقدت أنه الوحيد الذي يهتم لأمري لم يعد يزورني كثيرًا، لا أعلم ما الذي أصابه، لا أعلم أين ذهب روني القديم، روني الذي لا يكف عن الاهتمام بي وتقديم الحلوى ثم مدي بالدعم كلما احتجته، روني الذي فتحت عيني عليه، فمن بعد وفاة أمي بدأ في التغيير حتى جاء في آخر مرة ودبّ عراك في الحي فلم يخبرني بالأسباب وبدأ أسلوبه يتغير مئة وثمانين درجة حتى عندما أخبرته برغبتي في السفر لفرصة عمل جديدة لم يحرك ساكنًا وإنما ظل صامتًا لفترة ثم استفسر عن مكان العمل وماهيته وتمنى لي التوفيق لا أكثر....

روني الذي كان لا يكف عن الثرثرة معي، لا يكف عن المزاح الثقيل، إن تدربت على لحن جميل كان أول من آخذ برأيه، إن قررت اتخاذ قرار ما كان أول من أذهب إليه، كان بمثابة كل شيء بالنسبة لي بعد أمي لكن لا أعلم ما

الذي حدث، لا أعلم حقًّا.

لم يكن محزنًا لي تغيره المفاجئ بقدر ما كان محزنًا أنه لم يخبرني ما جعله يتغير.

كنا أنا وريكا آخر من وصل الفندق فلم يكن السكن في غرفة معًا من نصيبنا، تقاسمتُ الغرفة مع ثلاث فتيات أخريات، كان هناك أربعة أسّرة، كان نصيبي آخر سرير في الأعلى، أخذت جولة سريعة بعيني في الغرفة فشعرت بالارتياح بغض النظر عن صغرها إلا أنها كانت منظمة، هناك أربعة أسرة بمفارش ناعمة مبهجة ومنضدة صغيرة وضِعَ عليها باقة من الورد المجفف ونافذة صغيرة تطل على الحديقة الخلفية وحمام صغير جدًّا لكن لا بأس.

ويمكنني قول إنه يوجد مطبخ إذا كان الرف الموجود عليه بعض الكؤوس والأطباق هذه هي وظيفته. لقد كانت الفتيات في غاية التهذيب واللباقة معي فقد طلبن مني أن أتقاسم الشاي والكعك المحلى معهن، كما قمن بإرشادي ببعض الأمور التي لن يخبرني بها أحد ويجب عليّ اتباعها فالمكان هنا منفتح في العلاقات إلى أبعد مدى ويجب أن آخذ حذري في هذه الأمور.

جلسنا نتسامر الأحاديث ويعرفنني بهن فشعرت بارتياح أكثر في التعامل.

قالت بحرج وهي ترجع خصلات شعرها وراء ظهرها:

- كنت قلقة بعض الشيء في ألا أتقن التعامل هنا.

ردت بابتسامة لبقة:

- لا تقلقي سنعلمك كل شيء، تبدين صغيرة كم عمرك؟؟

- ثمانية عشر.

قالت ليدا بضحكة:

- يبدو أنه سيكون لدينا أصغر أخت في الفندق.

****

اليوم كان أول يوم لي ولم أجد صعوبة في فهم تكتيكات العمل بصفتي لدي خبرة لا بأس بها بالمقهى، عند السابعة صباحًا كان قد بدأ الدوام ليومي الأول قد سلموني كباقي الفتيات زيًّا موحدًا عبارة عن ثوب أسود يتوسطه شريط أبيض اللون وحذاء ذي كعب متوسط، كان عملي هو جر عربات من الطعام لأمررها للزبائن وأن ألقي بالابتسامات على كل من يصادفني وحين ننتهي من تقديم الطعام على الطاولات نبدأ في استرجاع الأطباق الفارغة وتوصيلها إلى المطبخ الداخلي لكي تُغسل ومن ثم نذهب في جولة أخرى لمتابعة العمل.

الأمر لم يكن بالسهل وهذا ما توقعته لكنه جيد إلى حد ما، أفضل من تنظيف الأرضيات العفنة في المقهى القديم.

إن المكان رائع إلى أكبر مدى؛ لم أكن لأتخيل أنه يوجد مثل هذا الجمال.

كانت مساحة الفندق كبيرة جدًّا موزعة على سبعة أدوار.

تحت الفندق جراج خاص وبه مدخل العاملين والخدمات الخاصة كما يشمل على إدارة ووحدات خلع ملابس ومطعم خاص.

بالإضافة إلى المغاسل والمطابخ والمخازن ومصاعد الخدمة وسلالم الطوارئ ومدخل لرواد الفندق من الجراج وهنا كان يتمركز عملي فكانت وظيفتي مرافقة النزلاء إلى الغرف والتأكد من طلباتهم وترتيب الغرف.

وكان أكثر ما جذب انتباهي هو ملعب الاسكواش فهذه أول مرة أرى بها كمثل هذه الأماكن.

بالإضافة إلى قاعتين متعددي الأغراض:

الأولى تطل على الحديقة الخلفية.

والثانية تطل على الشارع الرئيسي، لقد تعرفت على كل الأماكن بواسطة الموظفين القدامى، كنا أنا وريكا نعمل في نفس القسم، بدأت أبتهج شيئًا فشيئًا لهذه الوظيفة.

مرَّ الأسبوع الأول بسلام كما لم أعتقد وبدأت أعتاد على الفتيات والحياة هنا التي تختلف كليًا عما عشته بموسكو.

أنهيت عملي وارتميت على سريري لتغوص أفكاري بي في زمن الماضي حين دخلت ليدا ومانيا بصوت عالٍ مبهجٍ الغرفة صارخين:

- هل ستظلين جالسة هنا؟

رددت بعدم باستيعاب:

- ماذا عليّ أن أفعل، لقد أنهيت عملي، لا عمل بعد العاشرة لي .

- لا، لا نقصد العمل سنذهب للهو قليلًا إننا كل نهاية أسبوع نجمع الأصدقاء ونستمتع بآخر يومنا للصباح، هيا بدلي ثيابك والحقي بنا.

ظللت صامتة قليلًا ربما لأنه انتابني القلق من كلام ليدا فأنا لم أجرب اللهو من قبل، ولم أذهب لحفلة أو تجمع قبل كذلك ومظهرهن في هذه الثياب الأنيقة التي ارتدينها سيصيبني بالخجل لأني لا أملك إلا زيًّا واحدًا وملابس العمل.

نظرت ليدا إلى مانيا نظرة سريعة وأظنها فهمت ما دار بخاطري، فجذبتني من يدي قائلة:

- أممم إنك صغيرة الحجم لا أعتقد أن لدي ما يناسب مقاسك لكن أعتقد أن مانيا ستساعدنا، مانيا ضعي لها قليلًا من البودر الخفيف وأحمر الشفاه وصففي شعرها بطريقة عصرية أكثر وأنا سأجلب لها فستانًا يناسب الحفلة.

بعد قليل كنت أمام واحدة لا أعرفها وأنا أنظر إلى المرآة، لم أعتقد أن هذه أنا فعلًا، كان مظهري رائعًا، ارتديت فستانًا أحمرَ قصيرًا وجعلا شعري مجعدًا بطريقة أنيقة، مع قليل من أحمر الشفاه والظل فوق عيني مما أضاف رونقًا جذابًا جدًّا، أما الكعب الذي ارتديته بلونه الأبيض اللامع فجعلني مناسبة مع طول باقي الفتيات نظرًا لتفاوت الطول بيني وبينهن، حين فتحت عيني ظللت صامتة محدقة بالمرآة.

بينما تعالى صوت ضحكات الفتيات فتدخلت ليدا قائلة:

- هل سننظر كثيرًا إلى المرآة هكذا، تبدين جميلة بل بغاية الروعة هيا لا نريد أن نتأخر.

رددت قائلة بتوتر:

- لكن ألا تعتقدين أن الفستان قصير قليلًا؟

- لا إنه جذاب سيصاب الجميع بالافتتان بتلك الأرداف ممشوقة القوام، هيا بنا كما أنك معنا لن يجرؤ أحد على مضايقتك.

ابتسمت لها وبدوت راضية فمن داخلي كنت فرحة جدًّا بي، خرجنا معًا بعدما أمطرنا أنفسنا بالروائح العطرة.

كلما اقتربنا تعالى صوت الموسيقى، كانت الأجواء صارخة، الكثير من الشباب والشابات يلهون، كانت هناك مائدة عليها أصناف متعددة من الحلوى والعصائر وقطع الشوكولا المختلفة بأنواعها والكثير والكثير من كؤوس الفوتيكا التي تهافت عليها الجميع.

قالت ليدا وهي تمسك بكأسٍ ملوحة به يمينًا ويسارًا:

- أترغبين؟

رددت بنبرة جدية

- لا شكرًا لا أشرب.

- أنت الخاسرة.

هيا لنرقص أحيوا الرقص

بدأت الموسيقى تعلو أكثر وأكثر ومع علوها تزايد تمايل خُصُر الفتيات يمينًا ويسارًا، كنت مستمتعة بالمشاهدة فهذه أول مرة أحضر مثل هذه الحفلات الصاخبة لأعيش كمراهقة في مقتبل عمرها تتعلم كيف تلهو.

صاحت بقوة لكي يبدو صوتها مسموعًا:

- ها أنت هنا لقد افتقدتك.

احتضنت ريكا بقوة فلقد افتقدتها أيضًا.

ردت بأعين متفحصة وغمزة بعينيها:

- ما كل هذا التأنق؟! إنك فاتنة الليلة، هل هناك معجب؟

رددت بضحكة يتخللها استحياء:

- لا أبدًا لكن ليدا والفتيات قررن الاعتناء جيدًا بي.

- حسنًا تعالي لأعرفك على باقي فريقي.

مشت باستعراض كعارضات أزياء مما جعلها أكثر إثارة

هذا "بن" صديقي المقرب يعمل معنا.

وديل عازف كمان محترف يقيم حفلات في الفندق بجانب عمله.

وسوزي صديقتي وبمثابة أختي.

صاحت بقوة:

- رفاق هذه ديم تقدمت للعمل منذ فترة.

رددت بخجل:

- أهلًا

ردت ريكا:

- هل سنظل واقفين نتحدث؟ هيا لنرقص.

****

عند السادسة صباحًا كنت قد استيقظت، لم أنم غير ساعة ونصف فقط، كنت مُرهقة جدًّا لقد استنفدت طاقتي كلها في الليلة السابقة لكنها كانت أمتع ليلة في حياتي كلها وأخيرًا حظيت لما افتقدته طوال كل سنيني تلك(الصداقة)، تعرفت فيها على أشخاص جُدد ورائعين كما أنه أصبح لي صديقة مقربة نتشارك اهتماماتنا.

كنت سعيدة جدًّا البارحة بمظهري الجديد فقد كنت محط أنظار الجميع أخبرتني ليدا أن الحفلات تُقام كل عطلة نهاية أسبوع لنستمتع بها قليلًا.

بدأت اليوم أفهم طبيعة العمل أكثر حيث إنه هناك عمولة أخرى اكتسبها بنفسي جراء معاملتي مع النزلاء في الفندق وأسلوبي اللبق معهم وكلما زادت ابتسامتي اتساعًا زادت إكراميتي كما أن وجبتي الفطور والعشاء على تكلفة الفندق وهذا مؤشر رائع على أنني لن أصرف نقودًا كثيرة على الطعام.

لكن أكثر ما أثار تساؤلي هو كوني أصغر عاملة في الفندق وأنهم لا يقبلون عاملين بتاتًا بهذه السن، لا بد أنني محظوظة جدًّا لأُقبل بهذا المكان، أتمنى أن أستغل هذه الفرصة على أكمل وجه ممكن، أخبرتني الفتيات هنا أنه يوجد مكافآت شهرية تُمنح لمن هم أجدرُ بها وليس الحصول عليها بصعب فتقريبًا مُعظم العاملين يحصلون عليها من شهر لآخر، وتبعًا لهذا المخطط فإني في خلال أربعة أشهر بالكثير سأكون قد تمكنت من تحصيل المبلغ الذي سيمكنني من دخول المعهد بسهولة ويسر.

وأخيرًا أشعر بالراحة، كم هو رائع أن تشعر أنك تقترب مليًّا من حلمك، إنها نشوة الروح.

بدأت الأيام تتوالى في الفندق كانت أيامًا ممتعة بغض النظر عن كونها متعبة، فإن الاستيقاظ باكرًا والبدء في يومٍ لا ينتهي بسهولة إلا بعد أن تتورم قدميك وتُجهد عينيك ويثقل ظهرك أفضل من فراغ قاتل لكن هناك دومًا وقت للاستمتاع، وقت لك أنت.

رغيفان وحلم

كانت ساعات عملي تنتهي عند الساعة العاشرة أو الحادية عشر أحيانًا عندما يكون هناك عمل لم أنتهِ منه بعد، للأسف لم يكن بوسعي الاستحمام كل يوم حيث إنه لم يكن متاحًا لنا الاستحمام غير مرتين أسبوعيًّا لذلك كنت أعود إلى الغرفة لأتناول وجبة العشاء وأبدل ملابسي وأسدل شعري بعد إحكامٍ عليه دام خمس عشرة ساعة من العمل المتواصل وآخذ الناي وأجلس في الحديقة الخلفية لغرف العاملين فهنا الجو هادئ؛ لا صيحات شباب طائش ولا تتبعات من أعين غريبة تشعرك بالتوتر، هنا فقط الهدوء والانسيابية التي تحل عليك.

أُمسك الناي وأبدأ في عزف روحي هكذا حتى قبل الفجر بقليل.

- عزف رائع إنك ماهرة

فاجأني الصوت ولكنه ليس بغريب فقد كان ديل، أجبته شاكرة:

- شكرًا لك

- حقًّا تمتلكين موهبة رائعة، من دربكِ؟

بنظرة بعيدة أجبت:

- مشاعري .

****

لقد تعرفت على ديل لأول مرة من خلال ريكا، فقد كانا صديقين، ومع توالي الأيام كنت أراه في حفلات نهاية الأسبوع لم يكن يقتصر كلامنا إلا على بعض التحيات إلا أن رآني في يوم في الحديقة الخلفية وأنا أعزف فأثنى على عزفي ومن يومها ونحن أصدقاء نتشارك لذة الموسيقى معًا.

ديل كان عازفًا على آلة الكمان، أخبرني أن للأوتار عاطفة هشة لكن يمكنها نقل أثقل المشاعر .

كنا نتسامر كثيرًا حول الفن والموسيقى والنجوم والليل، سألني في ليلة ما:

- لمَ اخترتِ الناي من بين كل الآلات؟ لا أعتقد أنه محبب للجميع هناك آلات أحدث وأفضل.

حينها شعرت بالغيرة وبالحنق منه كيف له أن يتكلم عن آلتي هكذا لكني ظللت هادئة ونظرت إليه بضحكة متصنعة قائلة:

- "لا أعلم هل هذه القصة منسوبة لبيكاسو حقًّا أم لا لكن لا يهم إن كان المغزى واحد، قال رجل لبيكاسو:

"يبدو أنك لا تحسن رسم سوى هذه الخطوط والألوان المتداخلة" .

فتناول بيكاسو ريشة وراح يرسم حبة قمح على الأرضية.. وكانت حقيقية إلى درجة أنّ أحد الديكة تقدم محاولا التقاطها، عندها انبهر الرجل وقال لبيكاسو:

"لماذا إذن تصرّ على هذه الرسوم الغريبة وأنت تحسن الرسم بهذه الطريقة الرائعة؟".

فأجابه بيكاسو ساخرًا وبهدوء: "في الحقيقة أنا لا أرسم للدجاج!".

وأنا أيضًا يا ديل لا أعزف لألقى التصفيق أنا أعزف لكي أريهم متى يكون التصفيق" .

لا أعلم كم لبث بعدها محدقًا بعيني لوقتٍ طويل .

أصبحت علاقتي بديلًا تتطور شيئًا فشيئًا ضمن نطاق الموسيقى دعاني إلى أصدقائه لأكتسب خبرة أكثر في مجال العزف، في فترة قصيرة استطعت الاحتراف أكثر على الناي وتمرنت كثيرًا على الفلوت والكمان وأخيرًا شعرت أنني في مكان مع أناس يشبهونني إلى حدٍّ ما.

الأيام كانت تمر بسرعة ومع مرورها كنت قد بدأت أعتاد على أناسها، عطلة نهاية الأسبوع والحفلات الصاخبة أصبحت أنا محورها، كنا نختتم الحفلة كل مرة بمقطوعة أعزفها ويكون الجمهور من العمال والأطفال والنزلاء والكبار والشباب الذي أشعرني أن الموسيقى للجميع يستطيع الكل باختلاف كل ما بيننا التماسها لأرواحهم.

والآن تبقى شهر واحد وأكون قد تمكنت من إتمام المبلغ المطلوب لالتحاقي بمعهد الموسيقى، أشعر أنه كلما قرب الوقت زاد خوفي أكثر لا أعلم لماذا.

هناك مزيج من القلق والفرح معًا وأخيرًا سأتمكن من تحقيق حلمي، إن المعهد بالنسبة لي خطوة نجاح وليس نهاية رحلة فمنه سأستطيع تطوير نفسي والانتساب إلى فرق موسيقية وحفلات موثّقة.

يا ألله ساعدني حتى أبلغ ما أريد.

****

صحت فجأة على أثر ضجيج

لم يكن أحد من الفتيات في الغرفة فكل منهن قد خرجت مبكرا، فاليوم أجازة. وقفتْ لتفتح الباب وهي تفرك عينيها المتورمة محاولة إيقاف المتهور الذي يكاد يكسر الباب.

تدخل ريكا بسرعة قائلة بصوت عالٍ:

- ما زلتِ نائمة؟! هيا ارتدي ملابسك بسرعة.

ردّت بكسل:

- ما الأمر ماذا حدث ليستدعي كل هذا الضجيج؟ لقد أوقفتِ قلبي.

- "سأخبرك حالًا.

لقد تأخرنا هيا أسرعي".

وقفتْ محدقة بها:

- لكن إلى أين هيا؟ لن أذهب قبل أن أعرف.

ردت وهي تحدق بها بقوة ويداها تُلوح في الهواء:

- إنها فرصتك لتثبتي نفسك.

قالت بتعجب:

- أُثبت نفسي!!

****

الخوف، هو ما أوصلني لهنا؛ لقد أضعت فرصة من ذهب، كان اليوم طويلًا جدًّا حين جاءت ريكا مسرعة إلى الغرفة لتخبرني أنه علينا النزول سريعًا، لم أكن أفهم الأمر جيدًا لكن حين انتهيت من ارتداء ملابسي وضعت لي شيئًا من الحُمرة على شفاهي وأحضرت الناي بعدما أخبرتني بأن مظهري يجب أن يكون رائعًا وهو بالفعل كذلك وأكملت حديثها:

"انظري يا ديم لطالما كان حلمك الانتساب إلى معهد موسيقى أليس كذلك؟ وها هي الفرصة أمامك اليوم كما أن هذا المعهد أفضل بكثير ومئة مرة من الذي كنتِ تودين الانتساب له حيث إنه معترف به دوليًّا، فاليوم هناك شخص مهم آت إلى الفندق في زيارة وهو مدير المعهد العالي كونسرفاتوار سانت بطرسبرغ الحكومي هو معهد موسيقي في مدينة سانت بطرسبرغ، سيقوم فريق الموسيقى بالعزف وتقديم أنفسهم لينالوا الإعجاب، يجب أن تكوني من بينهم أنا واثقة أنكِ ستنجحين في جعله يختارك، إنك تمتلكين الموهبة".

أجبت بارتباك وخوف مختلطين:

- لكني لست مستعدة.

أمسكت يدي قائلة:

- أنتِ لم تكوني مستعدة حين كنتِ تعزفين لنا وحين نقيم الحفلات كنت تعزفين وحسب .

- كنت أعزف لأجلي ليس من أجل إعجاب أحدهم هذا صعب.

- ديم أنت فنانة، أنت لا تشاهدين نظراتنا اللامعة نحوك وكيف تجعلين أرواحنا تحلق حين تبدئين بإمساك الناي، ببساطة لأنك لا تنظرين نحونا تنظرين إلى أبعد من ذلك تنظرين إلى حلمك، ديم.

****

حول المنصة ذُهلت من الحشد كان جمهورًا كبيرًا، كانت ريكا تدفعني بقوة هي وليدا وديل والباقي وحين أعطوني ورقة لأكتب اسمي بدأت يداي ترتجف نفس الرجفة التي كانت تحملها أمي عند ملء الاستبيان في المدرسة، أمسكت القلم لأجد على الورقة وجهًا كبيرًا يهزأ بي، جميعهم كانوا هناك؛ أطفال مدرستي الذين يهزؤون مني ومعلموهم الذين لم يؤمنوا بي يوما، روني ونظراته الجافية نحوي، كلهم كانوا يسخرون مني، القلم أيضًا بدأ يهتز احتجاجًا لا يود أن يسجل هويتي.

لا أعلم من أين هبط كل هذا الخوف عليّ، بدأ صوت ريكا يعلو:

- هيا ديم املئي الاستبيان ماذا بك؟

خارت قواي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أبتعد عنهم جميعًا وعيناي تتكدس دموعًا هاربة من نفسي إلى نفسي.

جلست في الغرفة مكتنفة نفسي داخلي، لقد دب الخوف في قلبي مرة واحدة ولا أعلم لماذا، شعرت بأن الاستبيان ما وضع إلا ليسخر مني، خانة الأب خانة الأم وخانة اللقب، التعليم الذي لم أكمله، والوضع الاجتماعي، كلها بدت تسخر مني فتركتها هاربة مني إلي.

طرقت ريكا الباب ولأن ديم لم تكن قد أوصدته حين دخلت مستعجلة استطاعت ريكا الدخول، جلست بجانبها فإذا بليدا ومانيا ينضمان إليها:

لم تستفسر واحدة منهن عن سبب ردة فعلها فقط قمن باحتضانها لكثير من الوقت.

استأذنت ريكا لتذهب لغرفتها فلديها الكثير من العمل للغد ثم اقتربت من أذن ديم هامسة:

- لا تسمحي لأحد مجددًا أن يقلل منك بسبب هويتك، اسمك، منشئك وشكلك حتى لو كان مجرد استبيان لا أحد حتى أنتِ .

كان كل من في الغرفة قد استسلم للنوم بعد يومٍ مرهق طويل فأخذت الناي وجررت خيبتي وخرجت للحديقة الخلفية، كانَ الجو هادئًا على غير العادة فالوقت متأخر نحن قبل الفجر بساعة أو أكثر لا أعلم، كنت أحتاج أن أختلي بنفسي لقليل من الوقت، النجوم كانت مضيئة أكثر من اللازم أو ربما الظلام هو من كان أشد دكانة فكشفته النجوم، نفس عميق وتنهيدة أعمق ونفخة عبر أنبوب بثقوب سبعة لا تختلف عن ثقوب خيباتنا، كعادتي أغمض عيني وأبدأ بإطلاق روحي لترقص، لتغضب، لتثور، لتسكن.

فتحت عيني بعد جولة عميقة عبر سبعة ثقوب وسبع خيبات وسبعة آمال لأكتبني لحنًا باقيًا بي، رفعت رأسي وبيدي أبعدت شعري المتناثر حول عيني لأجد شبحًا محدقًا بي عاقدًا كلتا يديه أمامه.

كان هو نفسه بذات المعطف والقفاز والقبعة السوداء، بنفس الهيئة التي قابلتها سابقًا، رفع حاجبًا وأنزل آخر قائلًا بصوت تشوبه بحة خفيفة:

- تعزفين الألم بحقيقة راقية. أحسنتِ صنعًا.

بغموضٍ قالها كغموض مظهره وظهوره وذهب، صحت به:

- انتظر مَن تكون؟

لكنه كان قد رحل سريعًا مختفيًا حتى ظننته خيالًا لكنه كان الحقيقة كلها .

****

(الفصل السابع عشر)

"المشاعر المكتومة لا تموت أبدًا إنها مدفونة وهي على قيد الحياة وستظهر لاحقًا بطريقة بشعة"

سيغموند فرويد

فشلت في الحب لكني نجحت في معرفة الفشل وهذا هو المهم.

في نهاية المطاف كانت مجرد علاقة هذه ليست نهاية العالم.

أعلم أنه لدي كثير من التناقضات والتشوهات النفسية.

الاضطرابات التي لازمت طفولتي وظلت مدفونة بدأت تتسرب من زوايا سلوكي فأحدثتْ شرخًا كبيرًا في حياتي لطالما عاملت نفسي أنني المذنبة والتي لا تستحق الحب والتي ستهجر آخر المطاف، ما زلت ألوم نفسي وما زلت منخرطة في عملية جلد ذات، ما زال صوت في داخلي يخبرني أنني أقل مما ينبغي وأدنى من الجميع، كتلة انشطرت نصفين لا تنتمي لمكان معين، لا أزال أرى أنني لا أستحق، كما لا أزال أسعى للمثالية فقط سعيًا لإرضاء الجماهير، فقداني للحب لم يجعلني أنتج سوى حب زائف، حب يشوبه القلق، التهديد من توجس الفقد ورهبة الرحيل، ما الجرم الذي اقترفته حينما أصبت بالسرطان واضطررت لاستئصال رحم؟ لطالما تعاملت مع الأمر على أنني المذنبة وكأنني أنا من سقت تلك الفاجعة.

يقول براندن" كلما زاد خوف الطفل، وكلما كانت تجربة التهديد مبكرة؛ صار من الصعب عليه أن يُنمي شعورًا صلبًا وصحيًّا بذاته".

لا أعلم إن كنت سأستطيع الكف عن وصم نفسي، تحقيرها ولومها وأذيتها لا أعلم إن كان بإمكاني ممارسة بعض التعاطف تجاهي ثانية، لطالما ركضت وراء من سيمنحني قبولًا ليس مشروطًا، ومحبة بلا غرض ونسيت تماما أنني وحدي من هجرتني ورفضتني.

****

منعزلة كعادتها مع صفحات كتاب وكوب قهوة مع موسيقى كلاسيكية لتخلق جوًّا من الراحة اللا محدودة التي تحبها، حتى وصلتها رسالة أثارت ضجة صاخبة داخلها.

فتحتْ شاشة هاتفها حينما لاحظت رقم المرسل:

"مرحبًا ندى إني عائدة من فرنسا، سأكون في المطار الساعة الثالثة عصر الغد، أتمنى أن تأتي" .

ترقرقتْ عيناها بالدموع، ووقفت مستنكرة شعورها، فهي لا تزال غير قادة على استيعاب ذلك التناقض الشعوري وذاك الاضطراب الداخلي العميق وكأن مشاعرها غدت كَبندول يتأرجح بين قطبين لا يجتمعان.

بالكاد بدأت تحاول إتمام تعافيها والإقدام على التجاوز لكن رسالة واحدة يمكن أن تُطيح بكل ما تم بناؤه.

ولأن في التجاوز عملية تصالح مع ذواتنا، وبدءًا في التحرر من مطاردات إساءات الماضي والكف عن اعتقاداتنا أننا ضحايا، فلا بد أن نمر في آخر امتحان الذي يُجزم لنا أننا نجحنا في التعافي ألا وهو مواجهة الإساءة.

ولأنها أرادت التعافي اختارت الغفران لأننا حين نغفر للمؤذي سنتمكن حينها من الغفران لأنفسنا .

****

وقفتْ أمام المرآة تختار ما سترتديه لتتوقف أخيرًا عند بنطال من القماش الأسود وقميص أبيض اللون وحزام وكعب أحمر اللون، ألقتْ نظرة كاملة لهيئتها وقلبها المشتعل شوقًا وحملتْ حقيبة يدها ونزلتْ مسرعة مشيرة لأقرب سيارة أُجرة.

- إلى المطار من فضلك .

****

جلستْ بجانبها فشعرت بقربها الذي حُرمت منه لسنوات، تمنت أن تحتضنها لتمنحها ما لم تعطِها إياه يومًا.

قالت بعد أن كابدت في جمع شتات كلماتها:

"منذ زمن وأنا صامتة لكني لم أعد قادرة على رؤيته سوى شيطان بل أفظع من ذلك حين أخبرته برغبتي بالطلاق رمقني ببرود ولم يلتفت وحين اعترضت أوسعني ضربًا وهددني بالقتل فما كان مني سوى الصمت.

مرّت أيام عليّ صعبة جدًّا؛ هل تعلمين معنى أن ينام المرء مع زوجه على سرير واحد وهو يشعر بالتقزز؟ منعني من أقرب إنسان لقلبي، منعني منكِ يا ندى .

لم يحبني يومًا، صحيح أني تزوجته انتقامًا من أبيكِ وقد اعتقدت أنه ربما سيكون اختيارًا أفضل لكني لطالما كنت مخطئة؛ لم يجلب قراري انتقامًا سوى لكِ، سامحيني ندى كنت أنانية وساذجة، حرمتك مني".

ابتلعتْ ريقها ومسحت بعض الدمعات بمنديل لتكمل:

"بعد فترة من حياتي المُغلقة التي منعني بها من الاختلاط بأحد أخبرني بأنه يجب علينا السفر إلى فرنسا، استغربت من قراره لكني لم أناقشه كالعادة حتى أننا لم نأخذ معنا سوى القليل جدًّا من حاجياتنا الضرورية مما زاد شكوكي أكثر فإن عمله وأوراقه كلها هنا فمن أين جاء ذاك القرار السريع؟

وكي لا أُطيل عليكِ فإننا مكثنا في فرنسا قرابة شهر في ارتباك، كنت دومًا أشعر أنه خائف لكن ممن لا أعلم فدومًا كانت له حياته الخاصة التي لا أعلم عنها شيئًا.

مرت أشهر جحيم في فرنسا أوسعني فيها ضربًا حتى بتُّ جسدًا بلا روح حاولت الانتحار أكثر من مرة لكني دومًا كنت أتراجع في الثوانِي الأخيرة لسبب ما أجهله، وفي يومٍ عاد سَكِرًا ككل ليلة لكن أكثر خُمولاً عن العادة، جلس في الغرفة وحده يعبث بأشيائه وصوت نشيجه يعلو شيئًا فشيئًا، حاولت تجاهله لكنه الفضول، تسللت للغرفة بعد دقائق لأجده متكورًا في زاوية الغرفة مُغرقًا بعرقه وكأنه يشوى، سألته إن كان يريد شيئًا لكن لم ينظر إليّ البتة وتابع التحديق في زوايا السقف وكأنه ينتظر قدوم شيء ومن يومها وهو لا يخرج ولا يأكل، ظل على ذاك الحال قرابة شهر وأكثر لا يتحدث مع أحد منغمسًا في هواجس غير موجودة متمتمًا بكلمات غير مفهومة.

حتى أتى ذاك اليوم

فاستقللت أول طائرة مع أولادي وأتيت إليكِ."

ردت ندى بدهشة:

- ما الذي حدث يومها؟

فشدت حقيبة أخرجت منها مصنفًا صغيرًا يحتوي بعض الأوراق تبدو مهمة بالنسبة لها جدًّا، فتحته وتناولت ورقة قد وضعتها بغلاف شفاف حتى يحفظها وبدأت تقرأ وصوتها يرتجف:

"كان دومًا الشخص الناجح الأفضل، أتى بزوجته يومها لأقوم لها بالعملية ثم كنت أتناقش معه حول صفقة ما كنا شريكين بها معًا وحين علم أن المشروع سيأخذ طريقًا غير شرعي رفضه فاشتد النزاع بيننا فلم أجد نفسي إلا وتناولت

المقص بجانبي وغرزته ببطنه، زوّرت توقيعه وأضفت بصماته على الورق لتتم الصفقة، وأخذت جثته ووضعتها على كرسي متحرك وأخرجته من المشفى على أنه مريض مخدر، قمت بإخفاء الجثة في حديقة المنزل وبعدها عدت للمشفى.

كان عليّ التخلص من وعد والابتعاد عنها فأخرجتها من المشفى وأخذتها لبيت استأجرته لها على أن زياد هو من طلب مني ذلك وأنه عائد بعد أن يتم عمله.

ثم تركتها وهربت خارج روسيا بعد أن قمت بتسجيل مقطع فيديو لها وهي عارية بعد إعطائها حبوب منومة بعد أن أوصلتها للبيت الجديد.

كان كل شيء يسير على ما يرام حتى ذاك اليوم

كنت عائدة في منتصف الليل حين شاهدت وجهه في مرآة سيارتي توقفت فجأة والتفت فلم أجده.

اعتبرتها هلوسة وأكملت ومن يومها وهو معي.

لا يتركني أربعة وعشرين ساعة، أصبح كابوسي الذي لا أستيقظ منه وأنام عليه، وها هو الآن واقف بجانبي يطلب مني كتابة هذه الرسالة، أما وعد فأخبرتني أنها ستجعله يتركني لو أفرغت طلقات مسدسي في رأسي "

اتسعت حدقتها صارخة بعدم تصديق:

- هل انتحر؟!

- ليس بعد لكن حالته سيئة جدًّا.

نظرت إليها نظرة يشوبها الكثير من المعاني لتنتهي بقول:

- أيمكنك سماعي لمرة واحدة والوثوق بي؟

هزت برأسها بإيجاب بعد أن فتحت ذراعها لها لترتمي بها قائلة:

- "أثق بكِ ندى أثق بك وأنصت لك عوضًا عن كل المرات التي لم أكن موجودة بها لسماعك".

مسحت دمعها وقالت:

- يجب أن نعود إلى فرنسا في الحال؛ هذه قضية كبيرة يجب كشفها لكن قبل ذلك إنك تقولين إنه احتفظ بكل أوراق وهوية المقتول وزوجته، هل هي بحوزتك؟

_نعم أحضرتها معي.

وما إن ناولتها حزمة أوراق بطاقات الهوية حتى أطلقت ندى صرخة مدوية واضطربت ملامحها:

قالت والدتها بدهشة"

- تعرفينه؟!

- لا بل أعرفها....

****

(الفصل الثامن عشر)

المتمسكون بالحياة يباغتهم الموت فجأة وحدهم مُتمنوه لا يملكون سوى الانتحار.

في الصباح باكرًا كنت قد استقللت الحافلة أنا وريكا وديل والفتيات، فقد رفضوا تركي أسافر وحدي فقاموا بإيصالي إلى المحطة، وكل الفضل لديل الذي تولى مهمة حمل حقائبي الثقيلة التي احتاجت الحرص أكثر من القوة نظرًا لاحتواء واحدة منها على آلة كمان من الطراز القديم قدمها لي ديل وريكا كهدية تذكارية لكي أبدأ بها رحلتي بالمعهد مع الناي وحقائب احتوت على ملابس قمت بشرائها البارحة لكي تناسب المعهد، وأخرى بها علبة من أقلام الكحل وأحمر الشفاه والعطر والزينة ومجموعة من النوتات الموسيقية التي حصلت عليها وصنفتها ضمن كنوزي الثمينة.

حاولت ليدا تلطيف الجو بإثارة حنق ديل الذي وضع الحقائب أرضًا للتو بانتظار القطار:

- كم من البقشيش تريد أيها العامل؟

فضحكنا كلنا ثم حل الصمت الذي لا مهرب منه.

دفعتني ريكا بقبضة يدها الرقيقة كما تفعل دوما:

- سنفتقدك أيتها المشاكسة.

محاولة إضافة بعض الدعابة لتمنع نفسها من البكاء فمشاعرها كانت أقوى من أن تُسجن، كابدت لتقول بنفس متقطع:

- سنلتقي قريبًا ديم.

انضمت مانيا وليدا متخذن عناقًا جماعيًّا مُحكمًا، أما ديل الذي بدا صامدًا قليلًا ابتعد عنا عدة خطوات كي لا يشعرنا بالحرج لا أعلم، أم إنه لم يود أن يلحظه أحد وهو يخفي دمعه باستعمال طرف كُم قميصه.

****

بدأ القطار يتحرك ببطء، وعيناي تتشبث أكثر بوجوههم التي بدأت لا تضح شيئًا فشيئًا.

أخذت نفسًا عميقًا كي أُحافظ على اتزاني لكنها المشاعر جعلتني أكابد في طرد الغشاشة التي خلفها الدمع لأتمكن من رؤية آخر تلويحٍ أرسلوها لي.

جلست على مقعدي أخيرًا ووضعت حقيبة يدي بجانبي لكني لم أجد مكانًا لأضع ثُقل قلبي به، كم هو مؤلم أن يعاود المرء تجربة قاسية عدة مرات، أن يُفتح لك جرح قديم ضُمد مئات المرات.

حاولت إعمال عقلي بأنه كم سأكون سعيدة للعودة لموسكو كما أنني افتقدت البيت كثيرًا وافتقدت روني وأحاديثه أكثر.

كان الطريق طويلًا جدًّا ربما لأنني كنت أستعجل الوصول أسرع، أشعر أني أكثر حماسًا وأكثر ثقة وقوة، أعتقد أنها نابعة من الحب، فقد أيقنت أنه بقدر الحب الذي يحيط بنا بقدر ما نكتسب من خلاله مشاعر جيدة.

بضعة أشهر علمتني الكثير؛ علمتني الثقة بالآخرين علمتني أن الصداقة أقراص مقويات تأتينا وقت ضعفنا فنصبح بها أكثر قابلية على الاستمرار .

الوضع كان هادئًا في القطار، نظرت حولي فوجدت هناك عائلة من أم وأب وأربعة أطفال قد أنهكهم الوقت فاستسلموا للنوم، يبدون رائعين جدًّا؛ ما الذي يوده المرء أكثر من أن يكون في كنف عائلة في كنف أمان يحيط به.

أما في الجهة الأخرى فهناك شاب في مقتبل العمر يضع نظارة ويمسك وهو مطبق بأصابعه على شيء ما وينظر إلى النافذة، لا أعتقد أنه يتأمل الطريق بلا شك إنه لا يعي أساسًا ما الذي يجري في الخارج لكن يبدو عليه الانهماك في شيء ما، شيء يسكن فكره فيحاول جاهدًا السيطرة عليه، أعلم جيدًا هذه النظرة في عينيه إنها نابعة ربما من تعب أو يأس أو خيبة، إنها حتمًا ندبة قاسية.

نقلت بصري للعجوز الكهل وزوجه التي قد أخذت الحياة من ملامحهما ما أخذت ومع ذلك لا أعتقد أنها استطاعت الاقتراب من قلبيهما؛ فإحكام الجد على يد العجوز واتكاء رأسها بثقل ما نثرته به السنين على كتفه بهذه الطريقة لا ينم عن شيء سوى أن الحب كان أكبر بكثير من أن يتقلص عبر الأيام والسنين .

هنالك قصص في كل شخص في كل مسحة من وجهه، في كل نظرة سريعة يلقيها بالخفاء ويلمسها غريب، فنحن الخبرات والخيبات والأحلام التي تسكن وجوهنا.

لقد مر منتصف الوقت وبقي القليل فقط، كنت أعتقد أنه لا بأس من نثر بعض السعادة عبر أوتار كمان فأخرجته من الحقيبة بنظرة حب وبدأت أعزف لحنًا هادئًا جدًّا، دافئًا جدًّا، مليئًا بالاستكانة التي وجدتها في ملامح المسافرين.

****

وأخيرًا البيت والغرفة والسرير، لا أعتقد أنه يوجد أريحية أفضل من العودة إلى البيت.

ارتميت على الوسادة بعدما أخذت جولة بعيني في عداد الذكريات التي لا تحمل لي سوى الألم ودون أدنى مقاومة غصت في نوم عميق بعد يومٍ طويل متعب.

****

تنهض بقوة لترتدي أجمل ما لديها، تضع الآن اللمسات الأخيرة من الزينة على وجهها ليزداد رونقًا وتُحدد كلتا عينيها بخط من الكحل الأسود فتزداد عيناها تألقًا، كعب متوسط وشعر مُحكم بأناقة وحقيبة يد بيضاء لتناسب البذلة السوداء

ألقت نظرة أخيرة على طلتها بالمرآة واستدارت متجهة له.

ابتسمت وهي تضع رشة من العطر بسرعة وتنازعها رغبة تأمل ذاتها المتأنقة في المرآة أكثر.

بنظرة متفحصة من رأسها لأخمص قدمها استقبلتها عيناه.

- تبدين رائعة.

بضحكة قوية رددت:

- دومًا أنا رائعة.

كنا نسير بخطى هادئة لكن لا أُخفي أن مشاعري مضطربة

قال روني بحماس:

- ها نحن الآن على حافة الحلم هيا لندخل لا تكوني خائفة كما عهدتك.

ردت بحنق:

- منذ متى أخاف روني!

كثير من المتقدمين للتسجيل يبدو عليهم الترف الشديد، زينة صارخة هواتف عصرية شعر مجعد مرفوع يساير الموضة وفساتين تصلح لكشف ما يجب إخفاؤه. بدا مظهري غريبًا بالنسبة لهم لكني لم أهتز، حاولت السيطرة على ثقتي والمحافظة على ماء وجهي جيدًا.

كان الوقت يسير ببطء شديد وبقلق أكبر، مرّ كثير على وجودنا هنا أو ربما أنا من أشعر بأن الزمن لا يتحرك.

- آنسة ديم فلتتفضل.

رن صوت سكرتير المكتب في أذني فازددت ارتباكًا، فتنهد روني:

- أخيرًا.

وشد على يدي مع ابتسامته الحنون ليقول:

- هيا

انقلبت موازيني وازدادت دقات قلبي مع لمسة روني لكنها استطاعت بثّ طمأنينة كبيرة إلى داخلي، طمأنينة حب صامتة.

****

قالت بنبرة متعجرفة دون أن تكلف نفسها عناء النظر إليها:

- قرأتِ شروط الانتساب؟

- نعم بالطبع

- الأم أم الأب ضامن؟

استجمعت قواي وقلت بحزم:

- أنا.

- لكنك آنسة ديم لم تبلغي سن الرشد بعد.

- أعلم لكنني قادرة على إعالة نفسي ولدي مصاريف السنة كاملة بالتمام والكمال.

نظرت إليّ نظرة من أعلى لأسفل

- جيد لكن من ضمن الشروط أن يوجد فرد من الدرجة الأولى ليضمن الطالب في حالة حدوث أي مشاكل أو تأخره عن دفع المبلغ.

قاطعتها فورًا:

- لكني أخبرتك أني أملك المبلغ المطلوب كاملًا.

بنظرة باردة ألقتها على ورق ملفي وتابعت حديثها:

- أرى أن الطابع الشرقي لديك مسيطر ثم أني لم أرَ ورقة اجتيازك المدرسة الثانوية.

حاولت ألا أُبدي توتري وابتلعت ريقي لأجيبها بقوة:

- كم من المال ليتم قبولي؟

****

نظر إليها بعينين ساكنتين حين شاهدها خارجة تطرد دموعها خارج وجهها جراء معركة خاسرة، فلم ينطق بحرف واحد فأمسك بيدها وخرجا صامتين، لم ينطقا طوال الطريق بحرف واحد، كان الصمت وحده قادرًا عن إيضاح حجم الألم.

قطعت جولة الصمت حين وصلنا للبيت قائلة:

- أريد أن أكون وحدي من فضلك. لا تقلق سأكون بخير، هيا روني لا تنظر إلي هكذا اتركني وشأني فقط .

لا أعلم ماذا أريد، بتُّ أجهلني تمامًا، أود الاختفاء حقًّا، ليتني أختفي قليلًا وأستمتع بكوني غير مرئية لقليلٍ من الوقت، لا أعلم حتى ماذا سأفعل حينها.

قد نمت كثيرًا لا أعرف كم ساعة ربما اثنين ثلاثًا أربعًا فالشمس غابت وقد حل الليل، جسدي مُحطم وكأني كنت أُضرب في معركة قاسية خرجت منها خاسرة.

كم الألم الذي يترسب داخلي كبير يبدو أنه كلما حلمنا أكثر كان ألم خيبتنا موجعًا أكثر، كان سقف توقعاتي عاليًا جدًّا فكان السقوط مروعًا .

فتحتْ باب المنزل لتستنشق قليلًا من الهواء فتفاجأت بروني يتكئ جالسًا على الباب:

- ما زلت هنا، تعال وادخل هيا؟

رد بصوت منخفض:

- لم أود تركك وحدك حتى وأن طلبتِ هذا ماذا لو احتجتِ شيئًا؟

- أنا آسفة حقًّا هيا لندخل.

- لا، لا بأس أنا مرتاح هنا هل تحسنتِ؟

قالت وهي منكسة الرأس:

- لا يهم، أحيانًا لا نحصل على ما يحترق قلبنا شوقًا له، أعجز عن إيجاد مكان واحد يحتضنني.

وكأن الأماكن كلها قدمت استقالتها لي، لو أن هناك ركنًا واحدًا فقط في هذا الفضاء الواسع قادرًا على احتضاني لما كنتُ الآن أتخبط في زحام اللا شيء يا روني.

جعل يده تحضن يدها بدفئها كما يفعل دومًا مع ابتسامته الدافئة التي احمرت خجلًا بها قائلًا:

- قلبي فارغ تمامًا للامتلاء بكِ فقط ارتمي بكل ثقلك .

نظرت إليه مطولًا قائلة:

- لا أحتمل بعدك مترًا واحدًا يا روني، لا تتأخر أرجوك.

- أنا دومًا بقربكِ.

بضمة طويلة وقبلة طبعها على جبينها وَدَّعها وذهب.

مضى يومان؛ أسبوع وشهر وشهران من الانتظار المستمر ولم يأتِ روني.

حياتي باتت صراعًا، البيت من غير أمي مزعج جدًّا وروني لم يعد بعد، حلمي تحطم بسبب خطأ لم أقترفه يومًا.

ابتعدت عن كل شيء، عن الناس واللهو والأكل، حتى الموسيقى بدأت حياتي بالتدهور أكثر ولم يعد لدي الكثير من المال فبدأت في صرف نقود المعهد الذي كنت سأنتسب إليه.

كأس وراء كأس حتى تمتلئ معدتي فأخرج كل ما بها، صحتي تدهورت كثيرًا؛ وجه شاحب وبشرة مُتعبة صفراء، هالات سوداء وجسد هزيل أشبه بجثة عفنة تسير على الأرض هذا ما وصل إليه حالي.

كنت أسمع همسات الناس في الطرقات تلك العاهرة ها هي قادمة، ذهبت، عادت، كانت مع أحد شباب بيئتها، لمن ستكون مثل والدتها. تبًّا لها.

لم يعد كلامهم يزعجني؛ فقط يصيبني بالاشمئزاز، الآن قد عرفت أسباب مشاجرة روني مع أهل الحي فقد كانوا يتطاولون بألسنتهم وأحدهم طالبه بمبلغ من النقود مقابل قضاء ليلة معي.

ما الجديد؟ إنها موسكو.

لطالما واجهتْ أمي هذه الصعوبات بحكم أننا شرقيون وما ورثت عنها سوى تلك الملامح التي تُعطي للجميع إمكانية التطاول عليّ.

كلامهم لا ينتهي ولم يعد روني هنا ليدافع عني ولا أنا مضطرة أن أبرر لهم حتى وصل الحال بي إلى هنا.

بدأت الحال تسوء أكثر فأكثر، تعرفت على صحبة سيئة فانحدرت مرة واحدة إلى الهاوية، أصبحت حياتي خمرًا ورقصًا ومقاهي ليلية حتى كرهت نفسي وكرهت كل ما حولي، لا أعلم لمَ فعلت ذلك بي، هل لأنني أردت الانتقام لكن كنت وحدي القاتل والمقتول.

استمررت في ما أفعل حتى ما عدت أعي شيئًا مما حولي سوى اليوم الذي عاد فيه روني ورآني على هذه الحال ولم أكن في وعيي حينها، كنت بصحبة فتاتين وشابين هيئتهم لا توحي أني أنتسب إليهم حاول جذبي من يدي إلى البيت لكني انفجرت به صارخة أني لم أعد أنتظره وأني أكرهه كثيرًا.

هذا كل ما أذكر أني فعلته فلم أكن واعية بما قلته من كثرة ما ملئت معدتي من كؤوس الفوديكا، كل ما أذكره هي تلك النظرة التي شيّعها في عيني بعدما قام أصدقائي بلكمه لكي يتركني ومن ثم رحل.

لم أعد أعلم شيئًا عن روني إلا أني أفتقده كثيرًا ولا أعتقد أنه عائد فاندثرت أكثر في ما أقوم به .

****

اقتحم شاب وشابة المشفى وهما يحملان فتاة يوحي جسدها أنها في عقدها الثاني صارخين:

- طبيب بسرعة لقد انتحرت.

أزال السماعة من أذنيه تاركًا الممرضة تُكمل عملها.

- حالتها سيئة جدًّا لا أعتقد أنها ستصمد على الأجهزة لوقت طويل، اعتنوا بها جيدًا، ألم يسأل أحدٌ عليها؟

ردت الممرضة المشرفة:

- لم نجد معها شيئًا سوى ناي فقد علمت أنها كانت تعزف قبل الحادثة.

- حسنًا حاولوا البحث عن هويتها أو شيء يوصلنا لأهلها.

اقترب الطبيب من الغرفة سائلًا الممرضة عن بعض الحالات:

- كيف حال المريضة الشابة هل استيقظت؟

- منذ قليل لكنها رافضة التحدث والطعام.

حسنًا حاولي مساعدتها وسأرسل في طلب طبيب جاك ليبدأ في العلاج النفسي.

****

اليوم الأول والثاني والثالث وأسبوع واثنان ثم لم أعد أواصل العد فالأيام كلها واحدة، نفس الملل، نفس الفراغ، نفس الألم، إنه ألم الاستمرار. حالتي تسوء أكثر فأكثر يحاولون هنا مساعدتي بكل الطرق لكنهم لا يعلمون أني لا أود مساعدة نفسي فالعلاج في يدي وأنا من اخترت مواصلة الوجع.

يخبرونني أنه يجب أن أمتثل للشفاء وأصبح بخير لكن لِمَ؟!! هل لكي أتلقى الألم مجددًا بكل قوة، لا أود أن أعود فقد اكتفيت من الخذلان والخيبات والأحلام المحطمة، اكتفيت من الضعف، اكتفيت وتجرعت ما يكفي من مرارة الأيام، اكتفيت من محاولة ترميمي كل مرة لكي أُحطم من جديد، اكتفيت من حياة اعتقدت أني قادرة على جعلها أفضل ففشلت، لقد اكتفيت .

كانت الغرفة التي أقيم بها في المشفى صغيرة لكن باردة لا تمُت للأمل بصلة موحشة بجدرانها البيضاء المسودة من مرور عدة سنوات عليها، لا توجد أي نوافذ هنا لتجديد الهواء فقط سرير معدني وكرسي بجانبه وكوب ماء والكثير والكثير من أقراص الدواء التي ألقيها بسلة المهملات وأُعاقب بعد ذلك عليها.

أخبروني أنهم يودون التواصل مع أحد أفراد عائلتي فربما يساعد هذا في تحسن حالتي النفسية فلم أجد لي غير روني لكني كنت خائفة فهو لم يسأل عني طوال هذه المدة ولم يكلف نفسه بالبحث عني حتى، لكني أعطيتهم رقمه وحسب، فما زال روني هو الوحيد القادر على تهدئة نيران صدري بنظرة واحدة منه.

انتظرت كثيرًا وراء الممرضة في الغرفة ليتنهد المتصل قائلًا أخيرًا:

- هل أنت متأكدة من الرقم يا ديم؟ لأن الشخص قال إنه لا يعرف أحدًا بهذا الاسم.

- نعم متأكدة، وكنت أظنني متأكدة من مشاعر قلبه أيضًا لكني أخطأت .

أدرت ظهري خارجة من الغرفة بعدما شعرت أن الحياة كلها أدارت ظهرها لي .

****

أخبرتني الممرضة أنه إن لم أتحسن فسيتم نقلي إلى جناح العلاج النفسي المتقدم وهناك حالتي لن تتحسن إلا بصعوبة لذلك عليّ مساعدة نفسي، عاندتهم ولم أمتثل للكلام ورأيت أنهم يتبعون أسلوب التهديد لجعلي أفضل وتحسين نفسيتي المضطربة وجعلي أبتعد تمامًا عن فكرة الانتحار مجددًا لكني كنت مخطئة فاليوم تم نقلي إلى جناح الأمراض النفسية بالفعل وبدأوا برسم خطة جديدة لعلاجي لا تتخللها عبارات تحفيز ولا ابتسامات عابرة ولا موسيقى حتى، هنا فقط أقراص منومة وجلسات كهربائية حسب ما سمعت من المرضى الذين يتهامسون عن هذا الجناح الذي يسمونه جناح الرمادية، لم أتمالك أعصابي حينما اجتزنا الممر الطويل وسمعت صرخات المرضى نتيجة الجلسات التي يتعرضون لها فظللت صامتة في حين أن داخلي يرتعش، دخلنا إلى غرفة صغيرة بها سرير معدني صغير وكرسي وأربعة جدران بيضاء، ما إن دخلت حتى أوصدوا الباب عليّ بالمفاتيح وهنا بدأت معاناتي التي لم أتخيلها يومًا .

أنا هنا منذ ثلاثة أيام لا أرى أحدًا ولا أسمع صوتًا فقط الطعام والماء الذي يمررونه لي مرتين يوميًّا وبلا شك يحتوي على أقراص مهدئة لأني أنام كثيرًا ولا أشعر بشيء حولي، لقد ضجرت جدًّا وزادت وستزداد حالتي سوءًا أكثر لهذا بدأت بالصراخ كطفلة صغيرة:

- أخرجوني من هنا. لم أعد أحتمل فليخرجني أحد ما، أرجوكم.

ثم لم أعد أشعر بشيء ربما أغمي عليّ أو أنه أثر المنوم، لا يهم فكلاهما اختفاء قليل عن الألم.

صحوت وأمامي الممرضة، ناولتني بعضًا من الأقراص وكوب ماء وطلبت مني الاستعداد فهناك من يريد محادثتي، نظرت إليها بعينين تلمعان مترددة فأنا لم أرَ أحدًا منذ أيام لكني أومأت برأسي وذهبت معها.

ظهر صوت خشن من وراء كرسي متحرك خلف المكتب لم أتمكن من رؤيته بعد فقد كان يعطيني ظهره بينما وجهه للنافذة لكن يبدو عليه من فخامة المكان أنه ذو منصب هنا.

لف كرسيه أخيرًا موجهًا لي حديثه:

- مرحبًا ديم كيف حالك؟

أجبت بعد أن ارتحت قليلًا من لهجته الطيبة:

- بخير.

- "تعلمين يا ديم؟ لم أحب هذا السؤال بتاتًا فإجابته غالبًا خاطئة لكني دومًا أُخطأ وأبدأ حديثي به، وكي لا أُطيل عليكِ فأنا لم أطلب حضروك هنا لأخبرك أنك ستكونين بخير وأن الحياة ستمضي وأنه عليكِ دومًا أن تمتلكِي نظرة مختلفة وأنك يجب أن تكوني سعيدة وتحاولي لكي تحصلي عليها؛ في الحقيقة أن لا أؤمن جدًّا بالعبارات التحفيزية التي يلقيها علينا الآخرون في ظُلمتنا لأننا لا نكترث لأحد من الإساس، لكن أنا أيضًا مررت بالنفق المظلم ويمكنني إخبارك بكم الوحوش التي هاجمتني، الحياة ليست سهلة ولا وردية ولا تعطينا كل ما نريده لكنها ليست سيئة للحد الذي يجعلنا نتخلى عن أنفسنا ونختبئ بين أربعة جدران، هذه هي الحياة، حلبة ويجب أن تقاومي، لن يقوم أحد بإعطائك تعليمات سليمة مئة بالمئة لأن خبراتنا تختلف حسب تجاربنا، وتجاربنا تختلف حسب سلوكنا، لذا عليكِ أن تكتشفي قواعدك بنفسك، ولا شيء يدوم لا الحزن ولا الألم ولا حتى السعادة، كل شيء سينتهي؛ الألم والعمر والشباب والملامح لن يبقى إلا قصتنا، قصتك فقط، أتعلمين ماذا قال دوستويفسكي؟

قال كيف يمكنك العيش وليس لديك قصة تروينها؟

وأرى أنه عليك أن تختاري الطريقة التي ستجري بها أحداث قصتك هل

ستكون بين جدران بيضاء ودموع وقلب ومحطم أم نافذة مفتوحة لتبدئي بالطيران؟

أنا لا أعلم إن كنت تمتلكين حلمًا أم لا وما هو نوع الحلم الذي تمتلكينه حتى لا أعلم كم مرة خاب أملك وأنت تعملي على أمر ما ولا أعلم إن كنتِ متمسكة به أم إنه ما زال في عقلك فقط لكن ما أعلمه أنه ممكن.

إن البعض منا بالفعل يعلم أنها صعبة، هناك الكثير من اللحظات التي نبدأ فيها بالشك في أنفسنا ونتوالى بالأسئلة على ذواتنا

لماذا يحدث هذا لي؟؟؟

لماذا أنا بالذات؟!!!!!

الأوقات العصيبة سوف تأتي وتأتي مجددًا وتظل تأتي لكنها لا تأتي لتبقى بل لنتغير من خلالها ونجعلها تجربة عابرة في محطات حياتنا لا أكثر.

لا تخبريني بما يؤلمك ولا بما مررتِ به؛ أخبريني فقط بما تودين أن تقومي به وأنا سأكون بجانبك، ما رأيك؟".

بعد تنهيدة عميقة ورأس مطأطئ رددت:

- أود فقط فرصة جديدة للمعاودة مجددًا.

- "جميعنا، جميعنا نمتلك فرصة للمعاودة مجددًا، دومًا هناك فرصة للبدء يا ديم .

دعيني إذًا أخبرك بالأمر الأهم الذي طلبت رؤيتك من أجله، لقد رأيت أني لو أخرجتك من هنا وعدتِ إلى البيت ستواجهين أكبر وحش قادر على تفتيتكِ وهو الوحدة والفراغ وأظن أنك أدركتِ هذا عندما أوجبت نقلك لهذا الجناح، لذلك رأيت أن أقدم لكِ عرضًا، سيستفيد كلانا منه، عمل بسيط ستكسبين من ورائه بعض المال ليسد حاجتك وبعض الخبرة وبعض الحب وطبيعة العمل لن

تكون شاقة جدًّا عليكِ.

رددت بحماس:

- ما هو؟

- دار للمسنين. لا تجيبي الآن فكري أولًا، ثُم أنه لدي شيء يخصك.

تبعته بعينين مهتمة وهو يفتح درج المكتب قائلًا:

- أعتقد أن هذا يخصك.

قفزت ممسكة به وعيناها متألقة بدموع دافئة قائلة:

- أعتقد أنني أضعته والآن وجدتني.

****

سيكون شعورًا مقززًا؛ هل عليّ الجلوس معهم ومشاهدة العجائز وطلباتهم المزعجة؟ يا إلهي.

****

ربما مررت بالكثير وربما كان هذا عاديًا بالنسبة لتجربة شخص ما لكن أما كون الأمر يعنيني فإني أشعر بالقوة اليوم، لقد كانت معركة طويلة استطعت الخروج منها إن لم أكن قد حققت انتصارًا ومع كون قد لحقتني خسارة أيضًا فإني قد اكتسبت أساليب قتال جديدة يمكنني استخدامها من الآن.

عدت للبيت إنه كما هو الآن مثلما تركته تمامًا إلا أن الغبار زاد أكوامًا لكني وقفت مندهشة لثوانٍ لقد اخترق قلبي المنظر فحين كنت هنا آخر مرة كنت قد أهملت الأقحوان فَذُبل ومات ولكن الحجم الذي اتخذته زهرة الأقحوان اليوم كان مبهرًا حقًّا لقد عادت لتثمر من جديد وأفضل من قبل لكن كيف؟؟

أخذت حمامًا دافئًا وغططت في نوم عميق، نوم لم أستفق منه إلا على فجر اليوم التالي، كان الجو تتخلله رعشة هواء باردة مع رائحة الصبح التي تصيبك بالارتياح. حضرت كوبًا من القهوة وجلست مع نفسي، أخرجت الناي بعدما ابتعدت عنه لفترة طويلة، لفترة كنت أفقدني معها، حملته بعد أن سرت بجسدي قشعريرة غريبة، وضعته على طرف شفتي وبدأت بعزف الأيام الماضية بعزف الأحلام الضائعة والذنوب المتكدسة، عزفت من أجل العفو، من أجل العودة، من أجلي أنا...

كنت قد أضعت كثيرًا من الوقت وركضت كثيرًا بلا جدوى ما حلمت به لم أحصل عليه ومن ثم فقدت كل ما لدي، جلست على رصيف الأيام أتسول الحياة فلم أجدها.

واليوم ها أنا رغم كل ما حدث إلا أنه ينتابني شعور مريح لا أعلم مصدره هل هو هدوء ما بعد العاصفة أم أنه التبلد، لا أعتقد فبداخلي رضا لا أعلم كيف هبّ على روحي فجأة.

سأبدأ في ترتيب البيت ومن ثم ترتيب أفكاري، سأتخلص من كل الفوضى سأُنظف الجدران وأغسل قلبي مجددًا.

سأنثر الغبار من على الأريكة كما سأنثر غبار الماضي وأهلًا ببداية جديدة بزي جديد.

لم أحاول الاتصال بروني لا أنكر أني أشتاقه كثيرًا ولكن ما فائدة ذلك؟ أني أشتاقه وأنا عاجزة عن ضمه بقوة، لذلك قررت الانتظار، الانتظار دون لهفة.

فكرة العمل في دار المسنين هي أسوأ تجربة سيكون عليّ اجتيازها ولكن ليس لدي مكان آخر كما أنه العمل الوحيد المتاح لي حاليًا لذلك عليّ النوم مبكرًا كي أستيقظ بنشاط.

****

عزيزتي ديم...

لقد أخبروا الأسد من قبل أنه لا يستطيع اصطياد الغزلان لأنها أسرع منه فيمكنها الفرار بسرعة.

كان الكلام منطقيًّا للأسود، حيث تبلغ سرعة الغزال ٩٠ كيلومتر/ الساعة في حين تبلغ سرعة الأسد ٥٨كيلومتر/ الساعة

فلمَ لا يكتفي بالأرانب وحسب؟ كان مخالفة المنطق مستحيلًا لكن أسد واحد قال إن كنت أعتقد أن الأمر مستحيل فلمَ لا أثبت العكس وأبدأ؟

ربما لا نمتلك السرعة لكن هناك القوة

وبهذه النظرة المختلفة تحول تاريخ الأسود إلى انتصار عظيم بالنسبة للغزلان، إنه الخوف.

سواء الخوف من المعتقدات أو الخوف من الفشل.

إيمان الأسد بقوته زادت نسبة خوف الغزلان من عدم النجاة لتجعلها تكثر من الالتفات دوما إلى الوراء من أجل تحديد المسافة التي تفصل بينها وبين الأسد. هذه الالتفاتة القاتلة هي التي تؤثر سلبًا على سرعة الغزال، وهي التي تقلص من الفارق بين سرعة الأسد والغزال وبالتالي تمكن الأسد من اللحاق بالغزال ومن ثم افتراسه.

لا معنى للسرعة أو الحجم في هذه اللعبة، إنها مسألة الإيمان بما نريد وحدها الثقة مع التركيز بما نمتلكه تُحتم علينا الانتصار

لذا استخدمي مهارة الغزال وثقة الأسد

أحبك ومعك دومًا" .

****

كانت هناك الكثير من الأسّرة التي تحتاج إلى تغيير أغطيتها، كما كان عليّ إحضار الإفطار لكل عجوز في الحديقة مع توزيع الابتسامات عليهم وإلقاء التحية وأنا أبتسم أيضًا والجلوس بجانبهم حيثما ينتهوا من طعامهم، المحافظة على ثيابهم نظيفة، إعطاؤهم الدواء في الميعاد المناسب وقائمة بالتعليمات الكثيرة التي لا تنتهي وهذا ما زادني ضجرًا من أول ساعة وضعت بها قدمي بالدار، فإني لا أمقت شيئًا أكثر من روتين العجائز الممل.

وذاك هو الانطباع الأول ويسعدني جدًّا أنه أكثر انطباع خاطئ أخذته في حياتي، لقد انقلبت الموازين رأسًا على عقب والمكان الذي اعتقدت أنه الأشد ضجرًا وملًا، بات المكان الوحيد الذي أجدني فيه وأستمتع، هل يعقل؟! نعم... فقد بات لي آباء كُثر وجدات أكثر لقد نعمت بدفء العائلة الذي لم أعشه يومًا.

كان يومي يبدأ بمساعدة العجائز على الاستيقاظ ثم تناول وجبة الإفطار وفي الحقيقة هم من كانوا يرغمونني على الإفطار قبلهم مؤكدين لي أني بحاجة إلى الكثير من البروتين والطاقة، ومن ثم نخرج إلى الحديقة للقيام ببعض التمرينات الرياضية وتعجبت كثيرًا حين رأيت كم الطاقة التي يمتلكونها وأفتقدها.

كم أتمنى أن أجعل الوقت أطول لأحظى بمزيد من الحكايات والمغامرات التي مروا بها فأكتسب منها متعة ومعرفة ومرحًا.

بالإضافة إلى تعلمي أشياء ممتعة وجديدة كالحياكة ببكرات الصوف كما أني حصلت على طقم من الصوف باللون الأبيض والقرمزي من الخالة ريدي وهي من علمتني كيف ألعب بالخيوط بالطريقة التي أريدها.

واطلعت على قصص من تاريخ روسيا وتراثها لا رأته عيني في كتب ولا حضرته أذني في حصص المدرسة.

كما تسنى لي تعلم الشطرنج، أكثر الألعاب المزودة بتكتيكات للتعامل فقد جعلتني أؤمن أن خطوة واحدة قادرة على تغيير مسار كامل لذلك عليّ التفكير بمئة خطة بديلة قبل اتخاذ خطوة واحدة.

بدأت يومًا تلو الآخر أعتاد عليهم واحدًا تلو الآخر أكثر فأكثر، كان الجميع قد اعتاد عليّ فنجلس مساءً نتسامر ومن ثم أبدأ بالعزف فأحظى باهتمام وتشجيع الجميع الذي زادني حماسًا وحُلمًا وبدأت حالتي النفسية تتحسن شيئًا فشيئًا.

غادرت الدار متأخرة قليلًا اليوم، فكان ورائي الكثير من العمل، متعبة جدًّا لكن لا أود الذهاب للنوم ولا الجلوس بالبيت لذلك أخذت طريق النهر وجلست مستكينة مع نفسي لبعض من الوقت.

الجو لطيف، هواء بارد يلمس روحك لتُحلق مع ضوء الصباح الباكر، إنها سكينة الصباح الممزوجة برائحة ساحرة لم تفسدها بعد أنفاس الزحمة، عدت للمنزل أخيرًا بعد يوم طويل بدأته منذ السابعة صباحًا.

فتحت عيني بدهشة بعدما كان قد أثقلهما التعب لأجد طردًا باسمي موجودًا على الباب، فتحته وأنا أتساءل من يمكنه إرسال شيءٍ كهذا لي، كنت قد بدأت أعتقد أنها هدية من أحدهم من حجم الصندوق لكن عند فتحه كان فارغًا تمامًا إلا من كارت صغير يبدو أنه ليس كارتًا عاديًّا فغلافه الفخم والأختام التي عليه توحي أنه من جهة مرموقة.

أسرعت في فتحه ودقات قلبي تتزايد لتهبط عيناي أخيرًا غير مصدقة بما يجري.

أعدت قرأتها أكثر من خمس مرات لأتأكد أنها حقيقة، ضممتها لصدري وأنا أقفز عاليًا صارخة يا ألله .

ارتميت على الوسادة وأنا أُتمتم بها حرفًا غير مصدقة وكأنني في حلم رائع لا أود الاستيقاظ منه، قرصت نفسي عدة مرات كي أشعر أنها الحقيقة لكني للآن لست متأكدة، ومن كثرة قراءتي خرجت لشرفة الغرفة وصحت عاليًا

يا حلم أنا قادمة؛ هل تسمعني؟! أنا قادمة.

****

ضمت الرسالة لصدرها بقوة وركضت منطلقة بقوة نحو الدار لتشاركهم ما لم تصدقه بعد، فاجتازت البوابة بسرعة وبخفة، جذبتْ كرسيًّا واعتلته برشاقة لتقول بصوت عالٍ يسمعه كل من تجمهر حولها:

- لقد تم اختيارك لتلقي منحة انتساب إلى معهد موسيقى سانت بطرسبرغ مع كافة تكاليف الدراسة والإجراءات القانونية لذلك .

لتُختم الرسالة بجملة:

"ليس عليك عزف الألم مجددًا حان وقت الحلم يا عازفة الحقيقة".

****

أصبح الدار محور حياتي كلها ومعه شعرت أني لن أكون وحيدة مجددًا لم أكن أتخيل أني سأصاب بالتعلق بهم إلى هذه الدرجة خاصة مع العم جاك فقد كان أحبهم إلي، كان يعدني ابنته بكل معنى الكلمة ووجدت معه الأبوة التي لم أعشها ولم أحظَ بها بتاتًا، كان سنه كبيرًا جدًّا مقارنة بروحه التي ما زالت متمسكة بخفة الشباب رغم كونه فقد القدرة على المشي حيث يستعمل أحيانًا عكازًا وأحيانًا مقعدًا متحركًا حينما يشتد تعبه إلا إنه يقوم بجميع أنشطته اليومية دون تعب محافظًا على لياقة جسده. كان مثقفًا يحب الفن والموسيقى والحياة، يذكرني بوالدتي كثيرًا لذلك شعرت بانجذاب وراحة له وكثيرًا ما كنا نتسامر طوال المساء حول كل شيء؛ الحياة والدين والمجتمع والإعلام والسياسة والأدب والفن لقد أمدني بالكثير من الأمور التي كنت أحتاجها، مسكين هو جاك فلم يحظَ بأطفال مما أحزنني كثيرًا، من الموحش أن تكون وحيدًا، زوجته تركته منذ زمن ولم يكن لديه عائلة ولا أقارب مما أشعرني بالأسى فأنا أعلم جيدًا معنى أن تكون وحيدًا لكن في الوقت نفسه كنت أشعر بالسعادة، بالخفاء، فلو كان له أطفال لما كنت قد حصلت على كل هذا الحب منه وحدي.

رغيفان وحلم

كان اليوم متعبًا جدًّا أخذت نفسًا عميقًا ودخلت المنزل:

- لقد تأخرتِ انتظرتك كثيرًا.

انتفضت من مكاني فقد كانت الظُلمة تحجب الرؤية لكني تمكنت من معرفة صوته كان روني.

****

- لماذا أتيت؟

رد ببرود:

- وددت الاطمئنان عليك.

- ماذا عن كل الفترة الماضية ألم تقلق عليّ؟

رفع صوته عاليًا وهو يلوح بيديه بوجهي:

- أنت من جعلتني أرحل، رقص ولهو وخمر.

قاطعته بحدة:

- كنت أتألم لأنك غير موجود، كنت وحيدة.

- ليس لدي وقت ديم أنا أتيت فقط للوداع.

ردّت بصوت تشوبه رعشة بكاء:

- وداع؟!!!

- تعرفت على شابة طيبة ونويت أن أكمل حياتي معها، آسف.

نظرت عبر الشرفة صارخة في نفسي لا لا، لا تبكي، لا تبكي يا ديم، ابتلعت ريقي وأغمضت عيني بقوة خوفًا أن تهطل دمعة فتقلل من كبريائي:

- أتمنى لك التوفيق وشكرًا لاعتنائك بالأقحوان في غيابي.

ضحك ضحكة سخرية بنظرة احتقار لم أعهدها:

- لم آتِ إلى هنا منذ آخر مرة رأيتك فيها فلتسألي أصدقاء الليل خاصتك.

انفجرت صارخة:

- اخرج روني، اخرج ولا تعد .

****

أغلقت الباب بقوة، بغضب، بخيبة، بحنق وبكت، بكت كما لم تبكِ من قبل، بكت على كل ما حدث وما لم يحدث بعد، بكت على وحدتها وحلمها وقلبها، بكت على ما تحملته وكابدته وما لم تتحمله، كانت ممتلئة بخيبة من الجميع، كورقة اجتمعت عليها الريح والشجرة والخريف معا وفي آن واحد.

دخلت غرفتها وأمسكت نايها وهمت بالعزف لكن طرقًا على الباب أوقفها .

أنزلت الناي من على شفتيها وهبت واقفة لتفتح الباب وهي تتوعد له إن كان قد عاد ثانية.

فتحت الباب بحنق وعيناها تطلقان شرارًا لكن حين رأت الطارق شعرت فجأة بخدر يكتسح أطرافها، وقالت بنصف صوت مبحوح:

- أنت؟

خلع قبعته وبنصف ابتسامة قال بعد أن دعته للجلوس:

- كنت ذاهبًا لتقديم حفلة في معهد موسكو حين لمحتك جالسة وممسكة به بروحك كلوحة أسطورية لفنان مجهول، أعتقد أنك تذكرين كما لم أنسَ ذاك اليوم في وسط موسكو، كنت في عجلة في أمري حين استوقفني صوت ملائكي وأعين متجمعة حوله ظللت واقفًا استرق السمع وكلي دهشة من تلك العاطفة القوية وحين انتهى العزف توقفت روحي فجأة عن التحليق هابطة عليكِ:

أتذكرين يا ديم ماذا قلت يومها؟

ولأن الناي عزفكِ ولم تعزفيه اجتاز الرقي ليحلق عاليًا

أحببتك وصدقيني.

تتبعتك وعرفت كل شيء حولك أنا من أرسل لك ترقية للعمل في فندقي لكي أحظى بمراقبتك كل يوم وأنا من رتبت للمسابقة يومها أملًا في أن تشاركي وأقوم باختيارك للدراسة في المعهد الذي حلمت به لكنك تراجعت في الخطوة الأخيرة .

كنت أجلس خلف الردهة كل ليلة لأستمع لعزفك ولا تسأليني لماذا لم أصارحك بكل ذلك يومها لأنني خفت نفس الخوف الذي منعك من التسجيل في مسابقة العزف يومها.

يوم قررت ترك الفندق والرحيل كان أشد أيامي بؤسًا لكني تتبعتك وجلست في نفس القطار الذي اتخذته ورائك تماما بقربك جدا، كنت منشغلة طوال الرحلة بوجوه الآخرين ووحدي فقط كنت منشغلا بك لا سواكِ في طريق العودة، أُصبت بنوبة تشنج قليلًا ما كنت أُصاب بها لكنها بدأت تزداد لدي وربما هو سبب من الأسباب التي جعلتني لا أقترب منك بسرعة، دخلت المشفى وظللت محتجزًا فترة كانت من أسوأ أيام حياتي فكم تمنيت وقتها لو أنني اقتربت منك كفاية فلربما كنتِ بجانبي.

حين بدأت حالتي تتحسن خرجت أهرول بحثًا عنك فلم أجدك، سامحيني إن كُنت متطفلا وسمحت لنفسي دخول منزلك دون إذن والعبث في أغراضك لكن ربما يجب عليكِ أن تشكريني فقد اهتممت بأقحوانك في غيابك جدًّا حتى عاد مزهرًا بعد أن ذبل في غيابك.

بحثت كثيرًا حتى توصلت إلى أنك في مشفى وفي حالة سيئة، ذهبت وقمت بالتوصية عليك وجاءت لي فكرة دار المسنين وبعد أن وجدت أنني لم أعد أحتمل دور المتخفي الذي أقوم به أُقرر الآن مصارحتك فأنا أحبك.

ولا أملك سوى أن أحبك.

فإن قبلتِ فلكِ الدنيا منها وما شئتِ وإن لم يطاوعك قلبك فلكِ الدنيا وما شئتِ.

قالت بعد أن قامت وأحضرت الظرف الأبيض الذي وصلها قائلة:

- إذًا أنت من أرسل المنحة.

*****

(الفصل الأخير)

حين تبتر الحياة أقدامنا لن نتوقف،

فقط سنريها كيف نُحيك أجنحة قوية ونطير.

حزمت أمتعتها بعد أن انتشرت أنباء القضية في أنحاء فرنسا وروسيا. وتدخلت الهيئات القضائية والدولية في أمر المحاكمة وتبقى لها الآن فقط مهمة البحث عن شخص واحد ((وعد))

صعدت الطائرة واتجهت نحو مقعدها وجلست بصمت وشعرت للمرة الأولى براحة الصمت، كانت استطاعت أخيرًا التخلص من تلك النسخة الضامرة.

أخرجت هاتفها وكتبت:

"النشأة مع زوجين غير مكترثين لمشاعر بعضهما البعض قد علمني أن مشاعري بلا أهمية.

وانفصالهما دون أن يضعاني في الحسبان جعلني أرى أنني رقم بلا قيمة.

لذلك أكملت حياتي كلها أبحث عن من يعطيني ذلك الشيء الذي افتقدته

من خلال الإرضاء، أصبحت الطبيب النفسي لأصدقائي، أقحمت نفسي في علاقات سامة وأنهكت جسدي في العمل لساعات طوال بلا رحمة ولا راحة.

متأملة في تلك العلاقات والصداقات والتقدير من الأشخاص الآخرين والجد في العمل أن يجعلني شخصًا ذا قيمة.

لكني الآن أعلم أن كل ذلك البحث عن الحب والتقدير الذي أجريته خارج إطار نفسي كان السبب الوحيد في معاناتي، لكني الآن أخرى غير التي كنت أعرفها؛ أنا الآن ناجحة لأنني أستحق النجاح لا لأثبت لأحد ذلك".

****

وصلت روسيا ولم تكن لتُكابد وقتًا طويلًا في البحث لأن ما كانت تبحث عنه كان في انتظارها، لم تكن وعد إنما ديم .

****

خرجوا معًا يدًا بيد بعد أن أخبرتها بكل ما سمعت عنه في الأخبار عن القضية:

- تعلمين يا ديم، والدتك -رحمها الله- كانت صديقتي المفضلة، تعرفنا ببعض بمشفى الأورام.

سرحتْ قليلًا وقالت مقاطعةً إياها قبل أن تكمل:

- أنت الصديقة المراوغة إذًا صاحبة كتاب الأساطير في مشفى الأورام.

أجابت ندى بضحكة:

- نعم أنا هي.

كل شيء رائع، كل شيء كما خطط له.

إنه شعور التحليق لشخص اعتاد الزحف

لا أملك تعبيرًا جيدًا بما يكفي للتعبير عن سعادتي كيف لي أن أصف أن كل ما بك يحلق وقدماك على الأرض؟

هل هذه هي السعادة أم أنه النجاح؟

النجاح الذي يجعلني أتقدم بخطى متزنة بفستان أحمر مخملي إلى منصة المسرح بكامل ثقتي، وأي مسرح هذا؛ المسرح الذي سألقى فيه اليوم تتويجي كأجدر عازفة. لا أعلم لكن تنتابني نوبة بالبكاء من الفرحة، تلك الدموع التي تخبرني: نعم أنت لا تحلمين، وها هو الحلم يتحقق، ها أنا أبلغ ذاتي وأصنع اسمي، اسمي الذي لطالما كان نكرة، الذي لطالما كان مختبئًا وها هو اليوم ينثر نور أحقيته في الانطلاق في الشهرة في التحليق.

جاء صوت من خلفي ليحثني على التقدم لجمهور روسيا كله الذي ينتظرني اليوم خلف الستارة الحمراء.

تقدمت وكلي فخر، فخر بالأيام التي قضيتها أنتحب.

بالأيام التي نمت بها جائعة.

بالأيام التي كنت أتسول فرصة عمل واحدة.

بالأيام التي لاقيت بها الرفض من كل المعاهد بسبب طبقتي ومظهري وعائلتي وها أنا اليوم أقف لأفخر بكل هذا لأفخر بي.

نظرت إليه وهي منتصبة القامة فاستقبلها بنفس النظرة التي استقبلها فيها أول مرة عزفت أمام جمهور موسكو.

ابتسم بحب وحثها لتكمل وقلبه يشع فرحًا وفخرًا بكونها حققت حلمها في أن تكون المرأة الناجحة التي أرادتها وامرأة قلبه التي لطالما حلم بقربها .

ابتسمت بفخر حين رأتهم في الصفوف الأولى يصفقون بحرارة.

ديل وريكا وندى والعم جاك وأصدقاء المعهد والدار والفندق، جميعهم كانوا هناك ليحضروا ميلاد امرأة أنجبتها الأيام.

****

أعود بالسنين للوراء لآخر منعطف بالشارع لمحل المخبوزات لأبي بوعدي.

دخلتُ بنظرة كلها حب أكثر من كونها ثقة لأجده جالسًا كأول مرة رأيته فيها غير أن ظهره كان قد انحنى أكثر وتغيرت ملامحه لتكسوها التجاعيد بفضل الأيام.

ألقيت عليه التحية بابتسامة قائلة:

- قد عدت لأبي بوعدي وأشتري المئتي رغيف يا عم، أنا فتاة الرغيفين وحلم، وها أنا أتمم صفقتي .

تمت

فهرس